الانبعاث الحضاري
في فكر فتح الله كولن

أ.د. سليمان عشراتي

دار النيل

الانبعاث الحضاري
في فكر فتح الله كولن

Copyright © 2012 Dar al-Nile
Copyright © 2012 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
تصميم وغلاف: مراد عرباجي
رقم الإيداع : ISBN 978-975-315-484-0

DAR AL-NILE
Bulgurlu Mah Bağcılar Cad No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة
العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،
مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية
هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥
المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

الانبعاث الحضاري

في فكر فتح الله كولن

أ.د. سليمان عشراتي

دار النيل

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

مقدمة ٩

الفصل الأول
موقع الفكر في منهج الأستاذ كولن

في أبستمولوجيا الفكر الحركي ٢١
الفكر الإيماني ٢٤
الفلسفة الفكرية لدى كُولن ٢٥
الدين ومخاطر الوقوع في الفكر الدوغْمائي ٢٩
بين الدين والأيديولوجية ٣١
مقومات فكر كولن ٣٦
التراث الإسلامي وأصالة الاقتراب العقلي ٣٩
قراءة في فكر كولن ٤٣
فكر الآلية، وفكر التمرس ٤٤
مكانة الفكر في رؤية كولن ٥٥
الأهداف والغايات التي سدد نحوها كولن ٦٠

الإرث القدسي المتوارث ٦٤
كولن وحديثه عن أمة القرآن ٦٦

الفصل الثاني
فتح الله كولن..
الارتحال بالأمة من فقه النازلة إلى فقه النهضة

كولن.. مؤسس فقه النهضة والتعمير ٧٩
الفقه في مهب المصادرة الأيديولوجية ٨١
كيف حدثت نكبة المسلمين في العصر الحالي؟ ٨٢
تركيا من دور الحاضن إلى دور المنقلب ٨٣
على خطا نهج الفقه الأكبر ٨٧
يُسر المبادئ الشرعية وجوهرها التخليقي ٩٣
مبدأ تداول المشترك الإنساني ١٠٨
اجتهاد التأصيل والتصويب ١١٢
الفقه التمويلي ١١٩

الفصل الثالث
تجربة الخدمة..
لبنة على طريق نهضتنا المعاصرة

ونحن نبني حضارتنا ١٢٤
العولمة والعولمة المضادة ١٢٥
المآل المشؤوم ١٢٧

كيف يقرأ كولن الأحداث؟ ١٢٨
دعوة كولن... عوائق وحقائق ١٢٩
حراء الرمز ١٣٣
إعادة تركيب كيان الأمة ١٣٤
نظرة كولن إلى الحضارة ١٣٦
بداية الدعوة وتكوين الإنسان الفاعل ١٤١
المدرسة، الإنسان، الحضارة ١٤٢
النهضة بين المدرسة الكسيحة والمدرسة الناجزة ١٤٤
أهم ما تسعى إليه المدرسة الناجحة ١٤٨
البيئة والبناء ١٥٠
الكلمة المفتاحية ١٥٢

الفصل الرابع
فتح الله كولن وفلسفة البناء بلا عنف

التأسيس للحراك والنهضوي المعاصر ١٦٠
دور المثقف في النهضة ١٦٢
إستراتيجية اللاعنف ١٦٩
اختيار الأطراف ذات القابلية للتحاور ١٧٥

الفصل الخامس
مبدأ الواقعية في فكر كولن

الدولة، القائد، الأفراد والبناء الحضاري ١٨٦

فقه الحضارة ١٩١
الأسس الإنسانية في الإسلام ١٩٢
مصادر العزة والبعد الروحي ١٩٤
تحرير الإنسان في الإسلام ١٩٧
سمات النموذج الحضاري الإسلامي ١٩٩
الفواعل والطلائع.. قادة الفكر والروح ٢٠٢
المحركات والدوافع ٢٠٧
أسس الرؤية الحضارية لدى كولن ٢١٠
مركزية الدين في الإصلاح ٢١٣
الهياكل والقيادات ٢١٧
نشأة كولن وتأثيرها ٢١٩
أثر التخلية والعزوبة في كولن ٢٢١
المصلحون والاحتراق الذاتي الدائم ٢٢٢
العقل الملهم وقادة الفكر ٢٢٥
رجال الخدمة ودورهم في البناء ٢٢٥
إستراتيجية قرن العلم بالدين ٢٢٩
تلافي الثغرات في المنهج والأداء والإنشاءات ٢٣١

مقدمة

التقيت الدكتور سليمان "عشراتي" أكثر من مرة، وسمعته متكلمًا، واستمتعت بكتاباته عن "النورسي" رحمه الله تعالى، وقد دهمني أسلوبه الشيق في الكتابة، وقدرته المذهلة على الغوص في الشخصيات التي يكتب عنها. وأستطيع أن أقرر مطمئنًا –من خلال ما قرأت له- أنه يمتلك روحًا فنيًّا مرهفًا، ونزوعًا تشكيليًّا. فكتاباته تشكيلات في لوحات فكرية، أو فكرية في لوحات تشكيلية. وهو لمَّاح شديد اللمح، دقيق النظر، واسع الاستيعاب ثريّ اللغة، خصب الثقافة، قوي العارضة، الفكر عنده بناء وتشييد، والأفكار صروح، والمفكرون معماريون، والزمان والمكان مواد بناء.

والدكتور "عشراتي" يلج عالم "فتح الله" الفكري والروحي مستحضرًا بالتأكيد مفاهيمه المعمارية في التعامل مع فكر الرجل، فيكثر من الإشارة إلى البيئة التي نشأ فيها "كولن" وعاش في كنفها، وهي بيئة ثرية بصروحها المعمارية التي شيدها العثمانيون من حبات قلوبهم وأرواحهم، وسقوها من رحيق فنونهم ومعارفهم وجماليات وجدانهم مما كان لها أثر كبير على تكوينات فكره وتشكيل وجدانه، وإثراء خياله، فكل كلمة خطها قلم "كولن" ما هي إلا لبنة من لبنات الصرح المعماري لفكره السامق. وفي صدد ذلك يقول عشراتي "لقد قامت فلسفة الأستاذ "كولن" على الإيمان بأن عمل المفكر عمل بنائي بالأساس"[1]. ويقول كذلك "إن الإيمان العميق

---

[1] انظر: صفحة ص:٤٩ من هذا الكتاب.

يمكّن المادةَ "الجسدَ" من أن تتقمص الروح ويمكّن الروحَ "الفكرةَ" من أن تتقمص المادة، وبذلك تستحيل الفكرة يدًا تبني، وظهرًا ينقل، وجارفة تحفر، وجموعًا تنجز، وهيئات تتابع وتموّن. هذا بعض ما تمثل به الأستاذ "كولن" دور رافعة القرآن في تحقيق الفرد الفاعل، والمجتمع الناهض.[٢] فالحضارة أولها فكر، وآخرها علم، وما بينهما كفاح وإرادة وعزم.

فمن خصائص فكر "كولن" كما يرى "عشراتي" قابليته الفذة على التحول السريع من طاقة فكرية مشعة في الذهن إلى صروح كتلوية ومؤسساتية فوق أرض الواقع، ومن أجل هذه الخصيصة المتفردة صار فكره معتمدًا في عملية التحول الحضاري الذي وضع "كولن" خطوطه العامة في كتابيه القيمين "ونحن نبني حضارتنا" و"ونحن نقيم صرح الروح". فالحضارات في رأي "كولن" إنما تخوض صراعاتها من أجل قضية واحدة هي الرغبة في التأكيد على الذات، وفي الوقت نفسه محاوَلةٌ مجهِدةٌ تؤديها روح الأمة لتحتفظ باستقلاليتها وتفرّدها عن الآخرين. وهذه التجليات الحضارية والروحية تعتمد بالأساس على قدرات المسلم على تغيير نفسه وتجديدها وإدراكه أبعاد الفكرة التي تقول بانتماء الإنسان إلى نظام كوني عظيم. ومن هنا يقف "كولن" بالضد من المحاولات المحمومة التي تريد استلاب شخصية المسلم وتذويب استقلاليته، ومن أجل هذا يقول عشراتي: "لايزال "كولن" يعلن في كتاباته بأنه يمثل حلقة ضمن سلسلة ذهبية من الأسلاف المباركين انبثوا عبر العهود والمراحل، وعاشوا متفرغين للكدح والتنسك والدعوة إلى الله، وإرساء أسس

[٢] انظر: صفحة ص:٥٥ من هذا الكتاب.

الإحسان وخدمة الأمة"[٣].

إن صخب الحضارات وضجيجها وارتفاع أصواتها كثيرًا ما يعمل على إخفاء الإنسان على نفسه، وجعله غارقًا في يم ما تفرزه هذه الحضارات من توافه ومن قشريات وصدفيات، أما حضارة الإسلام –كما يرى كولن– فهي حضارة تعتمد الإنسان أسًّا مهمًا من أسس وجودها ونفسه هي المقصودة بالأساس للارتقاء بها في مراقي التهذيب والتقريب من خالق الإنسان وبارئ الوجود.

فالحضارة التي لا توفر لإنسانها وسائل الكفاح الروحي الارتقائي من النسبي إلى المطلق، ومن النهائي إلى اللانهائي، حضارة عرجاء كثيرة التعثر والسقوط، وهذه هي الحضارة التي لا يرغب "كولن" بامتداد سلطانها إلى عالم الإسلام.

ويمضي الدكتور عشراتي في تحليل فكر "كولن" حيث يقول: "ولما كان "كولن" إنساني الرؤية، ذا فلسفة دعوية كونية، فقد أرسى مسطرة منهجه على شعار اليسر والتيسير الذي يراه جوهر العقيدة الإسلامية ومميزها، وطابعها الأصيل الذي إذا ما حادت عنه تعطلت الدعوة، وتأجل موعد تلاقي الأمم مع الدين الذي شاء الله أن يكون دين البشرية قاطبة"[٤].

ولئن كان العالم اليوم غير مهيأ لاستيعاب متطلبات الحضارة الروحية العالمية التي يرسم "كولن" معالمها من خلال كتاباته، وهذا قد يصح إلى حد ما عندما نغفل عن طبيعة الإنسان ذي الذكاء المتجدد، وذي القابلية على التجربة والانتقال من طور إلى طور. فإنه إذا ما حاول أن يلم شتات

---

[٣] انظر: صفحة ص:٧٩ من هذا الكتاب.

[٤] انظر: صفحة ص:٩٩ من هذا الكتاب.

نفسه، ويوحد ذاته، فإنه سيكون سريع الاستجابة لمتطلبات هذه الحضارة التي تتوافق مع الفطرة التي فطره الله عليها. فـ"كولن" وفي كل كتاباته يراهن على الإنسان، ويراهن على قدراته المذهلة على تغيير نفسه من النقيض إلى النقيض، ويراهن على إرادته اللامحدودة التي تشكل مغزاه الوجودي. فهذه الإرادة قهارة جبارة، تعينه على التغيير والتبديل، وتذليل الصعاب وإزالة العقبات والوصول إلى الغايات.

وتتجلى هذه الإرادة الخارقة في عمل من أهم الأعمال الحضارية الفكرية، وكما يقول "عشراتي": "إن استصدار حراء العربية اللسان في تركيا جاء تتويجًا لمراحل مريرة من النضال والصبر خاضها أبناء الأمة الأجلاء هناك، وبذلوا أعمارهم لأجل كسب النصر في معركة استرداد الهوية الروحية والانتماء الحضاري. لقد أبى التغريبيون إلا أن يجهزوا على الحرف العربي في "تركيا" فجاءت اليقظة التي أثارها "كولن" ليعيد الأمر إلى نصابه، فكان إصدار مجلة "حراء" إشارة معبرة وإعلانًا فصيحًا على أن الفجر أشرق من جديد"[٥].

والحضارة التي يرى "عشراتي" أن "كولن" يرسم خريطة الطريق للوصول إليها، حضارة لن تخفق أبدًا في أخذ العالم كله في روحها، وفي سعة عقلها، لأنها علوية المصادر، ربانية الإمداد، فقدراتها على الاستيعاب غير محدودة، ورغبتها بالامتداد والتوسع لن تتوقف، وإفساح المجال أمام الذات وتجلياتها وإبداعاتها والتفوق على نفسها مما تشجع عليه وترغب به، وكما سبق للإنسانية أن ائتمنت حضارة الإسلام على نفسها قرونًا عديدة فهي كذلك مستعدة اليوم أن تفعل الشيء نفسه عند

---

[٥] انظر: صفحة ص:١٣٤ من هذا الكتاب.

قيام هذه الحضارة وبالشروط التعبوية نفسها.

فحضارة الإسلام لا تساوم الإنسان على شراء نفسه، ولا تتودد إليه بتبرير سقطاطه، والإغضاء عن انحداراته، وتكريس استمرارية ضعفه، وكأن حضارة الغرب تقول له بلسان الحال "لا عليك إن أنت شرعت بالانحدار، لأنك إنما تفعل ذلك استجابة للجانب الحيواني فيك". إنها حضارة متفهمة إلى حد بعيد لجوانب الضعف الغريزي للإنسان، ولم تلتفت إلى جوانب القوى الهائلة التي يمتلكها لاستخدامها في الارتقاء والترقي من حال الضعف الدركي إلى حال القوة الارتقائي كما تفعل حضارة الإسلام. لاجدال في أننا نخطو نحو فهم "القوة" الإنسانية، وإن كانت حتى هذا اليوم خطوات بطيئة إلا أنها في الاتجاه الصحيح. لقد نبهنا "كولن" كما يقول "عشراتي" إلى هذه القوة، وقال إنها موجودة في دواخل الإنسان، لكنها في الأعماق البعيدة من هذه الدواخل. فالإنسان من غير هذه القوى يشعر بحراجة حياته وربما تمنى أن لم يكن موجودًا على الإطلاق، وهذا مما يمرضه ويجعله خائفًا من وجوده نفسه.

فالتفات "كولن" إلى هذه القوة، والإشارة إليها، وحث الإنسان على الذهاب وراءها للكشف عنها واستخراجها إلى "عالم الشهود" واستخدامها في بناء قواه النفسية وقواه الحضارية، أمر في غاية الأهمية، لأنه عمل من صميم ما يحث عليه الدين ويرغب به الإسلام. فالإسلام -دينًا وحضارةً- يتخذ من هذه القوى قاعدة يبني عليها صروحه الفكرية والحضارية والأخلاقية.

أديب إبراهيم الدباغ

الفصل الأول
موقع الفكر في منهج الأستاذ كولن

- في أبستمولوجيا الفكر الحركي
- الفكر الإيماني
- الفلسفة الفكرية لدى كُولن
- الدين ومخاطر الوقوع في الفكر الدوغْمائي
- بين الدين والأيديولوجية
- مقومات فكر كولن
- التراث الإسلامي وأصالة الاقتراب العقلي
- قراءة في فكر كولن
- فكر الآلية، وفكر التمرس
- مكانة الفكر في رؤية كولن
- الأهداف والغايات التي سدد نحوها كولن
- الإرث القدسي المتوارث
- كولن وحديثه عن أمة القرآن

امتدت شجرة الفكر الإسلامي ضمن بنية عضوية لها أصل ثابت هو القرآن والسنة، ولها فروع نمائية تتمثل في حاصل التوليدات التشريعية التي ظل يستنبطها فقهاء المدنية وعلماء الاجتماع وأرباب النظر العقلي المسلمون من خلال تَرَصُّد المستجد من القضايا الحياتية، وتمحيص القيم والنوازل، حلالها من حرامها.

الصيرورة المدنية جعلت التفكير الإسلامي يمضي في وجهات حيوية متشعبة، تحكمه الشروط التاريخية والمقومات المدنية والنزعات الروحية والمذهبية، الأمر الذي أكسب هذا التفكير "الإسلامي" هويته الثرية المتّسمة بالتعدد، إذ أضحى فكرًا أفرزته مدَنية عظيمة ازدهرت قرونا، واستوعبت روافد المعارف العالمية من خلال استقطاب وتوطين ومفاعلة الناجز العقلي والنظري في المدَنيات الأخرى، سواء منها تلك التي عاصرت مدنية الإسلام أو التي سبقتها.

لا ريب أن كونية الدين الإسلامي هي أساس هذا التفتّح الفكري الذي يميّز الاجتهاد الإسلامي، إذ إنه اجتهاد وليد شريعة جاءت لتشمل الناس كافةً، وفي مختلف أوطانهم وأعصارهم، وتغطّي مقتضيات التجدد المدَني، فلذا تأصلت فيه المرونة بقدر ما ترسّخت له روح التحوط وحفظ الضوابط والأسس.

حين نتحدث عن الفكر الإسلامي، فإننا نقصد هذا التفعيل النظري

والتطبيقي الذي مارسه العقل الإسلامي في شتى مناحي المعرفة وحقولها، واستنجز وأثل محاصيل وذخائر معتبرة، شكّلت تراث الأمة ورصيدها الذي انْبَنَت عليه ثقافتها، وتَشَكَّل وجدانُها. فبعد أن كانت ثقافة العرب شعرية، أضحت للأمة بحلول الإسلام وانتشاره عبر القارات، علومًا أسّس لها الدين الإسلامي، ووسّع من ألوانها وأجناسها المعرفية تعدد الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الإسلام، وانخرطت فيه انخراط انتماء وعطاء، فكان الحاصل هو هذا التراث الزاخر الذي كان ذات حين يمثل -وفي شتى المجالات- سقف المعارف والعلوم والفنون الذي بلغته البشرية، والمرجع التوثيقي المحال عليه في المعرفة الإنسانية في تلك العهود، إذ ازدهرت تلك المعارف والفنون والعلوم، بازدهار الحضارة الإسلامية نفسها.

على أن هوية هذا الفكر "الإسلامي" لا يمكن أن تنحصر في نطاق أصوله الأم (القرآن والسنة وما انبثق عنهما من تأصيلات)؛ لأن النماء الذي عرفه العقل الإسلامي عبر العهود، كان نماء ديناميا لافتا. فحتّى الدخيل (الاسرائيليات والثقافة اليونانية والهندية وغيرها) قد تماسّ مع هذا الفكر، وشكل بُعدًا من أبعاد إحالاته، ولو بِسَوْق الأمثلة والعبر. من هنا ينبغي الاعتراف بأن هوية الفكر الإسلامي تستجمع بنية متجذعة هي جداره الأصيل، وعاموده القويم، من حيث تنامت الفروع، وتكاثرت الغصون، أشبه بالشجرة، لها قائم مكين، وأدواح متكاثفة وممتدّة في مختلف الاتّجاهات.

وفيما ظل الفقه الإسلامي يمارس مهمة تمحيص ومَعْيَرَة النوازل الاجتماعية والتعاملات المدنية من وجهة نظر الشرع، حاول الفكر

الإسلامي أن يتطارح التصاميم والخطاطات والحدود السقفية التي تسوغها الشريعة، وتنسجم مع المقاصد الرئيسة التي تؤطّر المسار الحضاري في مضيه عبر سيولة الأزمنة والأمكنة وتحولات الحياة.

وإذا ما أردنا أن نضع تعريفًا مبسّطا لكل من مَنْشَطَيْ الفكرِ والفقهِ، قلنا: إن الفكر هو الفاعلية الذهنية التي تستهدف فهم الحياة والوجود، واستقراء الوقائع الموصولة بالإنسان، ماضيه وحاضره ومستقبله، باعتباره (الإنسان) ماهية وجودية فردية وجمعية، مهيّأةً للتحولات والتحديات المصيرية. وإن الغاية من وراء ذلك الفهم هي بناء رؤى معرفية تسهم في ضبط الظواهر (الاجتماعية والمدنية والوجودية..)، بقصد تَهْييئ نوع من السيطرة أو الأمان للإنسان في رحلته في هذا الكون.

وبالمقابل نقول في تعريف الفقه أنه حقل مصادرة الحوادث الحياتية والأنشطة المدنية والتعاملية، ووضع الضوابط الملائمة لها من وجهة نظر شرعية الزامية.

وحتى نكون موضوعيين في هذا الصدد، علينا أن نسجّل أن منْزلة الفقه في سُلَّم المباحث والمقاربات الإسلامية قديما، قد ترجّحت ولبثت تجنّح -باطراد- نحو التفوّق والعلوّ بالقياس إلى كفّة المفكر، وتزامن ذلك مع تثاقل وتائر السير والنماء في الحضارة الإسلامية، حيث سادت عقلية الكساد والتكفّف على الحياة في كافة الحقول المادية والمعنوية.

كان الفقه يعرَّف بأنه العلم،[1] وكاد مصطلح العلم أن يختص بالتشريع، لما بين الاجتهاد وبين مدونة الكتاب والسنة من ترابط عضوي لاحم،

[1] وهو تعريف يقر للفقه بالشمولية والأسِّية.

إذ الأصل أن لا ممارسة اجتهادية إلاّ بنصّ أو ما ينوب عنه من قياس واستحسان وما إلى ذلك.

ومثلما ترجحت مكانة الفقيه قديمًا، وتأصّلت له صدارة الفتوى والتوجيه الشرعي في العهود الإسلامية الماضية، تتميّز اليوم منزلة المفكر، ويحظي بعلو الشأن لدى الأوساط الحية، رغم الانبخاس العام الذي نراه يشمل القيم النبيلة، نتيجة ارتباط الأمم والشعوب بحضارة مهيمنة، لا تفتأ تتَوَحُّل وتغرق في حمإ سياسات التهتك والسقوط في بوائق التحلل والجشع والاستهلاكية.

إن التلاطمات الثقافية الكونية، والوهن المدني شبه العقيم الذي عليه مجتمعاتنا المسلمة، يجعلان وجدان هذه الأمة أشد ظمأ إلى التأصيل، وأكثر شوقا إلى التميز؛ لأن ضمير الأمة المؤصلة بتعاليم عقيدتها، مهما ضغطته الترديات، يظل دائما يصطنع، وبوازع من التأبي، ما وسعه اصطناعه من أسباب الارتباط بالجذور، إنْ على مستوى الثقافة، أو على مستوى العقيدة، أو على مستوى بقية منابع الهوية.

يلتقي اليوم المشربُ الفقهي بالمشرب الفكري، ويشكّلان مسيلا واحدًا تُستَقى منه القواعد الاسترشادية التي تكفل شرطَ التحرزِ، ومضمونية المسار، واطرادية التطوّر، وصنع التاريخ.

مفكر العصر الحاضر، عصر الرهان على التموقعات المستقبلية الحاسمة، أَكثر استيعابًا لمعطيات وقته، وأكثرُ إدراكًا لمقتضيات مرحلته، وأعمقُ وعْيًا بالمتطلّبات التي تستلزمها سلامة النهج ورشدية الحراك والتوجه.

المفكر اليوم، هو فيلسوف بأصالة الاشتغال العقلي الذي يتعاطاه..

فقيه بحتمية المراس الضمني الاجتهادي الذي يزاوله.. خبير استراتيجي بحكم الاهتمام الاستشرافي الأوكد الذي يربطه بالمستقبل والمصير.

وحين نتحدّث عن المفكر فتح الله كولن، فإننا نتحدث عن واجهة اجتهادية معاصرة، أهّلتْها مسيرتها الكدحية أن تلفت الأنظار وتستقطب الجهود بكفاءاتها النفاذية، ورهاناتها الشمولية، وعطاءاتها العملية، ومحظوظيتها الصلاحية.

في أبستمولوجيا الفكر الحركي

لا مشاحة في أن لكل مَنْشَط فكريّ غايةً ينشدها ووظيفية يتوخاها، أقلُّها تفسير ظاهرة ما، أو تفحص إِشكال بعينه، أو تأمل حيثية من الحيثيات الواقعية أو التصورية. فحتّى التفكير في المطلق وفي اللاّموضوع، يقصد متعاطيه إِشباع نَهَمٍ داخلي، أو إِسكات حيرة جاثمة، أو الاستعاضة عن ميوعة الواقع الحيّ بواقع آخر افتراضي تجنح الذهنيةُ إلى ارتياده، لِعِلَّةٍ من العلل، أو تحت باعث من البواعث الملحّة.

وإذا كانت شُعب الفكر قد تنوّعت مناهجها، وتعدّدت مشاربها، فلا شكّ أن هناك اتّجاهين يُعتبران أظهر الاتجاهات الْتصاقًا بالإنسان، وأشدّهما إلحاحًا عليه لطابعهما العملي المتجاوب مع ما جُبلت عليه النفوس البشرية من ذاتية ومن منازع أنانية نفعية. والاتجاهان هما الفكر البراغْماتي والفكر الدوغْماتي.

الفكر البراغماتي مثل الفكر الدوغماتي، كلاهما تسود نهجَه اندفاعةُ النعرة العارضة، وتخدع دُعاتَه الاستثارة الحشودية المنفعلة، وتسكرهم أعراض الوقفة والنجاح المؤسمي الزائل؛ إذ يشغلهم الغرور عن أن

يتبصروا ويقرأوا للعاقبة حسابها، لأن ما يتولد من مناهج وسياسات تفرزها رؤى استئثارية مسعورة، وتراهات استعلائية رعناء، وفلسفات مجرّدة من الأخلاق الكريمة، لا يمكن أن يدوم؛ إذ ما أن تزايل رعيلَ الروادِ فورةُ الحماس، حتى يستتب الفتورُ وتعمّ الرتابة والتسيّب المفضي حتما إلى العقم والبؤس المعنوي، وتنطفئ الحمية.

البراغْماتية تحكمها عقليةُ النُّهْزةِ، وروحُ الظفر المتعجل، والمقاصد الاستئثارية. البراغماتية -في العصر الحديث- وليدة المكْيافيلية، ومجالها ليس الحقل السياسي فحسب، وإنما تشمل الأخلاق والأواصر والقيم عامّة. إن المكيافيلية شجرة شؤم، أنبتت[٢] غابة كاملة من المناهج الذرائعية والمعارف المعاكسة للمنطق السوي والحسّ السليم.[٣]

وبدورها الدوغمائية تعني الانسياق الأعمى وراء الفكرة الجاهزة، والخطّ المرسوم، والإذعان للأمر الفوقي. إنها تقوم على خطة تفريغ عقل الفرد من دينامية النظر، وتجريده من الحق في التقدير والاختيار؛ لأن العقل حين يعلق في شَرَك الدوغْمائية، يجد نفسه يقف موقف المتلقّي المنصاع، المنتظر للتعليمات.

---

[٢] يبرر ميكيافللي فلسفته الذرائعية بكونها واقعية، مستمدة من استقراء الحقيقة الإنسانية والطبيعة الأنانية التي جُبل عليها الآدمي. وهي القناعة ذاتها التي تصدر عنها باقي ألوان الفلسفة الحسية المادية. النشوئية أو "الداروينية" مثلا، القائمة على منطق "البقاء للأصلح"، تنتمي إلى نفس الفلسفة الإنكارية التي تصدر عنها "النتشوية" والتي انتهت بعزل الله وموته، وكذا حفيدتها الفرويْديّة، إذ أحالت الأنشطة إلى غريزة الجنْس، حيث أن الليبدو -بحسبها- هو الذي يؤسس لفعل الخير (الإبداع) ولفعل الشر (الهدم) على سواء.

[٣] الحس السليم ترجمة حرفية عن الفرنسية (Le bon sens)، ويقابلها عندنا في العربية "المروءة".

هناك بافْلوفيّة تشرط الحراك الدوغْمائي، فللمثير استجابة، وللاستجابة باعث، والحركة والسكون يضبطهما النظام المسيِّر، والجموع من ثمة مستلبة، لا رأي لها إلا ما يرى الفرعون المتربب، وإلا ما تقرّره مشيئته وحساباته وأنانيته، وبذلك تدخل الحياة في الدائرة المغلقة، حيث لا تجدُّد هناك، ولا إبداع، ولا مسؤولية، بل التراجع والسلبية والموات.

في ظل الدوغمائية يوجَدُ مصدرٌ أعلى للشحن والتعبئة، يُنزله الدوغمائي منزلة القداسة، ينقاد لتعليماته التي هي ذاتها من طبيعة سريعة التلف والاستهلاك ولا أفق متجدد أمامها، ينفذها الفرد المنخرط (أو المحتوى) بحرفية، أي بآلية اتباعية،[٤] إذ الفكر حين يتأدْلج يضحى أداءات متكلّسة، هي قوالب جوفاء أكثر منها تربة تنبت الزرع، وهو طوابع تنمط الرؤية أكثر منها روحا تحرر الذهن والإرادة، وتعاليم تجمّد المواهب أكثر منها دافعية تنشط الملكات، وتحفّز على الإبداع.

وإذا كانت الدوغْمائية تعني الخضوع الصارم للأمرية التنظيمية -حزبًا، أو سلطةً، أو معتقدًا فلسفيًّا-، فإن البراغماتية -حين تتحلل من الضابط الأخلاقي- سرعان ما تتخطى نطاق التزامها التحرّري (دعه يعمل، دعه يمر)، لتتحول -هي الأخرى- إلى آلية عمياء لاصطناع الفرص، وتصيد النهز، والرهان على المصلحة وحدها، وتحقيقها بكل الوسائل. فمنطق الحياة بالنسبة للبراغْماتية يقوم على فكر التوسع في الهيمنة والاحتياز، وهو ما أسّس للرأسمالية الغربية، إذ أفضى بها التوحش، إلى حدٍّ باتت معه تخبط إلى الكسب خبط عشواء، فلا يسلم من ضراوتها مجتمع.

---

[٤] الفقه الإسلامي يبطل عبادة التقليد.. ولا يسيغها إلا للأمّي الذي عجز عن أن يكتسب أسباب الاستنارة.

الفكر الإيماني

يقابل الدوغمائية والبراغماتية، فكر ثالث، هو الفكر الإيماني؛ لأنّ الإيمان يقتضي اليقين، أي الاعتقاد بالْماوراء (لا بالسلطة الماثلة عيانا)، ثم الالتزام والمسؤولية، فهو -من ثمة- تواثُق وانخراط إراديّان كذلك، لكن من غير مقصدية كسبية أو اعتبارية، إلا الثواب عند الله.

والفكر الإيماني اتباعي بالضرورة، لأن النهر لا ينقطع عن مَنابعه. وإن خطورة الاتباع واقعة لا محالة متى انْحبس الفكر في الماضويّة بالصورة الشكلية والحدود الوضعية (الاجتهادية) التي رست عليها.

يغدو الفكر الإيماني فكرًا منغلقا، سلبيًّا، حين يقتصر على التواصل المجّاني مع وديعة الأسلاف وآثارهم، دون الخروج عن ذلك المستوى العاطفي، أو تجاوزه من حيث الفهم والتفعيل.

وإن أكثر ما نرى عليه علاقتنا بالتراث، ليندرج ضمن هذا النوع من الفكر الانكفائي، إذ لا تكاد هذه العلاقة تخرج عن حد الإعجاب والتغنّي بمنجزاته، دونما إعمالٍ للتمحيص، أو توسيعٍ لدائرة التمثّل والتعمق والتوظيف الفعال؛ فتضحى -من ثمة- العلاقة بالأثر سلبية، خالية من أي تثمير مفيد، إذ إن انحيازنا للتراث على ذلك النحو، لا يستند إلى معرفة حقيقية به، بل عن مجرد ادّعاء وتمويه وتغطية عن الجهل. فما أشبهنا -والحال تلك- بالدلاّل، همُّه أن يبيع البزة، ويأخذ حقّه من ثمنها.

ويكون الفكر الإيماني متفتحا، فعالا، حين يغدو نشاطا يستوعب إلى جانب ذخائر الأمّة وتراثها الروحي والعقلي، جماعَ منجزاتِ وفلسفاتِ وتاريخيةِ المعرفة البشرية، ويعي أطوار ومسار المدَنيات والديانات في مُضِيّها بالإنسان، وطيّها الأشواط والأدوار التاريخية المتعاقبة.. فيتغذّى

(الفكر) بكل ذلك، ويهضمه، وينمّي منه رؤية حيوية تتحرك في اتّجاه تعزيز الهوية، وتطوير قابليلتها وجهوزيتها.

والفكر الإيماني المتفتح لا يقتصر على هذا البعد الاستخصابي الذي يجنيه العقل نتيجة التفاعل الإيجابي مع مدود الثقافات والمعارف الكونية التي يتبادل معها التجاذبات، بل إنه يكتسب النجاعة حين يكيف قواه على هضم تلك المدود، وتأصيلها وإدماجها في حقول معارفه، لأجل توسيع أرضية أصالته، وتنويع مغارسها، وتسليح الروح والاجتهاد والرؤية بها، وتحقيق الإقلاع وإعادة الدينامية للمحركات[٥] العاطلة أو المعاقة نتيجة التردّي الشنيع والقعود المزمن عن الدور الحضاري.

الفلسفة الفكرية لدى كُولن

يَمَّمَ الفكرُ الإيماني في دعوة فتح الله كولن وجهَهُ صراحةً نحو الحياة والواقع والمدنية، محدثًا قطيعة باتَّة مع الفكر البالي الذي كرّسته ذهنية الاستقالة التي أقامت الهوة السحيقة بين المسلمين والحياة، حين انحرفت تلك الذهنية بهم عن جادة التعمير، وجعلتهم يستكينون لروح استسلامية دخيلة عن الإسلام.

ينْبع واجب الدعوة إلى الله، في منهج كولن، من منظور واقعي، موضوعي، تجديدي، لا غبار عليه؛ إذ يتكيف مع شروط الحداثة الفكرية، ومكاسب التطور التكنولوجي، وبيداغوجية التفاعل الأممي المعاصر.. لذلك هو يعتمد على خطة الانتشار في الأرض، وتعريف الآخرين

---

[٥] سنرى كيف يرُوج استعمالُ هذا المصطلح (محركات) في فكر الأستاذ كولن، وهو مصطلح يوازي في بعض إفاداته مصطلحا غربيا هو "الميكانِزْمات". فالأستاذ بهذا التأصيل الاصطلاحي يسيّر في خط الأسلمة، أسلمة الفكر والمعرفة.

بالإسلام، من خلال بثّ ألوان العون والاستثمار والتحسيس. فالتوسّع في الدعوة والتبليغ هو أوّلاً وقبل كل شيء توسّع في البناء الْمَرافقي والترقّي المادي الملموس الذي به تتحقق قيم الإسلام الروحية ومثله المعنوية، وتظهر آثارها الإحسانية[٦] المزكّاة على الأرض نتائج يلمسها الناس، ويستفيدون منها، فيقعون من ثمة في عشق الإسلام، والانخراط في جغرافيته.

إنها منهجية تستلهم روح السيرة النبوية، إذ إن الرسول ﷺ كافح حتى النفَس الأخير من أجل إرساء عقيدة البناء، وترسيخ القدم في الأرض، وتعزيز الموقع: «إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمْ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ، فَلْيَغْرِسْهَا»[٧]؛ وتجسيد شعار القرآن: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(مُحَمَّد:٧)؛ وممارسة فعل التجدّد: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرَّعْد:١٢).. إنها فلسفة حياتية تطبق اللاّزمة القرآنية الأبرز التي طفقت على مدار سور المصحف، تنوّه بأهل الفوز: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

تفكير كولن ينسجم مع النظرة الشرعية المقرة للإنسان بمسؤوليته في هذا الوجود، إنه فكر يتخطى إشكالية "الجبر والخيار" التي طالما شغلت القدامى وبلبلتهم، فلبثوا يدورون في الحلقة المفرغة.

لقد اعتمد المفكر كُولَن نظرية المسؤولية[٨] التي أقرتْ للإنسان، ليس

---

[٦] الإحسان بالمفهوم الديني الإسلامي، يُقصد به بلوغ مقامية الكمال سلوكًا وبذلاً وتماهيا في روح العقيدة.

[٧] رواه الإمام أحمد في المسند، ص:٣١٠٩.

[٨] النسبية.

فقط مساحة من الحرية على صعيد تصريف أفعاله، وتحديد خياراته، ولكنها أسهمته أيضا في تدبير تاريخية هذا الكون، باعتباره خليفة الله في الأرض: "يمكن حمل الخلافة المهداة من الله تعالى للإنسان، على أساس أن الله أعطى الإنسان حقّ التدخل بنسبة ما، وبمقياس ما، في جميع مناحي الوجود والحوادث"[٩].

ولقد تحدد -بظهور الإسلام- إطار المسؤولية الأخلاقية الكونية التي أناطها الحق بأهل الإسلام، إذ جعلهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. من الوعي بهذا الإلزام الريادي الشرعي، يبني الأستاذ كولن نظرته إلى المستقبل، ويرسي أسس فكر شمولي، وقواعد تصور نهضوي، تؤول فيه المقادة إلى أمّة تؤهلها عقيدتها الكونية بالضرورة لأن تكون حكَمًا وإِمامًا على العالمين.

فالفكر الإيماني عند كولن ليس نشاطًا نظريًّا تمحكيا، ولا هو استغراق تمرسي بالميتافيزيق البحت المنقطع عن الحياة، وإنما الفكر عنده هو استصلاح عملي، وتخطيط حضاري شمولي، واستشراف تمثلي مستقبلي. الفكر والعمل عنده وجهان لعملة واحدة، وقاعدة النهضة تنطلق في فلسفته من تجنيد الروح وربطها جذريا بمبادئ الشريعة؛ إذ المرامي الأساسية هي بناء الإنسان الحرّ المسؤول، ومن خلال الإنسان بناء المدنية التي تعيد للإسلام والإنسان عزّته، وتفتح في وجه البشَرية آفاق التفاهم والتعاضد باعتبارهم عباد الله جميعا.

إن مبدأ خيرية الأمة في فكر كولن، مبدأ مُعَلَّقٌ (مشروط) وله مقتضيات، إذ

---

[٩] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص: ٤٣.

لا تحوزه الأمّة ما لم يتحول فيها هذا الوصف الربّاني إلى سجيّة دينامية فارزة، وذلك بأن يكون مقرونًا بمقتضياته من الأهلية والجدارة، فلا خيرية لأمة عاجزة وقاصرة عن النهوض بشرف التكليف الإلهي حيال الكون والعالمين.

من هنا كان التمرّس بالواقع، والعمل على تنفيذ البرامج النهضوية والمخططات المدنية، لاسيما في المرحلة الراهنة، هو التجسيد العمَلي لصفة الخيرية التي وسم الخالق بها أمة الإسلام. ومن هنا أيضا قام الاجتهاد عند كولن على تقديم البعد الخدمي في الدعوة، وجعْله مظهرًا من مظاهر خلوص الإيمان، وعنوانًا من عناوين إثبات اليقين.

إن الفكر عند كولن شرطٌ وجوديّ وإيماني، مِحكُّه ومصداقيته هي النفاذُ في الواقع، والتوسع في بذل الخيرات، والإثمار الملموس في الإنسان ومن خلاله.

وليس المفكر -بحسب كولن- مَن استلبته التيارات الوافدة، وتَيَّهَتْهُ الفرضياتُ العقيمة المنقطعة عن الواقع، والمشيحة عن أن ترى تفسخات هذا الواقع فتبحث لها عن العلاج؛ إنما المفكّر مَن شق نهجه مؤطرا بالدين، وملتزمًا بمنهج الإيمان، ومتسلحا برؤية تخدم الإنسانية. فهذا المفكّر -لا محالة- سيجد جهوده تؤتي أكلها مهما شط المسار. فدائرة المسؤولية الإنسانية ترفض أن يكون الفكر فيها مواقف صورية، أو شعارات طوباويّة يُشهرها الإنسان أو يرفعها في المناسباتِ، واجهةً دعائية لا غير، بل إنها (دائرة المسؤولية) تجعل الفكر مبدءًا تنفيذيًّا، وجهدا ناجزا، وذا مردودية تعود بالخير على المجتمعات والبشرية عامة؛ إذ لا يثمر الفكر، ولا تتحقق الفكرة وتترشّد، إلا ضمن سياق تطبيقي تغدو بها الفرضيةُ أو الْمَثل،

اعتقادًا، فخيارًا، ففعْلاً ناجزا،[١٠] ولا أهمّية أو قيمة اعتبارية لفكر هلامي لا يتجسّد في الواقع الحياتي، ولا يطوّر المجتمع نحو الأصلح.

الدين ومخاطر الوقوع في الفكر الدوغْمائي

يغدو الدين دوغمائيّة متى تورّطت مبادئُه ومثلُه في العرقية والتعصب الفئويّ والفكري، وفي الانغلاق العقدي والانعزال الْجِيُوبوليتي.. ولا يُبَرِّئُ الدينَ -أيّ دين- من مطعن الدوغمائية إلا نزاهة تعاليمه، وتساميه إلى الآفاق التي تجعل من مبادئه قيَما تخصّ الإنسانية قاطبة، وتحض على الأخوّة والتعاون ونبذ المفاسد.

إن الدين الذي لا يشرع جناحيه ليضمّ البشرية كلها، وينظر إليها على أساس وحدة الجنس -الآدمية- ووحدة الربّ والمنطلق والمصير، هو دين قوميّ منغلق، انعزالي. فهو من ثمة يمثّل أكمل صور الدوغمائية، لأن منظومة المبادئ حين ينحصر نطاقها قوميًّا ومجتمعيا، تغدو أيديولوجية أو وعاءً لبناء الأيديولوحية؛ إذ يغدو من أول أولياتها تضخيم الاعتبار القومي حصرًا، وهو ما يترتّب عنه التمايز والتنابذ، لأن ثقافة العنجهية والاعتداد بالذاتية العرقية التي تنشأ عليها الأيديولوجيات (العقائد القومية) توطّد لدى أصحابها قاعدة الكيل بمكيالين، وبذلك تخرج روحيتها عن نطاق الإنسانية، إلى نطاق ضرب الإنسانية والاستهتار بقداسة الجنس الآدمي المكرَّم.[١١]

لقد انهدرت مبادئ الإخاء الإنساني نتيجة تغليب الأيديولوجيات في العلاقات بين البشَر. فسيادة الأيديولوجيات تتنافى مع مسطرة المساواة

---

[١٠] هذه هي تقريبًا رؤية كولن للمسار التنفيذي الذي يأخذه الفكر الفعّال وهو ينتقل من صعيد الذهن إلى صعيد التجسّد المرفقي.

[١١] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء ٧٠).

التي تقتضيها الروح الإنسانية، إذ يترتّب عن الأيديولوجيات شتّى الانحرافات والتعارضات التي تقضي على عوامل الترابط والتواشج التي تنادي بها الديانات السماوية (الحقّ).[١٢]

إن العقيدة التي تمجد العرق والسلالة والقومية على حساب الجنس والآدمية، عقيدة تفتئت على الله رب العالمين، وتزرع بذور التنابذ بين الأقوام، وتصادر الطريق إلى الله.

طريقتان متعارضتان يسلكهما كل من الدين السماوي والدين المؤدلج، الأول: يضع في الاعتبار الإنسانية والكائنات قاطبة، لأن مصدر الإيمان فيه ربوبية تشمل برحمتها العالمين جميعا. والثاني: يضع في الاعتبار الشأن القومي والسلالة العرقية، الأمر الذي يتقزم معه مفهوم الربوبية ذاته، إذ يغدو الربّ ربًّا للعرق وحدهم دون سواهم، رب ينبذ بقية ما خلقت يداه.

والمؤكّد أن الدين مكون روحي وقيمي أُمٌّ، تفتح الأجيالُ عيونها عليه، فتنساق في التطبع به والتكيّف عليه. بهذه الاحتوائية التي للدين[١٣] يكون (الدين) أرسخ المقوّمات التي تواجه الإنسان مهما كانت علاقته بالعقيدة، إذ حتّى الذي يقضي حياته جاحدا، يظلّ يحمل في مواجده آثار البيئة العقدية التي ولد فيها وشبّ عليها، ذلك لأن الدين مفاعل قيمي وروحي يؤثر على النفس، ويفتح الحوار باكرا معها بكيفية أو أخرى، وهو ما يهيّئ

---

[١٢] يقول الأستاذ كولن في سياق يقابل بين الإسلام وبقيّة الديانات التي انتهت بأن أصبحت مؤدلجة: "أما الدين الحق، فقد جاء برسالات البشرى التي تستجيب لكل مطالب الإنسان المخلوق للأبدية.. فالعقول السليمة والأفكار المستقيمة تقرّ أن لا إغفال ولا إحجام في هذا الدين عن رغبات الإنسان ومطالبه وأمانيه.." (راجع كتاب: ونحن نبني حضارتنا، ص:١٧٧).

[١٣] اللغة أيضا تحتوي وبشكل جذري، كيان الفرد الوجداني والعقلي، وكذلك الثقافة.

الفرد للاستجابة، لاسيما إذا كان ذا استعداد وجْداني، فيضحى حرصه -من ثمة- مركزًا على تحقيق التطابق مع شرائط الدين والانضباط مع قواعده، الأمر الذي يجعل من المتدين المثالي كائنا (مستلبا) بالدين، "فانيًا" فيه، ما لم يكن له بصيرة يقظة تقوّي صلته بالحياة وبمقاصد الوجود والمابعد.

وبما أن الديانات تتعدد في هذا الكون، وبما أنّها شكّلت منذ القديم مجالاً حيويا لتفعيل القيم وقولبة المعايير، فإنه لأمر طبيعيّ أن نجد من هذه الديانات ما هو أصيل، مصون بالحرفية التي أنزل عليها، شأن الإسلام، الدين الحق، الذي حاز شرط المصونية.. ونجد منها ما هو محور، محرف، تعترف حتى بعض نصوصه بما طرأ على نصوصه من تزوير.[١٤]

بين الدين والأيديولوجية

تُرى فيمَ تختلف الأيديولوجية بمظهرها السياسي عن الدين الحق؟ وهل الإنسان المتديّن إنسان متأدلج بالفعل؟

قلنا إن الأيديولوجية تتميز بالصبغة الاعتدادية، وبالمخصوصية العرقية، والوطنية، والفكرية؛ أمّا الدين الحق فإنه شمولي الروحية، يتعالى عن المخصوصية، إذ ينفتح على العالمية، فهو إنساني بتطبيقاته واجتهاداته، من هنا يضحى الفرد المتدين (بالدين الحق) فردًا إنسانيًا في روحه وأخلاقه وقناعاته، وإذا لم يستطع أن يبلغ هذا المستوى من التسامي، ظلّ تديّنه صوريًّا، ناقصًا. من هنا وجدنا المتديّن بدين الإسلام كائنًا إنسانيًّا بالقوّة والفعل، ليس لأنه ينيط وجدانه بحبّ الأمّة فحسب، (مفهوم الأمة في الإسلام مفهوم استيعابيّ يتّسع للأقوام والأمم والجماعات، بغضّ النظر

[١٤] اقرأ سفر أرميا مثلا، فستجد النبي أرميا يكيل الإدانات لليهود على ما حرّفوا وما بدّلوا من التوارة.

عن أعرافها وسلالاتها وألوانها وألسنتها)، ولكن لأنه يستوعب بإيمانه باقي الديانات التي توحّد الإله (المطلق) ربّ العالمين، بل ويشفق حتى على عبَدة الوثنيات، كما تذهب إليه بعض الاجتهادات الإسلامية.[١٥]

لقد تميّز الإسلام بطابعه الأممي، حيث لا يقصر الله ﷻ ربوبيته على عرق مخصوص، وحيث إن المخاطَب في الإسلام هو الإنسان مطلقًا ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(الانفِطَار:٦-٨)؛ وحيث إنّ سمة "مسلم" تطلق -في الحقيقة القرآنية- على كلّ مَن يتّبع نهج التوحيد الذي شقّ طريقه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وتَوّجه خاتمُ المصطفين محمد ﷺ. لذا كان -وسيكون- الإسلام بالنسبة للبشَرية هو الدين الأرحب الذي سيظلّ مفتوحا في وجه الأمم بسماحته وأصالة ضوابطه؛ ولذا أيضا كانت الدعوة والتبليغ من واجبات المسلم مهما كان مستواه، ينهض بها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، لا لأجل تحقيق مطمح عرقي، أو مأرب كسبي، أو مقصد اعتباري، وإنما رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، فالمخاطب هنا هو النبي ﷺ وهو -بالتبعية الإيمانية- كلّ فرد من أمّته تَمثَّلَ العقيدةَ، وبلَغ درجة الإحسان.

العقيدة الأيديولوجية تعتمد مدوّنة ترجح الكيانات والخصوصيات الفئويّة المغلقة، وتعطيها الأولوية على ما سواها، بينما المدونة الدينية القدسية تضع الإنسان -مطلقا- في صدارة توجهاتها، وتحدد مشروطية

---

[١٥] لأنّها تَرى أنّ من يعظّم الوثن، ينطوي حتما على قابلية الإيمان، من جهة، فهو مستعد لعبادة الله الواحد؛ ولأنها ترى من جهة ثانية أن تنوير الوثَني من مسؤولية المسلمين، فلذا هي ترى التقصير في دَورها، قبل أن تراه ضلالاً في مسلك الآخر.

إنسانيته على صعيدَين اثنين.

الصعيد الأول: إرساء علاقة العبودية مع الله رب العالمين، الأمر الذي يرسخ حرية الإنسان وعدم خضوعه لأيّ قوة أخرى في الكون مادية ومعنوية، إلا قوّة الله، فهو الموجد والرازق والمحيي والمميت ﷻ.

الصعيد الثاني: تأكيد المآل الأخروي للمخلوق البشَري، الأمر الذي يجعل الإنسان يعيش الدنيا بوصاية أخلاقية حيال الكون،[١٦] ومن غير ما تهافت أو تهتك، إلا إذا زاغ وضلّ واعتبر تجربة الوجود تجربة عبث لا طائل من ورائها. فبالإيمان يستشعر الإنسان أنه مسافر، وأنه لا محالة سيعود إلى موطنه، فهو -من ثمة- أحرص على أن يرجع غانِمًا.

إنّ مِن شأن إرساء هذه الروحية الأخروية في الضمير الإنساني، أن يجعل الإنسان يعيش الحياة بفكر مسؤول وروح محتسبة، وهذا من خلال إيقانه من أنّ رحلته الدنيوية هي مجرّد مقدمة لاستقرار أبَدي، مصيري، يتلقى فيه الجزاء عما قدّم من عمل (صالح أو غير صالح).

ومن الواضح أن كِلا المدوّنتين الأيديولوجية، والدينية (الحقّ)، تُحَكِّم سلطانَها في الأتباع؛ إذ الصبغة المرجعية لمضامينهما التوجيهية تجعل الأتباع في موقف مَن يجسّد الإلزامات لا مَن يتصرف فيها، وإن فوقية التعاليم توجب عليهم التسليم والتقيد بالحدود.

على أن الفارق الجوهري هو أن المدونة الأيديولوجية تشرطها الرؤية القيمية المنغلقة، فتظلّ معاقة عن التفتّح على الآخرين. فهذه الرؤية حتى لو حاولت أن تتطور في اتّجاه إنساني سمح، فستظل عرضة للتفكك، لأن

[١٦] تجسيدًا لمبدإ الاستخلاف في الأرض.

كل مسعى يهدف إلى التخفف من الصبغة الأصولية يغدو علّة انشقاق بين الأتباع، ينتهي بالمجددين إما بالخروج عن مبادئ الأيديولوجية، وإما بالتكمّش والبقاء في شكل مجاميع محصورة المساحة، لا تأثير لها، ومصيرها مجهول.

لكن الأمر مع العقيدة الدينية الحق (الإسلام) يختلف، إذ سواء أثبت الأتباع في عقيدتهم على حرفيه النصوص والْتزموا بصميم أصوليتها (تشددوا)، أم توسّعوا في استقرائها -إيجابيًّا- واجتهدوا في استنطاقها تيسيرا وتسهيلا، فإن الناتج في الأحوال جميعًا واحد، إذ إن مبادئ العقيدة الإسلامية مبادئ إنسانية، ومُثله مُثلٌ تكريمية، الآدمي بمقتضاها مشرّف من قِبَل الله، مستخلف في الكون، يستمدّ قوته من قوة الله خالق الخلق، ومسطرة الجزاء والعقاب تسري على الآدميين جميعا بمنطق واحد ومعيار مشترك.

الخلاف بين المتشدد في الإسلام والمُتسَهِّل، ليس حول مبدإ الانتماء إلى العبودية لله (فالرّب رب العالمين)، إنما الخلاف حول مستوى ودرجة الالتزام بمبادئ شرع الله. وإن الدعوات التكفيرية هي تطرّف لا يعبّر عن جوهر الآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكَافِرون:٦).

وعلى العكس من ذلك فإن الْمُوسَويّة تمنع الانتماء التعبّدي مبدءا، فلا يحقّ استيفاء مقام التهوّد إلا لمن استوفى شرط العرقية (يهوديّة الأم)، لأن وراء المعطى الديني شرطا أيديولوجيًّا، عنصريًّا، وبذلك تختلّ المعادلة ويضيع البعد الإنساني فيها.

إن الأيديولوجية توجّه النظر والوجدان نحو أهداف السلالة والحزب والعُصبة، وتربط الحشود بمنحى فكري أصم، وتُفعِّل ضميرهم نحو إكبار الذات الجمعية، بعد أن تضفي على تلك الذات صفات الامتياز

والمخصوصية، بينما العقيدة الحق توجّه الروح والقلب والضمير نحو تعظيم الله خالق الخلق والأكوان، وتغرس في الأتباع مبدأ تلازم واجب تعظيم الخالق مع وجوب تعظيم خلقه وإيلاء الرحمة والرأفة لمخلوقاته كافة.

وقد تأخذ الأيديولوجية صبغة استغلالية شمولية، فتدين بمنطق القوّة والهيمنة والانتهازية، وهو ما تجترحه العولمة في ثوبها الغربي الأصولي (الكتابي المحافظ).

ولقد استفاض الأستاذ كولن في استقصاء الفوارق التي تميز الدين الإسلامي وتفرده عن الأيديولوجيات الدنيوية، وسجّل مواطن الاختلاف بينهما في كثير من مكتوباته كما سنعرض لذلك بعد قليل.

إن مقاصد الأيديولوجية -في التحليل الأخير- هي مقاصد دنيوية نفعية، تمايزية. إنها ترجّح العاجلة على الآجلة، والحصريّ على الشمولي، فيما مقاصد القرآن أخروية، احتسابيّة، شمولية، فالعمل الصالح في الحياة يكفل سعادتي الدنيا والآخرة.. ولا أهمّية لمكاسب الحياة إلا على قدر ما تُجَسِّدُ من مصْداقية الإيمان بالله والعمل الصالح الذي يستهدف المخلوقات جميعًا، ولا يميّز بين العباد، ذلك لأن رؤية المسلم للحياة رؤية موصولة بالآخرة وبالغيب والمابعد، من هنا كانت واقعة الوجود بالنسبة للمسلم مسترسلة، أبَدية، تبدأ بالحياة الدنيا، دار العمل، وتنتهي بالدار الآخرة، دار الحصاد.

البعد الأخروي بُعد فاصل وفارق بين المدوّنتَين الأيديولوجية والقرآنية، وإذا كان لفظ "الآخرة" قد تكرر في النص القرآني بصورة ضافية، فهو شبه غائب في أسفار العهد القديم.

الأيديولوجية تحتسب المكاسب الدنيوية، فهي تقيس نجاحاتها بما يتحقق لها في مضمار الرأسمال والنفوذ والهيمنة في الأرض (السلطان الأرضي).

العقيدة القرآنية تحتسب نجاحاتها بمقدار ما ترصده للآخرة من ثواب، دون أن تتهاون أو تفرط في مكاسب الدنيا من الحظوظ الحلال (وإخلالها بهذا الشرط سبب لها الحطة والضعف والتقهقر الذي نعيش نتائجه اليوم)؛ إذ إن الاستثمار للآخرة يتحقّق بالكدح الدنيويّ، ولا غرابة أن يقرن القرآن الإيمان بالعمل الصالح في لازمة مركزية من لوازم النص القرآني: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وإن الإيمان الذي يعْنيه القرآن هو الإيمان بالربّ خالق الأكوان (الربّ الذي لا حاجب دونه، ولا حاجر، ولا وصيّ). وكذلك يعني بـ"العمل الصالح" كلّ جهد تتحقق به مأمورية الاستخلاف في الأرض، أي مسؤولية الإنسان حيال أخيه الإنسان وحيال الموجودات طرا، إذ حتى البيئة وما يعمرها من عوالم حيّة، يجب أن تشملها مسؤولية الإنسان، متى ما سما إلى مطمح تَبَوُّء مكانة الاستخلاف في الأرض.

مقومات فكر كولن

ثلاث مصادر تؤسّس لفكر الأستاذ كولن:

١-القرآن والسنة وما يستتبعهما من سيرة السلف الصالح، بما في ذلك الزاد الصوفي.

٢-الرافد المعرفي الكوني والثقافة العالمية المعاصرة.

٣-التاريخ ومسار الحضارات وأطوار المدنيات.

من الواضح أن المصدر الأول يوطّد في مواجد الفرد وشخصيته روح الإيمان وفلسفة التوحيد، إذ القرآن (الكتاب الجامع)، لا ينفك يشدد على مسألة التوحيد، ويؤكد مبدئيتها، ويجعل منها الثابت المركزي في

متونه، إذ الإيمان بالله الواحد الأحد يرسخ في النفس منطق وحدة الغيب والشهود، ذلك أن الإنسان إذا ما قدَّر نِعم هذا الكون (المشهود)، أحسن حمدها واستثمارها، وآمن -ضرورةً- بكمال وعظمة موجد هذا الكون المتكامل؛ فإذا آمن بالموجد غير المرئي، أيقن -لا محالة- بأن هناك الْمابَعد، واكتسب من ثمة روح الاحتساب ومراقبة الذات، الأمر الذي يهيّئه بامتياز لأن يعيش إنسانيته على أرفع مستوى من التجرّد والعطاء والنزاهة.

ومن شأن الزاد الصوفي -ضمن حدود الرافد الأول لفكر الأستاذ كولن- أن يُرَقِّيَ في الروح قدرةَ استشراف آفاق الماوراء التي كرّستها النصوص القدسية؛ إذ إن التمرّس بنهج التصوف تمرسٌ بالمعرفة فوق العقلية، فلكأن حقل التصوف يشكّل المضمار الوجداني الأمثل لتقمص مبادئ التوحيد وأبعادها الغيبية. ذلك لأن التصوف -في تعريف أصحابه- هو سلوك التجرّد والترقّي الروحي، وصولاً إلى الصفاء والكمال، وإذنْ فإن التصوف موصول في جوهره بروح الإيمان، إذ ركيزة الإيمان هي التوحيد والإقرار للخالق بالقدرة والمطلقيّة.

وأما الرافد الكوني والثقافة العالمية المعاصرة، فيمكن القول إن الطبيعة التجريبية التي تميّز هذا الرافد قد عززت في رؤية الأستاذ جانب النظر العملي إلى الأشياء والمعطيات الحسية.

على أن الأستاذ كولن قد كيّفَ في عقله قابلية هضم وتمَثُّل وتأصيل المعارف الكونية، بحيث باتت المعطياتُ والنتائج التي يستمدّها من هذا الرافد، تصاغ على نحو إيماني، تزايلها معه شوائب التوحّش التي تكون

تغذّت عليها من تربة الإلحاد التي استنبتَتْها.[١٧]

ولقد أفاد الأستاذ كولن -جراء ملابسته هذه الثقافة المادّية المعاصرة- من الجانب الإجرائي، التنفيذي، الذي يميّزها، إذ إن ما ورثته العقلية المسلمة عن قرون التخلف والاحتباس، هو ركود الفكر ورسوف التفكير في دائرة مغلقة لا تكاد تخرج عن نطاق حقول تداولية، تعبّدية، ترقيعية؛ وهو ما وطد انقطاع العقل المسلم منذ الباكر، عن نهج التجريب والبحث التطبيقي ومعالجة المجالات الحيوية المرتبطة بالحياة والإنتاج والتجهز والتجدد.

إن هذا الطابع الخصيب هو ما يميّز ثقافة الأستاذ كولن التي انفتحت على علوم العصر بشطرَيها العلْمي والأدبي، فلذا كانت عُدَّة التفكير لدَيه مكْتملة في آلياتها، متوازنة في تسديدها، ونافذة في توجهاتها.

والمؤكد أن ما يَسّر على فكر الأستاذ كولن أن يُطَوِّعَ الناجزَ المعرفي والعلمي الذي توفّره الثقافة الكونية المعاصرة، هو هضمُه لتراث السلَف، وتمرسُه بروح العقيدة الإسلامية (عبادةً وتفلسفًا)، وفهمُه للقرآن والسنة، وتناغمُ مواجده مع كنوزهما، لاسيما على صعيد الاسترشاد العقلي والترقي القلبي.

إن الهوية الفكرية للأستاذ كولن جمعت إلى السمة الروحية الوجدانية، السمة المنطقية الإجرائية؛ من هنا جاء التوليف متوازنًا، والتركيب شموليًّا، وجاءت النظرة جامعةً، لا تعتدُّ ببعد على حساب بقية الأبعاد في تقويمها للأشياء وتقديرها للأحداث والمعطيات، ولا تستبقي محاصيل النظر والفكر في حالة إرجاء، معطلة، وبعيدة عن مناطاتها العملية والتنفيذية المثمرة.

---

[١٧] يمكن القول إن المنهج التجريبيّ الوضعانيّ انتهى عند حدّ القول بعلم اليقين، وعجز عن أن يمر إلى المستويين الباقيين لإكمال استيعابيته، وهما حقّ اليقين وعيْن اليقين كما يقول العرفانيون.

التراث الإسلامي وأصالة الاقتراب العقلي

لا ريب أن المقاربة العقلانية أسست للدرس المعرفي الإسلامي في مراحل نشأته وتطوره الأولى، وطبعتْه على نطاق جلي ومُؤصَّل؛ فالشريعة الإسلامية بما هي عقيدة روحية اقتضت أن يكون السبيل إليها سبيل الإقرار القلبي، معززا بالإقرار الإثباتي.[١٨] ولعلّ الطابع التمحيصي الذي انبنى عليه منهج التأويل في حقل التفسير، واعتمدته إجرائية العدل والتجريح في قراءة الحديث النبوي الشريف مثلاً، هو أحد الشواهد على مدى ارتكاز الفكر الإسلامي في مرحلة التأسيس على مبادئ المنطق والعقلنة.

إن شجرة العلوم التي نمت في تربة الحضارة الإسلامية، قد استندت في شتى مغارسها المعرفية على العقل. على أن نهج الرواية والنقل قد شكّل أيضًا مظهرًا آخر من مظاهر الاستيثاق التي اعتمدتها الثقافة الإسلامية في تفاعلها مع المنحى الميتافيزيقي الجلي في منظومة المعارف الإسلامية، لكن الاستفاضة وعدم التحوط في التعويل على هذا النهج (الرواية والنقل)، قد نتجت عنه تسربات أساءت إلى العقيدة، وشوشت على روح الاعتقاد المبرء من الدلس؛ إذ فتح باب ترجيح الظن والتخيل، بل والتوهم في مجالات البحث والمقاربة المعرفية، وهو ما حاد بالرؤية عن جادة السداد العقلي، بحيث صارت المحاصيل في أغلبها مدوناتٍ انكفائية، انسدّت أمامها آفاق الإبداع.

ولقد نشأ التصوف وسعى إلى أن يكفل للبيئة المعرفية الإسلامية انبعاثًا تجدديًّا، غير أنه هو أيضا فشل ولوّثته روح الخرافة التي وقع فيها،

---

[١٨] لا شك أن مسائل الروح مسائل غير إثباتية، ولا برهانية، لكنها تعول هي أيضا على الوجاهة العقلية، والمقبولية المنطقية.

لاسيما بعد أن أضحى يُشكِّل المعين الرئيسي للثقافة الشعبية ومصدر قيمها، ومادة التداول لتمثلاتها، فجرفت ذهنيتُهُ البِدْعِية مساحةً واسعة من مكاسب العقلنة التي تأصلت للفكر الإسلامي على مدى قرون من الازدهار (الثلاث قرون الأولى).

ولقد ظهرت محاولات استنقاذٍ عقلي قادَها أعلامٌ منهم ابن رشد[١٩] وآخرون، إلا أنّهم استرفدوا لمشروعهم التجديدي متون المنجز الإغريقي، وحاولوا أن يتفاعلوا معها بمنطق انتخالي لِما شابها من أسطورة وشرك، غير أن نتائج ذلك التفاعل كانت محدودة، أو حصرية في دائرة الوسط النخبوي لا غير، لأن الناهضين بها لم يراهنوا على إحداث القطيعة والخروج من شرْنقة فكر الأقدمين، ذلك لأن التعاليم الأرسطاليسية ظلّت في نظر النخبة المسلمة المتعقْلنة، تتصدَّر السلَّم المعرفي الإنساني، وهكذا توطدت عوامل الاحتباس في الفكر الإسلامي، وساد شعار "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، وأناخت قرون الانحطاط بكلكلها على العقل فقيدته، وخرجت الأمّة من الحلبة، وقبعت طويلا في موقف الغائب عن التاريخ، إلى أن قيض الله من الحوادث ما آذن ببزوغ فجر نهضة إسلامية معاصرة مباركة، تعد باستعادة الصحوة، وباستصلاح آثار الانحطاط، واستزراع الأرض بما يجدد الحياة.

في هذا الإطار يحتلّ الأستاذ كولن موقعًا مفْصليًّا وديناميًّا ومُسَرِّعا من خطا هذا الحراك الإحيائي البطيء الذي انخرط فيه عالمُنا الإسلامي منذ مُوَفَّى القرن الثامن عشر.

---

[١٩] وفي حقل النقد نذكر مثلا حازما القرطاجي.

والمؤكد أن الأمة لم تبخس حظ البحث الفكري الفلسفي إلا لأنها وجدت نفسها تتوفر على كتاب منزل تجاوز بها حال الحيرة والتساؤل الميتافيزيقي الذي طالما رست عنده الفلسفات القديمة.

فالقرآن أجاب عن تساؤلات الإنسان بخصوص إشكالية المنشأ والمصير، وأبان أصل الوجود، والقوة الموجدة له، والمُسيِّرة لأكوانه وعوالمه، ووضح الغاية من وراء هذا الوجود.. وكل ذلك أسس لقاعدة الإيمان، إذ إن الإيمان في الإسلام موصول أصالة بعالم الميتافيزيق.[٢٠] وإن قوَام هذا الإيمان هو الإقرار بألوهية الرب الصمَد، والتصديق بوجود عوالم وحقائق فوق العقل (عالم الملائكة ومبدئيّة القضاء خيْره وشرّه، والاعتقاد باليوم الآخر، والبعث، والحساب، والجنة والنار، إلخ..). من هنا تجافى المسلمون عن الفلسلفة، إذ اعتبروها حقل الشكّ والحيرة الوجودية واللايقين، خاصة وأنهم اطّلعوا على شواهد الفلسفة الإغريقية التي انغمست في الافتراض والوثَنية وترييب الأجرام والأفلاك، ذلك لأن صدق إيمان المسلم يقتضي -ابتداء- نفْي الشك الوجودي، والإقرار بالعبودية للخالق، والأخذ بالاستنارة التي كفّلها القرآن والسنة في تجلية المغاليق الوجودية الكبرى التي لبث الإنسان يجهلها ويتأرق لأجل معرفة كنْهها وماورائيتها؛ من هنا استغنى المسلمون في تلك العهود عن الفلسفة في طرازها القديم، بل واسترابوا منها، وتخوّفوا من مغبة تعاطيها، لما شابها من وثنية، وما توجسوه منها، من بلبلة فكرية تتأذى بها سلامة المعتقد.

ولقد انعكس هذا التحرز من الفلسفة على نظرتهم إلى علْم المنطق

---

[٢٠] ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(البَقَرَة:٣).

كذلك، إذ اشتجر حوله هو أيضا جدلٌ؛ فمِن مقرٍّ له بالجدوى والمشروعية من حيث التمكين للدين والمحاججة عليه، ومن مُحَرِّم له باعتباره مدخلا إلى الفلسفة وشريكا لها في الأثر، من حيث هو علم فذْلكي يرتبط (أكثر) بأوضاع تَفَشِّي ثقافةِ الشكِّ وتَدَنِّي منسوبِ الإيمان، ولذا كان غلْقُ بابه يعني غلقَ بعض أبواب التشكّك، وسدًّا للثغرات التي يمكن أن يفضي إليها فنّ المساجلات العقدية.

ومن المؤكد أن موقف عالم (مرجعي) مثل أبي حامد العزالي من كلٍّ من علمَيْ الفلسفة والمنطق يكشف عن الإشكال الذي كان الفكر الإسلامي يعرفه في تلك العهود (القرن الرابع وما بعده)، فقد سفَّه الغزالي الفلسفة واعتبرها علم التهافت، فيما اعتمد فنّ المنطق واعتبره من صميم آليات الإسناد العقلي التي يقتضيها بلوغ الإيمان اليقيني.

ولا ريب أن النهضة الإسلامية المعاصرة قد عدَّلت من هذه الرؤية حيال منظومة العلوم، وتجاوزت منطق الاقصاء الذي أضرّ بشجرة المعارف الإسلامية نتيجة الاشتغال شبه الحصري بفقه الفرائض وبفرائض السلوك (الزهد)، إذ عملت (النهضة) بجد وجهد كبيرين على استيعاب المعارف العصرية، وإعادة الاعتبار للعقل المفكّر، ولم تبخس من المناهج إلا ما يمسّ بالدين ويتحلل من تعاليمه.

من هذا المآل الإحيائي، التوسعي، انطلقت النهضة الإسلامية المعاصرة، وضمن هذا الجو التفتحي التأصيلي، سار الأعلام يحصفون الرؤية من جديد، ويوصلون ذهن الأمة بمفاعيل العقل تارة أخرى، بقصد تحقيق الإقلاع. وإن موقع الأستاذ كولن في هذا الحراك النهضوي لبارزٌ، ومتميّز، إذ أوشك أن يكون الأوحد في العصر الحديث ممن قرن الفكر

بالعمل، وجعل الكلمة حين تصدر، تصدر وهي محملة ببرنامج تطبيقي؛ فلقد أقام -كما أسلفنا- فلسفته على الملازمة بين الفعل والفكر، وجعل الفكر عملاً، والعمل فكرًا.

هكذا تتفرد الفلسفة الكولنية بكونها تستند على عقل نبت على أرضية القرآن والسنة، واستقى مَلِيًّا من أنهر الصالحين، وترعرع متواصلا مع علوم العصر، فكان له من الإنجازات في حقل التفكير التطبيقي الممنهج ما سنحاول رصد بعض جوانبه في هذا المبحث.

قراءة في فكر كولن

لا تتحقق النهضة -بنظر الأستاذ كولن- إلا على مخطط علمي واستراتيجي مُحكم، ولا تتحدد الاستراتيجية إلا على أرضية من فكر مستنير رسخت قناعاته، واستقرّت دعائمه، وتوطدت خياراته، واستكمل مقومات تعبئته وانطلاقته في اتجاه تنفيذ الأهداف المتوخاة، وبلوغ الغايات المراهن عليها.

لن يكتب النجاح لأي استراتيجية ما لم تكن تستند على فكر محصَّف، وعزيمة قاطعة، وتصميم متبصر في الرؤية والتوقعات. ولكل فكر خلاَّق احتياطٌ من المعارف والقيم والضوابط تجنبه العُطلة، وتتجاوز به الطوارئ والعوائق وحوادث الطريق. ولا تتمايز الأعمال الناجزة، والمهام النافدة، إلا بالتخطيط المحكم الذي تتم فيه. وكل صرح مادي أو معنوي استكمل بنيته، واستوى على دعائم الكمال، لا يولد إلا في كنف تفكيرٍ سديد، وتَرَوٍّ قويم.

تلك هي بعض المبادئ والأبعاد التي يرتكز عليها فكر الأستاذ كولن. وقبل أن نستمر في تجليتها، علينا أن نتساءل: ما الفكر؟

الفكر كما يستشف من كتابات الأستاذ كولن هو القوّة المعنوية التي يصرفها الفرد لأجل تمَثُّل الوقائع الذهنية وتوليدها، وفقه المسائل الحياتية واستنباط قواعد تدبيرها، وتخيل الوضعيات الوجودية حاضرها ومتوقّعها، وتهييئ أسباب تكييفها. إنه الفاعلية العقلية التي نواجه بها الحياة في أبسط مستوياتها وفي أعقد استشكالاتها على سواء، فنديرها على نحو بناء.. بل إن الفكر هو الكفاءة التي تنشأ للفرد عبر مراحل تَدرُّجه في العمر، وتَمَرُّسِه بالتلْقينات والتجارب، حيث يكتسب من أسباب التمهُّر العقلي والمراس التطبيقي ما يُمَكِّنه من التحكم في شؤون حياته ومجتمعه، والسير بها على منحى من الإيجابية بصورة يتوطد له معها الرّضى والإيجابية.

ولما كان الفكر شُعَبَا شتَّى، وديناميات متباينة، كان المردود المتولد عن كل صنف من هذه الشعب متفاوتًا، نوعًا وكمًّا.

قد يتأطَّر الفكرُ بحدود ضيّقة، فيُركِّز على المنافع الشخصية والمطالب الذاتية (ومنها المطالب الأسرية)، وتلك هي حال فكر وتفكير العامة والعموم. وقد يتأطر الفكر بهموم جمعية وانشغالات إنسانية مصيرية، وهو عندئذ فكر الخاصة والرموز، وتفكير الصفوة والفرديات.

فكر الآلية، وفكر التمرس

والفكر المفيد يضع في أولوياته تخطي التحديات، إذ الحياة ابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الملك:٢)، ولذا تحرص المؤسسات التربوية عند الأمم الحية، على تنشئة ملكة التفكير في المجتمع، بحيث تغتني رؤية الأفراد والجماعات، وتقتدر على المواجهة وإيجاد الحلول للإشكالات، أنّى كانت طبيعتها. ولا تنضُج القدرة الفكرية إلا في ضوء

تفتّح الفرد على بيئته، وتشرُّب خصائص ثقافته، ووعي مقومات هويته.

ولا يخلو إنسان من حظ تفكيري، إنما التّفاوت قائم بين الناس من حيث الحظوظ الذهنية؛ فمِنْهم الفرد الساذج والبسيط، ومنهم الفرد الوسط الذكاء، ومنهم الرجيح المتبصر، ذي الحجى... ولا بدّ أن رأْس الهرَم يمثّله الصفوة، وأن قاعدته العريضة هي من بسطاء الناس، وعامّتهم.

الفرد البسيط ينشط تفكيره على وقع الدافع الفطري، إذ الشطر الأوسع من شؤوننا الحياتية نمارسه بما يشبه العادة والانسياق، الأمر الذي ينعكس على فكرنا، إذ يؤول إلى حال من السكون تضحى معه الحياة انتظاما آليا، بعيدا عن التجدد والانقلاب.

وتأثيرات البيئة، وآثار التعليم، وأجواء المهن والوظائف (أي الثقافة عامة)، تتحكم في نماء الفكر وتطوره.. وكل فرد يحمل من عوامل التأهل والتفكير على قدر ما له من استعدادات، ووفق ما يلابسه من مؤثرات خارجية.

على أن في الناس موهوبين ألْمعيين، مِيزتُهم النبوغُ في الفكر، والقدرة على الرؤية، والكفاءة في الاستبصار والتعقّل.. ولا ريب أن قادة الجموع وساقة المدود، إنما تأهّلوا للقيادة، وترشحوا للزعامة بما حازوا من سجايا ذاتية، وملكات ذهنية، ودافعيات روحية جعلَتْهم أقدر مِن سواهم على ممارسة فعل التقدير والتدبير والإدارة واستحصال النتائج.

الفكر النافذ ينتشل الأفراد والجماعات والأمم من حال البؤس الروحي والمادي التي توقعهم فيها ترديات الحياة ونكسات التاريخ الناتجة عن غلبة الركود والاحتباس المدني.

ولا ريب أن مِن أبرز عوامل الاحتباس عن التطور والحياة، الانحراف عن قوانين الاجتماع، والجهل أو تجاهل نواميس الكون، وإغفال

المقتضيات الروحية المنورة للبصيرة، والمفتحة للبصر على النهج التعميري القويم.

والمفكّر الملْهم طبيب بالقوة والفعل، يعمد إلى الاستشراءات المزْمنة والتفاقمات المستفحلة، فيتصدى لها بالعلاج، كلّفه ذلك ما كلّفه من سهر وتضْحيات. وسنرى كيف ظلّ الأستاذ كولن يركّز -في معرض رسمه للخطّة الاستنقاذية التي تضمنها مشروعه النهضوي- على دور أطبّاء الروح، ويشدد على حتمية توفير الطواقم منهم للمضي باليقظة إلى منتهاها.

هناك بيداغوجية صارمة تقوم على قواعد وقوانين وإجراءات تراعَى -لُزوما- في تنفيذ المخطط البنائي الشامل. ولما كان فكر النهضة شموليًّا، يغطّي مستويات الحياة والمدنية بشتّى فروعها، كان بالضرورة فكرا يقرن العلاج بالبناء، ويضع في رؤيته البعد الزماني الذي يقتضيه الرهان؛ إذ بالمهارة نفسها التي يُثْمِرُ القدراتِ ويوفر الإمكاناتِ، يحرص على أن يضبط وتيرة البناء، فيُسرّع الخطا ما أمكنه التسريع، ويتريّث عند الاقتضاء ما لزم التريث.

يترتّبُ الموقفُ الفعال درجاتٍ على سلَّم التجسد والنفاذ، فهو يأخذ -إزاء أوضاع الاختلال- إما صورة فعل مصحِّح، أو كلمة منددة، أو شعور رافض، وهي الرتب الثلاث التي فصّل بها النبي ﷺ مسؤولية المفكر، وحدّد دَوره وواجباته حيال الواقع الحياتي حين تختلّ مقوماته، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[٢١].

[٢١] رواه مسلم في صحيحه، ص:٤٦؛ والترمذي في سننه، ص:٨٠٨؛ وأبو داود في سننه، ص:٣٠٦؛ والنسائي في سننه، ص:١٣٥١؛ وابن ماجه في سننه، ص:٣٢١، والإمام أحمد

الفكرة قناعة مضمرة، فإذا ما أضحت طليقة صارت كلمة وخطابا. ومعلوم أن مقاصد الخطاب القريبة هي بلوغ درجة التأثير وحيازة الوجاهة ولفت الانتباه، لأن الخطاب فعالية اجتماعية تواصلية تغليبية، فما نطرحه وما نساجل من أجله نريده أن يكون الأظهر والأوجه.

الكلمة في حالة بقائها حبيسة الضمير، تظلّ أعلق بالنوايا، فهي في حاجة إلى مزيد من الامتلاء، والتشبع، والاشتحان (النضج)، لتبلغ مستوى الانبثاق الذي يخرجها من نطاق الكمون إلى حيز الفعل، ويحوّلها إلى صرخة مدوية وصوت مسموع.

وحين تضحى الفكرة حدثا، فإنها تخرج في صورة خطاب مناهض للوضع المتردي، مُؤذِنٍ بالتحول والتغيُّر. بين المصلح وفكره علاقة تماهٍ قصوى، وقوة الفكرة الإصلاحية تستمد نفاذها وديناميتها من شخصية المفكر وسداده.

مفكر البرج العاجي[٢٢] يمارس تفكيره بما يشبه الهواية والترف، إذ إنه يشتغل بمنأى عن الواقع. لكأنه يؤمن أن النشاط التأملي، التعقلي، لا يجد مجاله الحيوي إلا بالخوض في التجريديات، والماورائيات. فهو والحال هذه، يصطنع تهويمات افتراضية مفصولة عن الواقع، أشبه بال"دون كيشوت "في معاركه الهوائية. (نجد هذه النزعة تتجسد أيضا في حقل الابداع، مثلا، في مذهب الفن للفن).

إن مفكر برج العاجي يتطارح فرضياته من غير ما تواصل مع المجتمع

في المسند، ص:٢٦٦٤.

[٢٢] نقصد ما اصطلح على تسميته "مفكر البرج العاجي"، أي المقطوع عن الحقيقة الواقعية، والشغوف بمقاربة الحقيقة الذهنية.

والحياة العاجَّة بالأوزار والغارقة في الأوحال، فهو من ثمة يرسل فكرًا لا سبيل له إلى تعديل الأوضاع الزرية والاختلالات المؤلمة التي يعيشها المجتمع والأمّة.. إنه فكرٌ مُنبَتٌّ عن تربة الواقع، لا يقدر على إسعاف هذا الواقع.

المصلح الخيري[٢٣] (العضوي) يفاعل الأوضاع من منطلق معرفة تامّة بتلك الأوضاع، وملابسة عميقة لما يثقلها من تردٍّ ومعاناة؛ فبذلك التفاعل الموضوعي الحصيف يتم التجاوب بينه وبين الفئات، ويتحقق الشرط التحولي المأمول.

ولو تساءلنا عن سر الطاقة التي يختزنها الفكر الإصلاحي، والتي تمكّنه من أحداث التغيير، لقلْنا: إن الفكرة حين تتولّد في قلبٍ ملتهب بالشوق، تضحى نداءً تجييشيًّا، له سلطان ينفذ إلى الصفوة باعتبارها الجهة الأكثر قابلية للوعي، ومنها يسري الأثر إلى باقي الفئات الحيّة، يحشدها ويجندها وراء خط السير الذي يحدده البرنامج، وترسمه الخطة.

ما تنهض به الجموع في مجال الإنجاز الاجتماعي والتحول المدني، منوط بروح الفكرة الإصلاحية المستنفِرة للقوى، والمجنِّدة للفئات على جبهة البناء والترميم. فالفكرة بهذا الاعتبار، هي المخزون الطاقوي الذي يؤسس للإنجازات، ويدير التحوّلات، ويكفل للعملية البنائية قوة الدفع اللازمة لها، استيفاء لغاياتها.

تتماهى الفكرة في شخص صاحبها (المصلح) فيضحى هو هي، وهي هو؛ الأمر الذي يجعل تأثيرها في الأوساط حيويا، إذ الجموع المنخرطة في الخدمة تجد نفسها -وهي تنفذ برامج النهضة- تعيش حالة من التَّماس

---

[٢٣] مشتقّ من ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عِمْرَان:١١٠).

العضوي مع شخص المصلح الذي يتحول في الضمير العام إلى شخص اعتباري، أشبه بالشمس تبزغ على كل صقع، وتنشر دفْئها في كل أُفق. فإكبار الجموع لشخص المصلح، يترجم من قبل الأتباع فاعلية في الأداء، إذ يضحى البذل والتفاني والإخلاص والمصداقية هي الأسس التي تطبع العمل، وتميّز وتائره.

بهذا الاعتبار تروج أفكار الصالحين الأفذاذ والكارزمات الشهمة عبر الأرجاء، وتتجاوز نطاق حدودها البيئية والجيوسياسة، وتصير فكرا إنسانيًا يلقى المقبولية فى الأنحاء كافة.. وإن التجربة الفكرية التي ينجزها اليوم الأستاذ كولن وما تلقاه هذه التجربة من تقدير، وما تحظى به من تنويه وجاذبية، وما نراها تحققه من انتشار خارج المجتمع التركي نفسه، من خلال تبنّي منهجها من قبل دوائر متزايدة من مثقّفي مجتمعات عربية وإسلامية، بل ومن استقطابات متكاثرة من خارج العالم الإسلامي، لَدليلٌ على أن الفكر الإصلاحي حين يتولد على أرضية روحية واجتماعية ومدنية متساوقة الدعائم والأبعاد، يغدو كسبًا إنسانيًا يُقابَل بالتثمين أنّى انتهت آثاره ونتائجه.

لقد قامت فلسفة الأستاذ كولن على الإيمان بأنْ عمل المفكر عملٌ بنائيّ بالأساس، يسدد في اتجاه الإصلاح والتجديد، الأمر الذي يقتضي من هذا المفكر حظوظا من الكفاءة والاقتدار معززة بمدود من توفيقات الله..

إن المفكر في تجربة الخدمة والتغيير، يجد نفسه أشبه بمن يعالج بالكيّ، فهو يتقصد -في حسم وأناة- مواطنَ الداء بالذات، لأجل استئصال العلة، وضمان البرء، واسترداد العافية.

وإن الغاية الكبرى للمصلح المسلم في العصر الراهن هي أن يستزرع

في الحياة من جديد فكر إنشاء المُقَوِّمَ المرفقي الحضاري المؤصل.. فمن خلال إيجاد العدة الثقافية والمرفقية الأصيلة، نتمكن من إزاحة ما يعمّ حياتنا المدنية والاجتماعية المِلّية من مظاهر الأسلبة والتغريب التي تحاصرنا من كل جانب، والتي تأخذ صورة فواعل تجهيزية وتثقيفية أجنبية تحتل الساحة القومية، بلا منافس، وبتقبل أعمى من قِبَلِنا، ودونما إحساس بالفداحة.

إن جهود المفكر المصلح تنهض في الآن ذاته بمهمّة دفع الغزو من جهة، وإحلال مولدات الأصالة محله من جهة ثانية. إنها معركة حاسمة في مجال تحدّي الذات والرهان على تحقيق النموذج الأصيل، واستعادة زمام المبادرة في مضمار الخلق والإبداع والتميُّز المدني.

وحتى يستكمل المفكر أركان الإمامة والتأهّل في شخصه، لا بدّ أن تستغرقه مراحل الانصهار واكتساب القابليات التي تجعل منه إنسانًا روحانيًّا يعي الواقع ويستشرف المستقبل ويقدِّر للترديات مقاديرها من العلاج، كي يتاح للأمّة أن تتخطى حقبة الوهن، وتتجاوز إلى الحياة الأحفل، والوضع الأكرم.

لقد رسم الأستاذ كُولَن الأساس الارتقائيّ الذي لا مناص للمفكّر المصلح من أن ينطلق منه كي تترشّد على يديه المشاريع، وتزدهر تحت رايته المنجزات؛ إذ جعل القرآن هو القاعدة التي ينبغي أن يتّخذها كل عامل -يحلم بأن يكون من خدّام الأمّة- منهجًا ومرجعا ومرشدا وملهما له في مشاريعه.

ولما كان "القرآن هو قمّة الفكر المتين والصحيح"[٢٤]، كان على كل

[٢٤] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٥.

صاحب فكر سليم أن يتمرّس بتوجيهات هذا الكتاب السماوي، ليتطبّع على روح القرآن ولتتشرّب مواجده رحيق القرآن؛ فالقرآن "هو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجنّ ومشاعرهما"[٢٥]، وإن مطلقية تعاليم القرآن جعلت حكمته نضرة على الدوام، "فهو الكتاب الذي استطاع أن يقف منذ نزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف.. فما أن يرتفع صوت القرآن حتى نشعر وكأنه نزل الآن من السماء "[٢٦]، إنه "فيض من العلم الذي يشكّل الحدود النهائية للإدراك البشَري"[٢٧].

وإن التدثر بشعار القرآن يفسح أمام العقل والفطرة والملكات مَدًى لا يُحَدُّ من الرحابة الفكرية والانفتاح الذهني والشعوري، إذ القرآن لا يعزلك في أيديولوجية ضيّقة أو "دوغْم" يجافي القيم الإنسانية، ويتنكر لمثل الخير والمحبّة والسلام.

إن المدد التنويري الذي يفيده أولو الألباب جراء تفاعلهم مع القرآن، ينعكس على المواجدِ صفاءَ روحٍ، وعلى القلب جلاءَ بصيرةٍ، وعلى العقل رهافةَ مدارك، فـ"مَنْ فهِمَ القرآنَ حقّ الفهم، تصبح البحار الواسعة كقطرةِ ماءٍ أمام ما يرد إلى صدره من إلهام، والعقل الذي تنَوَّرَ بنوره تتحول الشمس تجاهه إلى مجرّد شمعة"[٢٨].

إن القرآن يُعَدُّ أعظم فضاء عروجي، تتهيّأ فيه للروح إمكانات لامُتناهية من المغانم الفكرية والشعورية، بحيث يسوح سالكُه في أقاليم عجيبة من

[٢٥] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٥.
[٢٦] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٥.
[٢٧] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٧.
[٢٨] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٩.

الآيات المبهرات، إذ "ينتقل من الدهشة إلى الذهول، ومن الذهول إلى برّ من العواطف المتلاطة"[٢٩]، وبتلك المستويات من التلقين والتعبئة يتحقّق التشكل الروحي والقلبي للفرد الداعية.

فالقرآن يعيد عجن النفوس النجيبة ذات القابلية للإثمار؛ فهو "يتناول الطالب الذي جذبه نحوه، فيعجنه ويجدّد شحنه بالأنوار"[٣٠]؛ والمقبلون على القرآن "الذين يَدَعون أنفسهم بكل أحاسيسهم ومشاعرهم وقلوبهم وقابلية إدراكهم تَسْبَح في جَوِّه الذي لا مثيل له، سرعان ما تتغير عواطفهم وأفكارهم، ويحس كل واحد منهم بأنه قد تغيّر بمقياس معين، وأنه أصبح يعيش في عالم آخر"[٣١].

لقد أوجد القرآن -زمن البعثة- فيالق من الصحابة صهر أرواحهم وشكَّل نفوسَهم على وفق معاييره السماوية، فأضحوا هوية قرآنية، يجسّدون بسلوكهم روح القرآن، ويترجمون مثله ومعانيه، فشقّوا بالإنسانية طريقًا مشْرقا سطعت فيه على الأصقاع أنوار الحكمة والعقل والعزة.[٣٢]

لقد تخطت الإنسانية بفضل تعاليم القرآن مهاوي السفه العقلي والشرك الروحي، فحتى أقطاب الفكر الفلْسفي القدامى ممن اعتبرتهم الإنسانية معلّميها وسادة فكرها (من أمثال المعلم الأول أرسْطو ومَن نحا منحاه)، ظلّت أعمالهم ونظرياتهم، تدين بالربوبية لطواقم من آلهة توهموا أن الخير والشرّ بيدها.. ثم بعث الله محمدًا ﷺ إلى العالمين برسالة تشيع

[٢٩] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٠.
[٣٠] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٠.
[٣١] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢١.
[٣٢] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢١.

الاستفاقة والنور، فما لبث الفكر الإنساني أن تحرّر من الميثولوجيا، إذ أبان أن ما ظل يُعْبَدُ من عناصر الطبيعة، إن هي إلا أشياء مسخّرات.

لقد أرسى القرآن مبدأ التوحيد (القاعدة الصارمة لبناء المنطق)، وعلَّم البشريةَ كيف تتخطّى مزلق الميثولوجيا والاعتقاد الخاطئ، فأزال عن العقل لوثة الشرك، ووعت مدارك الإنسانية شناعات الضلال، و"فقهت أسرار العبودية"[٣٣]، واستذاقت فضائل التوحيد.

بانتشار الأنوار المحمّدية في الآفاق تهاوى صرح الميثولوجيا الأممية القديمة، وتحطمت منظومة الآلهة (آلهة القطاعات)، إله الخير، وإله الشرّ، وإله الضرّ، وإله النفْع، وإله الحبّ، وإله الخمر، وإله الخصب، وإله القحط، وإله النار، وإله العواصف، إلى ما هنالك من تخاريف أوجدها العقل الإنساني الباحث عن السند الروحي، وبدلاً من أن يهتدي إلى الرشد، وقع في الزيف؛ إذ فاته أن الاعتقاد في تعدد الأرباب واختلاف مشاربها تصورٌ باطل، لا يقره إلا عقل أسطوري، تَوَهُّمي.

لقد مَوْضعَ القرآن الرؤية إلى الكون، وجلَّى للإنسان طبيعة وجوده، وحدّد مصدر هذا الوجود: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(الانْفِطَار:٦-٨)، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العَلَق:٢).. وتَحوَّلَ بالفكر من سجالية الدّيالَكْتيك ومنطق الحتمية والآلية العمياء، إلى أولية القدر (العلّة الأولى) ومبدئية المشيئة الإلهية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المُلْك:١).

---

[٣٣] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٠.

وإن ما ظلّ يعصف بالمدنيات ويسفِّه معارفَها ومناهجها في مجالات الاجتماع والاقتصاد والطبيعة وما سواها، لخير دليل على أن البعد الماورائيّ الغائب عن مداركنا هو الأسّ الذي تخضع له الأشياء، وترسو عليه الترتيبات. وإن ما نشهده اليوم من تهاوي أنظمة اقتصادنا وماليتنا الدولية، وطفوح كيل الكوارث بنا، لهو بعض ما تريد الإرادة الإلهية أن تؤدّبنا به، بعد الاعتداد العقلي الأصمّ الذي انْجرفنا وراءه على حساب نصيب الروح في معادلة الوجود.

لم يزعزع القرآن عقيدة الشرك في الأرض فحسب، ولكنه أرسى قواعد بناء الفرد الكريم ودعائم المجتمع الفاضل. ولقد أثمرت جهود الرسول ﷺ في مرحلة التنْزيل، إذ ظهر الإنسان المسلم الذي استوفى مقوّمات الصلاح، فكان ذلك النتاج الحضاري النوعي الرائع الذي تحقق بفضل انتشار الإسلام، وسطوع شمسه في الآفاق، في وقت من الزمن القياسي.

ومثلما صاغ القرآن في الأولين جيلاً من الصحابة أحالهم "أبطالا في عالم القلب والروح"[٣٤] وجعل منهم "مُجتمعًا متميّزًا مباركا"[٣٥]، كذلك سيَصيغ في الآخرين سلاسل من أجيال خيار، يتتابعون في حقل البناء، ويتنافسون في مضمار العطاء وتحقيق المكرمات. "إن درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوّ القرآن النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها.. لا يمكن العثور على أيّ مثال لهم في مستواهم من ناحية

[٣٤] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٠.

[٣٥] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٠.

التديّن والتفكير وأفق الفكر والخلق"[٣٦].

ومن المؤكد أن الإسلام قد أناط بالروح -ومن ثمة- بالفكرة، مهمة الفعل والنفاذ؛ فحين تتحفز الروح وتستكمل تعبئتها، تتحول الفكرة إلى حركة وحدث وإنْجاز. لقد هيأ القرآن للمسلم -والإنسان عامة- ما يحوّرُ روحه، ويشفّفُ قلبه؛ إذ لفته إلى أهمّية نشدان الحصانة الروحية لأجل التهيّئ للعروج والرقيّ الإيماني. فمن خلال سدّ أبواب الشهوات، وكفِّ مطالب البدَن والغرائز، تتفرّغ الروح للنشاط الخلاّق، والفكر المفيد، والعطاء المتجدد.

بتوطين النفس على التقلل في مستهلكاتها، تتخفف الروح، وتُحَلِّق في أقاليم المافَوق. على أن من أهم الركائز التي تتحول بها المادة روحًا والروح مادةً، هو الاستغراق في العبادة، تَهييئًا للنّفس أن ترشد وتستوي، فتمتلك الطاقة اللاّزمة لصنع الباهر من الإنجازات.

إن الإيمان العميق يُمَكّنُ المادةَ (الجسد) من أن تتقمّص الروح، ويُمكّن الروحَ (الفكرة) من أن تتقمّص المادة، وبذلك تستحيل الفكرة يدًا تبني، وظهرًا ينقل، وجارفة تَحفر، وجموعا تُنجز، وهيْئات تتابع وتُمَوّنُ..

هذا بعض ما تمثل به الأستاذ كولن دَور رافعة القرآن، في تحقيق الفرد الفاعل، والمجتمع الناهض.

مكانة الفكر في رؤية كولن

الفكر عملية عقلية تؤسس للحدث الإنساني، تسبقه أحيانا، أو تصاحبه،

---

[٣٦] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٢٠.

أو تتبعه[٣٧]، كنَوع من الملابسة الذاتية والتحرز الإجرائي والمنطقي الذي تستلزمه عملية التواصل، حتى لا يدخل الفرد في تناقض مع ذاته، وحتى يحقق هدفه وينجز مهمّة التعامل بإيجابية. فما يفكر فيه الإنسان يعيشه متلبسا به عقليًّا وكيانيًّا، فإذا كان الأمر التفكيري من جنس الأفعال الواقعية، انْساق الجسد والإرادة إلى تحقيقه عمليًّا؛ وإن كان ذهنيًّا، انساق الذهن إلى تمثله أو استخطاره على نحو ما.

يسجّل الأستاذ كولن نوعَين من الفكر يتعاطاهما الإنسان، ويحكمان نظرته إلى الحياة، وعلاقته بالكون والوجود:

١- الفكر الأصمّ، ويقصد به ذلك الفكر وليد العقل المفصول عن الغيب.

٢-والفكر الرحب، وليد العقل المتواشج مع الميتافيزيقا.

أو إنْ شئْنا القول إن الأستاذ يميّز بين لونين ومنهجين من الفكر: الفكر الحسي، والفكر الروحي. الأول مغلق على ذاته، معتد بالمادة ومرتد إليها، مجانف للروح؛ والثاني موصول بالمادة معتد بالروح، معتقد في الغيب، إذ يرى أن عالم الشهود هو امتداد للماوراء، وأن الدنيا مَزْرعة للآخرة.

بفضل استنارة الفكر الفاعل، تُولَد المدنياتُ وتتجدّد الحياة، لأن الفكر البنّاء يَتقصّدُ الغايات الملموسة والمنافع الناجزة، إذ يترسم من الفرَضيات والمخططات ما هو قابل للتطبيق، فهو من ثمة فكر واقعي، استراتيجي، يُوجِّه الأنظار والإرادات إلى الكيفيات والمسالك التي تجعل أعقد المشاريع، وأشقّ الرهانات، وأكثرها إيغالا في الخيال والرومانسية، قابلاً للتحقق والتنفيد.

---

[٣٧] التفكير يلازم الأفعال، ويتم على نحو لاشُعوري حين يكون الفعل من طبيعة اعتيادية، ويغدو عملية تقويمية حين يعقب الفعل، ويكون استشرافا وتصوّرا مع الفعل المستقبلي أو أثناء الإنجاز.

فأوّلية الأهداف التي يسدد نحوها الفكر الفعال هي بناء الإنسان، وأهمّ الجوانب التي يركّز عليها الجهد البنائي هو الارتقاء بالروح. ذلك لأن الإنسان هو الفاعل الأول والآخر في كل مواجهة إنجازية تترقى بها شروط المدنية، وتتسع مرافق العمران.

وللفكر صبغة عضوية، نمائية، لأنه هو كذلك يُستزرَعُ في الأرض، ويستوي مع الزمن، ويُؤتي ثماره حين الاستحصاد. وإذا ما استغْرقَتِ الفكرَ التهويماتُ الفانْتازيّة والسياحات الميتافيزيفية المفصولة عن الواقع، فسيتوغَّل في الذهانية، والوهم، والعقم، وسوء المآل.

الفكر العقيم يفضي إلى السيبة، وفي التسيّب موات المدَنية. والأمّة الإسلامية أطاح بها وضع العقم الفكري الذي عاشته بعد القرن الرابع، وجرَّف أكثر ما استنجزته من مآثر وضيئة، إذ دخلت الأمة في طور الانقسامات، وتناحُر العصب، واستنْزاف الموارد (المعنوية والمادية).. وانْضاف إلى ذلك احترافُ قصّاصو المسجد مهمّة التزهيد البليد، والتشنيع بالحياة وتَثْفِيهها، الأمر الذي وطّد روحية الكفاف والكسل والانسداد.

الفكر البنّاء محرّك مركزي للحياة، لأنه يبصِّر بالإمكاناتِ والقدرات، ويَفتح في وجه الإنسان مجالات العمل والتجدّد. تَخْضَرُّ مروجُ الفكرِ وتستجمع نضارتَها متى استقت من نهر الشريعة الرقْراق، إذ تنفُضُ عنها رمادَ الجهل وانعدام الهدَف.

لقد استطالت رقدة الأمّة، ونالت منها قرونُ عاشَتْها في كابُوسيّة الاستسلام والانتظار والانْهزام. انْخذلت الأمّة أول الأمر حين تفرّقت في عقيدتها شيَعًا، وذهبت الفرق يُكفِّر بعضُها بعضًا، ضاربة عرض الحائط بالهدف التوحيدي الذي تأسّست عليه الشريعة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ

جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(آل عِمْرَان:١٠٣).. وكان منهاج السنّة النبوية وانفساح مساحة القدوة والعمل بتطبيقاتها عامل ترابط وجمْع، لكن الحطة الروحية والتعصب المذهبي وضحالة الفكر وقصر النظر فشت في الأوساط، فحوّلت الوحدة تشرذمًا، والقوة وهنًا، والجمع بددًا، وانحدرت الذهنية الخاوية إلى الهاوية وباتت -ضلالا- تحترف التكفير والتفسيق.

ثم انهزمت الأمّة تحت ضربات الأمّية والفقر والأوبئة، إذ إن دوران رَحَى الفتن يوقف عجَلة النماء، ويتلف المحاصيل، ويصيّرُ الأرض بلقعا لا تُنبت إلا الشّوك والحسك. ثم زحفت القوى الأجنبية الحاقدة واحتلّت الديار، وانقهر سادة الأمس، وصاروا في وضع الحطة، يدفعون الجِزْية عن يدٍ وهم صاغرون. تلك هي معالم مسيرة الانحطاط كما سجلها التاريخ على الأمة.[٣٨]

وحيال هذه التركة الشنيعة من الانتكاسات والاندحارات، ينهض الفكر المسلم المعاصر من خلال رموز آلت إليهم النوبة في تولي أمر الإمامة الروحية والوصاية المدنية والمعنوية، وانبروا يراهنون على الانبعاث والغد السعيد وإعادة الأمور إلى نصابها كرةً أخرى.. رموز وعوا الدروس واستوعبوا العبر.. عُدَّتُهم وعتادهم في هذا الرهان، الإيمان بالله واليقين من أنهم هم الأمّة التي هيّأها الله لصنع الخيرات وتحقيق المكرمات.. شعارهم الخالد: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عِمْرَان:١١٠).

[٣٨] انظر: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

ومما لا ريب فيه أن على رأس هؤلاء الرموز يقف اليوم الأستاذ كولن منارة فكرية تلهم الأمل واليقين في النجح، وتبثُّ الأضواء. لقد حاز الإكبار وانصاعت له الإرادات والرجال، بما تميزت به سيرته العصماء من تبتّل وثراء روحي وقرآنية، وما اتّسمت به مشاريعه وبرامجه النهضويّة من شمول ورشدانية. ولا أدلّ على ذلك من أن بعضَ قطاعاتِها قد آذن بالإثمار والإيناع.

إن الفكر الذي يتّسم به الأستاذ كولن في إرساء دعائم النهضة، فكر منهجي معطاء. لقد اشتمل بفضل روحه القرآنية، على عناصر التجنيد والترشيد والتحدّي، واستمدّ من شريعة الإسلام السمحة القواعد والقوانين التي تتأهّل بلا منازع لإقامة المدنية المرشدة، وتأطيرها وهيكلة توسعاتها المادّية والمعنوية، والسير بها في اتّجاه يخدم الإنسانية.. إنه فكر كوني أسس على التقوى، لا يفرّق بين الأجناس والأمم، ويتوخّى الخير والصلاح للعالمين.

ومثلما أثبت الفكر القرآني في الماضي، سيثبت مستقبلا عبقريته في البناء وتحقيق الازدهار الذي لا يكبو ولا ينبو ما استقام الإنسان على الطريقة، واستمسك بالعروة الوثقى. ذلك لأن الحضارة تدوم وتنبني بالفكر المتوازن المرتكز على دعامتي الروح والمادة، وإذا خلت الحضارة من الروحانية ضمر فيها معين الرحمانية، وانعطفت بالإنسان نحو الضلال، وانحبست به العجلة في دائرة الصغار والقصور، وباءت فتوحاته ومدنياته بالكساد والثبور.

الحياة الفاضلة هي التي يقترن فيها الشكر بالذكر بالفكر، وإلاّ انحدرت بالمجتمعات إلى درك البهيمية وانعدام المثل.

من هنا كان على الإنسان أن يجعل في مقدمة أهدافه الحياتية بناءَ صرحِ فكره كي يكتمل إيمانه، فلا إيمان بلا تفكُّر وتأمُّل وتدبُّر. والفكر السليم فكر تتمازج فيه الدعامة الدنيوية والدعامة الأخروية على السواء، إذ خلق الله الآدميّين ليعبدوه وليعمروا الأرض والكون كي تتوطّد شروط الحمد وتزدهر رحاب المحامد. فالعمل الصالح عيْنُ العبادة لأنه تصديق للقلب. أما الزهد السلبي والتنصل من الواجبات، فمحظور في الشرع، ومجانف لروح العقيدة التي طفقت تقرن في المتن القرآني شرطَي الإيمان والعمل الصالح، قاعدةً لبلوغ درجة الامتثال والكمال.[٣٩]

والحال نفسها بالنسبة للمجتمعات، فهي مطالبة ببناء فكرها، والترقّي به، وذلك يقتضيها أن تشدد على العناية بالارتكازين الروحي والمادي، الدنيوي والأخروي معًا، حتى لا تختلّ المسيرة التعميرية التي أناط الله أمرها بنا، لأن التعمير من منظور الإسلام هو الركن التطبيقي للعبادة.

الأهداف والغايات التي سدد نحوها كولن

بناء الإنسان المسلم هو غاية الغايات التي تستهدفها بيداغوجية الأحياء التي يتبعها الأستاذ كولن، إذ بواسطة جهود الإنسان وبيده وعقله تتغيّر الأوضاع نحو الأحسن شريطة أن يكون الفكر سليمًا والرؤية مرشدة والتقديرات موزونة.

والإنسان شاد المدنيات الفسيحة وهو يجهل طريق الإيمان الحق، حيث لبث يتعبّد بحسه وانْجذابه إلى قيم الإعلاء بوازع الفطرة الروحية

[٣٩] حيث جعلت من شعار ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لازمة نصّية مركزية من لازمات المصحف.

فيه فقط، وذهب في التوسّع بالكمالات المرفقية كل مذهب دون أن يقر بألوهية الخالق الفرد رب العالمين، دافعُه في صنع ذلك التعمير الفطرةُ والنّزوع نحو الأرقى والأكمل. ولا ريب أنه توفَّقَ إلى أن يفعل كل ذلك بفضل ما أودع الله فيه من انجذاب جِبِلّي نحو الحسَن، وتلك هي الميزة الفارقة التي امتاز بها الإنسان عما سواه من المخلوقات، إذ كمّل الله خلقته بما أودع فيه من روحه. وبتلك النفثة الروحية فتئ الإنسان -ضالاّ ومهتديا- يحقّق ما يحقق من الإنجازات الباهرة. إنه الكائن الوحيد الممارس للتعمير والتحضير، لأن الله هيّأه بالفطرة السوية لفعل الخير، وجعَله الجنس الأرقى الذي تنتهي إليه تعاليم السماء بواسطة المصطفَين من الأنبياء والرسل، تُرَشِّدُه وتهديه سواء السبيل.

والمؤكد أن جلّ ما أنجزه الإنسان في عصور ما قبل عهد الرسالات السماوية قد باد واندثر وبقيت آثاره شاهدة للدارسين. وليست العلّة تكمن في تلاحق الدهور، وتتابع العصور، وكرور الزمن الذي يأتي على كل جديد، ويُفني كل حديث، إنما العلّة أن المدنيات التي تشذ عن الحق والفطرة السليمة، تبلى وتهرم وينالها الزوال، هكذا لقّننا القرآن.

من هنا ندرك لِمَ امّحتْ آثارُ -حتى- الأمم الكتابية أو تلك التي أنشأت مدنياتها على هدْي من نبوة سماوية أو رسالة منزلة، ثم بادت آثار ما أنجزت ولم يكتب له الدوام.. لا لسبب إلا لأنّها حادت عن الجادة، فسرى عليها قانون الحق.. إنه تفسير بسيط، لكنه عين الواقع الذي تؤكده شواهد التاريخ.

وإن الشاهد التاريخي الحي عندنا هو ما أصاب تراث بني إسرائيل وقد تعهّدتهم السماء بمدود لا تحصى من الرسل والأنبياء، ووجّهتهم

نحو العقيدة الحق، ودرَّجتهم من حياة التبدي إلى التعمير وإنشاء الممالك والمدنية، لكن المسيرة انتهت بهم إلى التشرذم والتفرق في الأرض، وبادت مدنيّتهم وآثارهم، وكأنهم مُسِحوا من الأرض التي عمروها. والسر في ذلك أن الانحراف عن تعاليم الدين السماوي الذي لبث المجتمع اليهودي يعاود المضي فيه، انتهي بهم إلى أن يلقوا مصير ما لقيت الأمم الْمفَرِّطة في حق الله، وما كان للجنس أن يبقى وتستمر سلالته لو لم تكن فيهم طائفة ظلّوا على الموثق، فكتب الله لليهودية بهم البقاء.

لقد توخّت الرسائل السماوية وفي مقدمتها الرسالة الخاتمة -الإسلام- أن تلقّن الإنسان شروط الاستقرار المدني والدوام الحضاري، ليس بالوعد بإقامة مملكة الله على الأرض، ولكن بتعريف الإنسان بالعوامل الضامنة للاسترسال في الزمان والمكان، تلك الشروط المتمثلة في مزاولة العمل الصالح القائم على دعائم الشرع الحنيف، تعميرا للكون، واستبحارا في زرع الخيرات، والمضيّ على الدرب الإيماني، إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومَن عليها، وعندئذ يقف الإنسان موقف المحاسب أمام ربّه، فإما نعيمًا مقيما وإما عذابًا مخلدًا.

إن التجرد من الإيمان العقدي (السماوي) لا يقعد بالإنسان عن البناء والترقّي المادي، إنما مغبة المضي في الاستنامة إلى مدنية اللاّإيمان بالله والانخداع بها، مغبةٌ وخيمة، ومصيرُها فنائي، كارثي، درامي. وإن مسار مدنية العصر الراهن، المعتدَّة بتكنولوجيتها وبفتوح العلم المتواصلة، لا يفتأ يشير لكل ذي عينين، بالمصير المشؤوم الذي تنقاد إليه الإنسانية رغم البقية الباقية من الجسور التي لا تزال تربط أوساطا متناقصة في المجتمعات المتطورة، بالدين، إذ الخطر آتٍ من قِبَلِ الرجحان المطَّرد

لكفة الكفر على كفة الإيمان، الأمر الذي سينتهي حتما باتساع الهوة بين طريق الرشد (المهجور) وبين طريق الضلال الذي تسلكه المدنية اللاّدينية،[٤٠] وهو ما سيجعلها تخرج نهائيًّا عن الجادة، وترتطم بالصخرة، وتلقى مصير الأمم البائدة.

إن أهمية الإيمان بالخالق، واتباع تعاليمه، تضمن دوام عافية الإنسان الروحية، شرط السكينة والاستقرار، وتضمن كذلك سلامة مدنيته واسترسال الحياة على خط من السكينة والحفظ الإلهي لا تشقى معه الإنسانية.

وطالما جنح العقوق بالإنسان إلى الكفر، واسترسلت به المدنية المتفحشة، وألْهَتْهُ مباهجُها حينا، لكن الازدهار كان ينتهي دائما بالتراجع، وكان مصير الغرور أبدا إلى الانكسار. وإن من دأب الزمان أن يجُرّ أذياله على ما شاد الظالمون وأعلوا من أسوار.

وها مدنية الإسلام في ألفيّتها الثانية، قد مرت بأطوار من الرثاثة والضمور، ثم ها هي ذي تنبعث كالفجر من بين ثنايا الظلام، رقّت كشعرة الحرير ولم تنقطع، والعلة أنها مدنية نهضت على دعامة الإيمان بالله، فهي حتما تتعافى بعافية الدين، وهي أيضا تَختلّ باختلال العقيدة وتراجع حرارتها في الضمائر. لقد كتب الله أن تكون أمة الإسلام هي أمة البقاء والخلود[٤١] لأنها الأمّة التي انغرست فيها روح العقيدة السماوية بأصالة،

---

[٤٠] بخروجها عن الأخلاق التي تقارب بين الشعوب، وعن تعاليم التعايش الإنساني التي ضبطتها الكتب السماوية.. لأن محرّك المدنية الرأسمالية هو الكسب والاستغلال والتجبر، وبذلك تجد الإنسانية نفسها تمضي في طريق المواجهات والصدامات والحروب.. إذ بتقلص مساحة الانتفاع والهيمنة أمام المجتمعات الطاغية ستضطر إلى أن تتصادم فيما بينها، وفي ذلك ما فيه من الدمار الذي يلحق الإنسانية.

[٤١] هكذا شرح الأستاذ كولن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحِجْر:٩).

وذلك بحُكم الخاتمية، بحيث لا يمكن أن تنفكّ عنا شريعة الله التي ارتضاها للعالمين، فالموثق جعلنا الحداة الهداة.

نحن هم حملة الوحي وصانعي طبوع البرّ والإحسان بما أناطنا الله من شرف تبليغ أزكى رسالاته إلى الأرض وإلى العالمين. فمدَنيتنا القرآنية لا تحول، وهي محفوظة بنصّ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحِجْر:٩).

الإرث القدسي المتوارث

إن الإيمان بالله -كما يرى الأستاذ كولن- هو حجَر الزاوية في بناء النهضات وصَوْن المدَنيات. وإن دور الرادة والقادة أمر حاسم في تأهيب الجماهير، والمضيّ بهم على طريق اليقظة والعمل. ولا يكون الفرد مؤهّلا للقيادة ما لم تكن له أسهم رابحة في بورصة الإيمان ومخافة الله.

لبث كولن يستقرئ سجل الانعطافات التاريخية المجيدة، تلك التي كتبت فيها الأمّة التركية صفحات من العزة والمآثر، فرآها جميعا تتحقق على يد أفذاذ صهرهم الدين الحنيف في بوتقته المطهِّرة، واستصفتهم العبادة الخالصة، وجعلتهم خُلَّصًا مثل ذوْبِ الإبريز. رتبة سامقة من التحوّل الروحي أدركوها، وانطلقوا بها، يحملون الراية، ويصنعون العزّ.

لقد لعبت التنشئة الدينية دورًا بارزًا في تخريج أولئك الأفذاذ قادةً عباقرةً. ارتقت بهم أعمالهم الجهادية والفكرية والتعميرية إلى منْزلة من السموّ، بات بها كلٌّ منهم ملمحا في الهوية الجمعية، وعلامة حيّة في ضمير الأمة، وعينة ألماسية في تراثها التليد.

فأثر التنشئة الإسلامية وصقْلُها لأروح أولئك القادة، أثر بارز، وخَتْمُها لمهجهم ختم جلي، إذ إن ترقرق ماء الإيمان بأعماقهم رجح فيهم الشمم،

وعزز ملكة التأبي، وحدد لديهم الذهنية والتفكير، وقوَّى قابلية التدبير، وأرهف فيهم عزيمة الإنجاز، فباتوا استراتيجيّين من طراز خاص.

وأهمّ الحظوظ التي تهبها الحياة والتاريخ للشعوب والأمم، أن تضع على رأسها الرجل التّقي، الفذّ، يقطع بها الأشواط، وينجز المآثر. والمؤكد أن قوة الفرد -مهما كان حجمها- لا تصنع التاريخ بمفردها، إنما الجموع المرشدة بالقيادة الحكيمة هي التي تحقق الوثبات. وحدهم الأنبياء تسددهم العناية الإلهية فترسم لهم طريق الاستقطاب، وتملأ قلوبهم بما يثبّتهم ويجعلهم أقدر على المكابدة وتجاوز الامتحانات. إنما قوة الأفذاذ أهل العزم، حين تتوطّد، تغدو بمثابة الشمس.. لطفها يشمل المدى ويصيب الجموع، فتشتحن القلوب بالطاقة، وتتأهب، وتتحرك إلى الفعل والبناء.

لا مشاحَّة في أن تأجُّجَ الإيمان في روح أولي العزم من صُناع التاريخ محطة توليد، تغذّي المَواطن كلها بالنور. وأهم سمة تميز الشخصية التاريخية المؤمنة، الدهاء في القيادة، والمرابطة على فعل الصالحات.

وحقيقة الدهاء أنه اقتدار غير محدود على تَرَسُّم الخطط واستشراف الطرق والمخارج والكيفيات التي تضمن الغنم والنجاح في الرهانات.. وحين تتأصل ملكة التفكير في الفرد -والجماعة- يضحى في الإمكان التفلّت من أي مأزق يطرأ، والتخلّص من أي ضاغط يعرض؛ إذ ليست العبقرية إلا هذا اليسر الذي ننفذ به جليل التصورات، ونَحْفُر باهر النقوش. وحيثما دار القلم في يد العبقري لاحت له في عين البصيرة كاتالوغات لا تعد من المشاهد والصور والتشكيلات المعبرة.. "العبقري صاحب فطرة خارقة يجمع في روحه قوى تتحمل فوق أكتافها أمورا كثيرة بموهبة إلهية، وبسائق وشائق لدنّي، فيحتضن بها حاجات محيطه الظاهرية والباطنية

والروحية والاجتماعية بأعمق أغوارها، وأوسع حدودها"[٤٢].. العبقرية فانْتازيا تنتزع منا الدهش في أي وضع بدت، وعلى أي هيئة ظهرت. ومثلما يتهيأ الفرد للرفعة والتفوق بالسجايا والتنشئة، تتهيأ الأمم بدورها للمجد والعظمة بالتربية وتوطين الإنسان على التجنُّد المتواصل واقتحام المخاطر في وجه كل مفخرة..

كولن وحديثه عن أمة القرآن

ومن الترفيعات التي خص الله بها الأمة المسلمة أنْ جعلها أمة القرآن، حيث كان لها في هذا الكتاب القدسي المحفوظ أعظم حاضن، وأفقه مربٍّ، وأزكى موجِّه.. من هنا لبثت الدعوة إلى الاستفاقة تراهن لتحقيق النجح في كل عصر على تعاليم القرآن، وطفقت التجارب والجولات والتمحيصات تتكلّل بالنصر كلما كانت آصرة الاستناد على القرآن قوية، والرابطة معه مستحكمة.

ولعل الشمولية التي لبثت الأجيال تشهد بها للقرآن العظيم، (والتي هي أحد أبرز وجوه إعجازه)، تكمن في هذا التحفيز البيداغوجي الجلي الذي تمارسه مخاطباته على القارئ المسلم، دفعًا له للتّأمل والتفكير وبناء العقل الاستقرائي المحلل للظواهر، والمتفحّص للقوانين.

فمن مفاتيح المتن القرآني المتواترة التي راوحت سياقاتُها بين التنبيه والحضّ والتعريض والتقريع، قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(الأنعام:٣٢)، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأنعام:١٥٢)، ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾(الأنعام:٥٠)، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾(يوسف:١٠٩)، إلى آخر ما

[٤٢] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٧٩.

هنالك من مواقف تخاطب العقل وتعلي منْزلة الفكر وتنوّه بالتفكير.. من هنا كانت الأمّة المسلمة أمة مفكرة بالقوة، ولولا ما عرض لها من عوامل الجهل والتفريط والحيدة عن جوهر القرآن وفهْمه حقّ الفهم، لظلّت أمّة الفكر والتفكير بالفعل والصدق.

في هذا الصدد يقول الأستاذ كولن: "التفكر دم الحياة الإسلامية"[٤٣]، وإذا "انعدم التفكير، أظلم القلبُ واضطربت الروح، وتحولت الحياة الإسلامية إلى موات هامد"[٤٤].

والتفكير في شرعة الإسلام عبادة، لأن الإسلام جعل التأمّل في الأكوان واستقراء الظواهر وفهْم الطبيعة، سبيلاً إلى ترسيخ الإيمان، ومنهاجا لاستنْزال بركة اليقين، "التفكر (الإيماني في الكون) يكون موضع واردات ذات بركة"[٤٥].

لقد لقّن الإسلام مبادئ العقيدة، فأنزل سور التوحيد، وكرّر آيات الوحدانية ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾(الإخْلاَص:١)، ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(البَقَرَة:٢٥٥).. ثم أوجب على المؤمن أن يستقرئ معالم الوحدانية والتوحيد في مظاهر الطبيعة ومجالي الكون من حوله، فكان من ثمة هناك "تفكير ينتهي إلى الله، وتفكير يبدأ به عز وجل"[٤٦]، وفي الحالين، يكون الفرد المتفكر على موعد مع التوفيقات، كالأرض تزدهر وتخرج ما في بطنها، سواء أأبكرها الغيث أم جاءها مُعْقِبًا.

---

[٤٣] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ٤٣/١.

[٤٤] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ٤٣/١.

[٤٥] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ٤٥/١.

[٤٦] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ٤٦/١.

ولا ريب أن أهل البصيرة الإيمانية يلمسون بكل يسر الروح التنويرية التي تجسدت فيها تعاليم القرآن، والكيفية المنطقية التي عرضت بها تسديداته، يقول الأستاذ كولن: "إن الذين يعملون في ساحة العلم والعرفان والحكمة، يطالعون هذا الكتاب العظيم بكل رغبة ولذّة، ويشهدون بأنه يشرح أسرار الوجود والأمور الدقيقة الموجودة في روح الطبيعة، ويضعها أمام أنظارهم"[٤٧].

فالقرآن يُخرج الظواهر بمنهجه التوضيحي السهل، ويشرح المقاصد بالإيماء إلى ما بين العوالم الشاخصة والأخرى الخفية من صلة، ولا يقف عند ظاهر فيزيكيّتها، ويفتح أمام الذهن حقائق تنهدم بها أوهامٌ وطّدتها الدهور، ويقيم مكانها وَعْيًا جليًّا تتموضع به المعرفة الغيبية وتأخذ نصابها الصحيح، الأمر الذي يجعل منه (القرآن) مُعَلِّما للعقل، ومرشدا للروح، وملقنا لأساليب التفكير، "إن القرآن هو الذي يتناول كلّ جزء من أجزاء الوجود بعمق، فيوضّحها، ويشرح غاياتها ومحتوياتها وأسسها بشكل لا مجال فيه لأيّ تردّد أو شبهة"[٤٨]. ذلك لأن القرآن "يتناول (..) الحياة القلبية والروحية والفكرية للإنسان، وينظمها، ويريه أسمى الغايات والأهداف، ثم يأخذ بيده ويوصله إلى هذه الأهداف"[٤٩].

إن هذا التدرّج المنهجي الكشفي هو الامتياز التسديدي الذي خُص به القرآن، إذ إن شمولية تلقيناته لا تنتهي عند أفق المعرفة العينية أو الحدسية التي يتساوى الناس جميعا في استبانتها، إنما هو يمضي بالعقل إلى الحدّ

---

[٤٧] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٥٩.

[٤٨] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٥٩.

[٤٩] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٥٩.

الأولي، إذ يضعه وجهًا لوجه أمام المعرفة القدسية الماورائية، بترشيده إلى معرفة الفاعل الكلّي، أي الخالق رب السماوات والأرض، الأمر الذي يجعل الإنسان -بهذه المعرفة- يستعيد حرّيته وينْعتق من أوهامٍ ظلّت تقيّده وتجعله روحًا شريدا يتعبد الأشياء والظواهر.. فعندما يمضي القرآن -مثلا- في التنبيه إلى حقيقة منظومة المجرّات والكواكب (الشمس والقمر والنجوم)، ويؤكد وظيفتها التسخيرية، فإنه يلقن الإنسان حقيقتين ساميتين في الآن ذاته:

١-تأكيد شيْئيّة هذه الموجودات التي طالما عبدها الإنسان وأنزلها منْزلة القداسة.

٢-التعريف بفيزيكيّتها، باعتبارها جزءًا من الكون، من خلال تحديد وظيفتها في الحياة وحفظ الطبيعة.

وفي هذا وذاك إيعاز بالإفضال التي أنعم بها على من أوجده، والمسؤولية التي أناطها به، وهي الإيمان بالله وتعمير الكون بالصالحات.

بمثل هذه الترشيدات التي لقّنها القرآن للناس، فتح الثغرة التي سرعان ما تزلزلت لها صروح من الجهالة والشرك والضلال، إذ أتاح للعقل البشري أن يهتك حجب الوهم والزيف، ويفتح عينيه على الحقيقة الموضوعية، وبذلك عبَد الناس الله الواحد مخلصين له الدين، وأنشأوا من جديد علاقتهم بالكون وعناصره، ولَحَدوا إلى الأبد ثقافة التعدّد والشرك.[٥٠]

---

[٥٠] مصير الديانات التعددية التي لا تزال حيّة إلى اليوم، آيل إما إلى التحول أو إلى الانقراض. والإنسان المعاصر، وإن اعتقد أن العلوم والتقدّم التكنولوجي، وما سيظهر من مناهج ابتكار، ستحرّره من الدين، إلاّ أن المؤكد أنه لن يقدر على العيش بدون إيمانٍ توحيديّ،

ومن المؤكد أن أبرز مكسب تحقق للبشرية بفضل نزول القرآن، هو تعديل رؤية الإنسان إلى نفسه، إذ أعاد القرآن موضعة الإنسان وأقرّ مركزيته في الكون، وجعله المستخلف في الأرض، وبهدا التعديل في مُسَلَّمات العقل البشري، تحول فكر الإنسان إلى طور الفاعلية والتحرر المسؤول، فلم يعد الإنسان خاضعًا لأرباب الوهم، أو للطبيعة الصماء، أو للعلل الخفية والأسباب المجهولة التي ظلّت تبلبل فكره وتؤرق روحه.. بل غدا الإنسان سيدًا لمصيره ضِمْنَ نطاق علاقة تديّن للخالق الأوْحد ربّ العالمين بالعبودية، وبذلك توفرت عوامل توحيد الرؤية الإنسانية إزاء الكون، وإزاء المصير المشترك، ورست دعائم الطمأنية للإنسان.. كما اتّضحت جليًّا محاذير عقيدة الكفر بالله، تلك العقيدة التي تجرّ حتما إلى أيديولوجية تأليه الإنسان (والهيمنة الفردية والجماعية). وإن عقيدة موت الإله التي تزعمها النتشوية مثلاً، والتي تتضمن عقيدة ربوبية الإنسان، هي تخريج معاصر لفكر تأليه المخلوق التي عاشتها الإنسانية في الأزمنة القديمة.[٥١]

ومعلوم أن العقل دينامية تفكيرية من طبيعتها تعميم ونشر مكاسبها من المعرفة والقبسات والاستنتاجات التي تتاح لها، دعما لمداركها، وتجديدا ليقينها ومسلّماتها، وهو ما تهيأ للعقل الإسلامي[٥٢] بعد أن فاعلتْه تعاليم

وهو مهما شرد عن التوحيد، وزاغ عنه باغتراره، فإنه لا محالة يرجع إلى الدين، لأن الفتوح المستقبلية لن تزيد الإنسان إلا يقينا بوجود رب العالمين.

[٥١] كما هو حال عقائد المصريين القدامى مثلا.

[٥٢] وتهيأ أيضا للعقل الإنساني بعامة، إذ الاستنارة العقلية التي ميّزت المنهج الإسلامي في العصور الأولى للازدهار الحضاري، قد تخطت الجغرافية إلى مجتمعات وأمم أخرى، وأقرّت فيها. ولعل أوروبا مثال لذلك التأثر.

القرآن، إذ أطلقته من عقاله، فبات يسرح حرًّا في الآفاق، مستنير الأحكام، متثبتا في جنْي الاستنتاجات.

ذلك لأن القرآن العظيم يخدم روح الإنسان وفكره، فيطهّره من الشرك ويهيئه للتسديد السليم، ولم يتأتَّ للمسلمين الأوائل أن يفتحوا الامبراطوريات ويوطّنوا كلمة الله فيها، إلا لأن القرآن جدّدهم روحيًّا، وطبعهم فكريًّا ووجدانيًّا، فتهيّأوا على ذلك النحو لأنْ يكونوا ليسوا فحسب فاتحين، بل "هداة البشرية والمرشدين إلى الحضارة القرآنية"[٥٣].

بآدابه وأخلاقه آخى القرآن بين الشعوب، ولحم أواصرهم، إنه "كتاب يقدح في أرواح من عشقه فكرة الحرية، ومفهوم العدالة، وروح الأخوة، والرغبة في مساعدة الآخرين، والعيش من أجلهم"[٥٤].

ولا تفتأ الأطوار تكشف عن عظمة مبادئه وتساوقها مع روح الإنسان، مهما امتدّت بهذا الإنسان الارتقاءاتُ العلْمية والتدرجات المدَنية، ولا بدع أن نرى العصر الراهن كما يقول الأستاذ كولن قد بدأ يتّجه نحو القرآن بسرعة أكبر مما كنا نتوقع أو نتصوّر، وإن هذا التفتح الأممي على الإسلام، باتت مؤشراته لا تخفى على كل ذي عينين،[٥٥] بل لقد بات الإقبال على الإسلام -وإن كان بعد بسيطا- يؤرّق أعداء الدين.

وإن من دواعي الانجذاب إليه -راهنا ومستقبلا- "أنه كتاب إرشاد، يَسير أمام الذين فتحوا أعينهم على الحقيقة بهدايته، ويأخذ بأيديهم ليسيح بهم وراء الآفاق، ووراء هذا العالم.. وينفح في الضمائر الطاهرة نفحات

---

[٥٣] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٢.

[٥٤] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٠.

[٥٥] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٥٠.

الخير في كل آن"[٥٦]. فهو مدوّنة حقوقية سماويّة ترسي الحق الذي لا مكان معه لإجحاف؛[٥٧] ومَضْبطةُ قيمٍ وأخلاق تستصفي السلوك، وتلجم الأنانية، وتكسر الغرور،[٥٨] وتعلّم الإنسان كيف يكون متواضعًا ومؤاخيا للطبيعة وما يعمرها من أنواع الأجناس.. إنه كتاب جامع للكتب، مُقِرٌّ بنبوءة الرسل أجمعين.[٥٩]

لقد "ربّى -إلى جانب أبداننا وأجسادنا- قلوبَنا وأرواحنا وعقولنا وضمائرنا، وهيّأنا لنكون إنسان المستقبل، بعد أن أرانا الذرى الموجودة وراء الشواهق المادّية والمعنوية"[٦٠]. ولن نستكمل جهوزيتنا إلا بالاعتداد به، فنقرؤه ونتفكر فيه ونفيد منه مثل ما أفاد طلاّبه الأوائل،[٦١] إذ هو "كتاب يدعو إلى العلم والبحث العلمي، وإلى التأمّل، والى النظام في التفكير، وإلى قراءة كتاب الكون وفهْم أسرار الوجود"[٦٢].

حقًّا "إن القرآن هو عيْن الإنسان للتفرّج على الخلود"[٦٣]، وإن "حكمةَ تنْزيل القرآن هي إنشاء نمط جديد من هذا الإنسان الحالي الموجود، والنفوذ إلى القلوب التي لا يمكن لغيره النفوذ فيها، وإنشاء حاكمية الإيمان فيها، وإظهار وتعيين طرق الخلود والبقاء أمام الإنسان الفاني..

---

[٥٦] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٠.
[٥٧] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦٠.
[٥٨] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦١.
[٥٩] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦١.
[٦٠] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦١.
[٦١] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦١.
[٦٢] ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٦١.
[٦٣] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٨٣.

وجعله يستطيع التفرج من نافذةِ قلبه ووجدانه على الخلود، وعلى السعادة الخالدة، وهو لم ينتقل بعد إلى العالم الآخر"[٦٤].

هكذا تحددت نظرة الأستاذ كولن للقرآن، إذ اعتبره أهمّ مقومات بناء التفكير الإيماني الفعّال، وأبرز مرجعية تصقل تفكير كلِّ مَنْ يتفتح عليه ويغرس فيه روح الفطنة والنباهة والإيمان الذي لا تتهوّش معه الحياة ولا تفقد به المعاني الجوهرية دلالتها وقيمها.. ولذا راح كولن يحذّر من مغبة سوء تعاملنا مع القرآن، قراءةً وفهمًا وتطبيقًا؛ إذ لم ينحدر بنا إلى الهاوية إلا ما طرأ على فهمنا لنصوص الشريعة من تهاتف وتسطيح سافرين، حيث انتكست الذهنية الإسلامية وباتت تتلقّى مقررات التنزيل على أنها مجرّد سرديات بلا مقاصد أبدية.

تفاعل كولن مع روح القرآن باستنارة فكرية متجددة، ورأى فيه المحرك الأقدس الذي راعى مقتضيات الإنسان الآنية والمطلقة.

لقد تدارس نصوصه بوصفها مجاليَ قدسية حافزة للتدبّر العقلي، ومادة للتفتيق الفكري، تفتح معانيها وأساليب طرحها منافذَ الذهن، وتُقوّي ملكات الاستقراء والتأمل. فالأستاذ كولن يؤمن بأن الله قد أوجد من خلال محكم تنزيله مدوّنة كتابية تثميرية، تتغذى بإدلاءاتها الروح، وتَترحَّبُ بمدلولاتها عوالمُ القلبِ، وتشرق بإيحاءاتها ومضمراتها شموسُ الوجدان، وتنمو بإيعازاتها طاقات الإنسان الفكرية، وتَنْشَطُ قابلياتُ الاستنارة العقلية، فتتّسع بذلك مداركُهُ في الاتجاه المنطقي الصحيح الذي يتأهّل به الإنسان للحياة العامرة بالمكارم والخيرات.

---

[٦٤] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٦١.

الفصل الثاني

فتح الله كولن..

الارتحال بالأمة من فقه النازلة إلى فقه النهضة

- كولن مؤسس فقه النهضة والتعمير
- الفقه في مهب المصادرة الأيديولوجية
- كيف حدثت نكبة المسلمين في العصر الحالي؟
- تركيا من دور الحاضن إلى دور المنقلب
- على خطا نهج الفقه الأكبر
- يسر المبادئ الشرعية وجوهرها التخليقي
- مبدأ تداول المشترك الإنساني
- اجتهاد التأصيل والتصويب
- الفقه التمويلي

في أزمنة الردة تتحول سيرة العالِم إلى "فتوى-إطار" في تفاصيلها وكلياتها، إذ كل مسلك منه يصير موضوع تلقي واقتداء الأتباع، ذلك لأن تصديه للنكوص يغدو بالنسبة إليه فرض عين للاعتبار الأدبي الذي يجسده، بكونه من ورثة النبوة.

النورسي حين أيقن بوقوع الردة على مستوى قيادة بلاده، سارع إلى الاعتراض بما رآه لازما وعاجلا من المواقف والأحكام، فطلق النظام عملا بقوله تعالى ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (الْمُجَادِلَة:٢٢)، ثم كف نفسه وجمّد دائرة تعاملاته بالانعزال، وتجنّب كل ما من شأنه أن يتسبب في دعم الوضع الارتدادي الجديد.. فانعزاله عن الحياة سبق حال الحجر التي فرضت عليه لاحقًا.. ثم تصدى في سيرة الانقطاع التي عاشها يرسم خطة التحصين، فكان أن ألهمه الله الكتابة والتدبر في كوامن القرآن، الأمر الذي نتج عنه ظهور رسائل النور، وهي في بعض جوانبها مستحضر لحمية ترياقية ذات نجاعة باهرة في الوقاية من أدواء الروح والقلب والتحطم النفسي وفقدان المناعة الايمانية.

كان مرتكز الفتوى والاجتهاد عند النورسي هو الثبات عند عتبة "لا إله إلا الله محمد رسول الله".. إذ إن التجريف كان يستهدف استئصال روحية التوحيد تفريغا للنفوس من محمول الإيمان فيها، تمهيدا لملئها

بالريح العقيم.. وسارت تجربة الرسائل على هدى الدعوة المحمدية، بسيطة، محدودة الأتباع والقراء، ثم مع الزمن استطاع الطلائع الصادقون من التلاميذ والأتباع أن يوسعوا نشرها في الآفاق، الأمر الذي هيأ تيارا مضادا لواقع الحال التغريبية التي كانت السياسة دائبة على تعزيزها بشتّى الاتجاهات والمستويات.

سد النورسي باب الاجتهاد مخافة أن تغدو الفتوى أداة يسخرها الأذيال خَدَمَةُ النظامِ، فيضللوا بها المؤمنين، ويسوغوا لهم الاغتراب الذي كانت أمواجه العاتية تزحف عليهم من بين أيديهم ومن خلفهم.

رغم سد باب الاجتهاد ظل النورسي يقظا، يُفَعِّلُ الأحوال والتقلبات بما يراه يناسب كل ظرف طارئ وكل تحول مستجد، فقراءاته التي طفق يفسر بها القرآن وتعليماته للأتباع والمتعاطفين والتزاماته التي قررها لنفسه ولخاصته، شكّلت جميعها مدونة فقهية سلوكية سماها "الفقه الأكبر"، مانعت بكل استماتة وجابهت المد التغريبي.. وإن مميزات تلك السياسة الانضباطية التي تعهد بها النورسي نفسه وألزم بها صحبه وسائر الأتباع يومئذ، لهي من صميم الفقه، فقه الاعتراض والمواجهة.. إذ النازلة لم تكن آنذاك محصورة الأذى والضرر في حالة مفردة أو فئة بعينها، بل كانت النازلة من الفداحة بمكان، لأنها كانت انقلابا روحيا، شاء أن يحول المجتمع عن دينه وأصالته وحضارته.

في ظل تلك الشدائد التي كان الإسلام يواجهها بتركيا، نشأ فتح الله كولن، وشب في كنف أسرة قرآنية محافظة، استطاعت بتشبثها الروحي المستميت أن تنهض بمسؤوليتها إزاء أفرادها وإزاء محيطها، وأن تصون دينها بما تهيأ لها من جو تقليدي ومن تعاليم فقهية وصوفية وأخلاق ريفية

صلبة ساعدتْها على الثبات على الخط، والشد على الجمرة، في مناخ مكفهر من الترصد والتجسس والتضييق الخانق على كل من تشتمّ منه رائحة القرآن والإيمان.

كولن.. مؤسس فقه النهضة والتعمير

يحتل كولن اليوم مقدمة الصفوف بين صفوة العلماء والمفكرين الأتراك الذين جعلوا من قضية الإصلاح والانبعاث همَّهم الأوكد، وشاغلهم الرئيس، يحدوهم إلى ذلك حس ديني يملأ الصدور، وإرث حضاري شواهده العينية الفخيمة لا تفتأ تستنهض الإرادات، وتُذكِّر أهل النعرة بأمجاد الماضي، وتُشرِّع في وجوههم آفاقَ مستقبلٍ معالِمُه مرسومةٌ، إذ هو طريق مهيّأ لأن يمضي بلا انقطاع ولا انحراف، ويسترسل وفيا للروح التي كفلت للأمة العزة التاريخية والريادة الحضارية في العالم، على مدار عشرة قرون.

لا يزال كولن يعلن في كتاباته بأنه يمثل حلقة ضمن سلسلة ذهَبية من الأسلاف المباركين انبثّوا عبر العهود والمراحل، وعاشوا متفرّغين للكدح والتنسك والدعوة إلى الله، وإرساء أسس الإحسان وخدمة الأمة.

وإن وثاقته الروحية المعلنة مع سلك أسلافه الأعلام والأقطاب الأتراك العاملين، لتُعَدُّ أولَ شاهدٍ على أصالة الوجهة الإصلاحية التي ينهجها، إذ هي وجهة تحرص على أن تكون ضمن المد الإحيائي الذي طفق أولئك الأخيار من بني قومه يضطلعون به، كل في مرحلته واختصاصه، ينهضون بواجب الدعوة، حاديهم الإيمان والاحتساب والغيرة على الدين المحمّدي.

إن الطابع الاتباعي الصريح الذي يصدر عنه كولن في نهجه

الإصلاحي، ينسجم مع روح التجرد التي تميز سيرته، فهو من السادة العاملين الملتزمين بقواعد السلوك الذين يعيشون الامّحاء، فلا يشغلهم شاغل النفس ووسوسة الأنا النازعة -فطرة- إلى الظهور والبروز، عن الانخراط الكلي في السعي وتسديد خطط الخدمة وبرامج النهوض، إذ لا ينتج عن الحرص على تحقيق التميز الشخصي والظهور الذاتي الذي يطبع جهود الكثير من الدعاة اليوم، إلا الترهل الروحي وانحسار الفاعليات والجهود، فلا تصب في النهر المشترك، وهو ما يجعل الهمم تعجز عن بلوغ الأهداف العليا، لأنها منوطة بالفردية والزعامة والعنوانية.

لذلك ألْفَينا كولن لا يفتأ يؤكد التنبيهات على المخاطر التي تتهدد العمل البنائي متى ما داخلت القائمين به روح الذاتية، وتراجعت في نفوسهم ضوابط التسامي والتجرد. بل إنه لواضح أن الداعية كولن، لَيحرص الحرص كله على ألا يترتب عن جهود الإحياء التي يبذلها العاملون أي تشرذم لصفوف المجتمع، إذ إنه يعي مدى الهدر الذي يحدثه الانقسام والفرقة والتشتت حين تتوزع الأمةَ التياراتُ والطوائفُ، وتتقاسمها التحزُّباتُ الفكرية والتعصباتُ الروحية، وتأسرها شتى الجاذبيات، وتَحُدُّ بذلك من انطلاقة الأمة، إذ تفقدها فرصة التركيز والتسديد الجماعي النافذ والحاسم.

فانخراطية كولن في المحج الإصلاحي تعتمد خطة واعية ومؤسسة على اعتقاد راسخ بأن كل جهد صادق رصين لا ينبغي أن يخرج عن نطاق المسار العام الذي أعطى محمد ﷺ دفعته الأولى وشارة انطلاقه البدئية، ذلك لأن كولن يؤمن أن كل هبَّةٍ تتحقق للأمة، وكل وثْبة تتمكن من تسجيلها، في أي عهد أو عصر، إنما هي صدى واستجابة لروح دعوة محمد ﷺ، وتوفيق أتيح للعاملين، وإسهام منهم، وحظ لهم، لا ينبغي أن

يسيئوا له بإخراجه عن أصله، وعزله عن طبيعته الاستراسالية المحمدية ضمن حركة التاريخ وانعطافات مسيرة الأمة.

فكل اشتغال جماعي تطغى عليه الحسابات الضيقة والاعتبارات الشخصية، جهد تستفرغه تلك الاعتبارات والحسابات من جدواه، وتزيل عنه البركة والتأييد الإلهيَيْن، وتدرجه في عداد الظواهر التي لا طائل من ورائها ولا ثمرة لها، فأَجْرِيّته -إن كانت له أجْريّة- هي ما تحقق للقائمين عليه من ظهور صوري، وعنوانية عارضة، لا غير.

الفقه في مهب المصادرة الأيديولوجية

تغيرت أوضاع تركيا المؤدلجة، وباتت السياسة -وليس الدين- تصنع القيم، فتهاوى الفقه الشرعي من علْيائه تحت صولة الأيديولوجية الإلحادية، وتحوّلت الفتوى عن جهة ذوي الاختصاص والأهلية، وبات ينهض بها مُشرّعٌ في القانون الوضعي، ويتدخل في رسم موادها إداري تكنوغراطي، ويملي مقاصدها أيديولوجي مادي، وجميعهم يعادون العقيدة الإسلامية عن تصميم، ويناهضون مصادرها ورموزها كتابا وسنة وسيرة سلف عن قحة وضلال. لذا اضطهد الفقيه الحق، وألغي دوره التسديدي، وبدله قامت تنظيمات ما سُمِّيَ الوسطُ المدني بدور تعويم قيم المروق في المجتمع، وترويج أفكار التغرب والفلسفات الإلحادية بين الفئات والطبقات، وانبرت المدرسة والقطاع الإعلامي والفنّي تلقن الأيديولوجية اللادينية للمجتمع والناشئة، فاستكمل الطغيان جهوزيته، واستفحلت عوامل الردة، ولم يكن في طوق المصلح إلا أن يبدأ من هذا الوضع المتردي، الميؤوس من تعديله.

فظهر ازدواج في الخطاب الإصلاحي: مستوى فقهي للعامة وآخر للخاصة، وفَقَد مصطلح الخاصة والعامة مدلوله القديم. فلم يعد يحيل إلى سواد الناس وبياضهم بالمنطق التصنيفي الطبقي الذي كان له في بعض أطوار الحضارة العربية الإسلامية، بل أضحى مفهوم العامة يحيل إلى ناس المجتمع مطلقا، ومصطلح الخاصة يشير إلى قطاع من الأفراد مقربين، اختص بهم الداعية، وارتبطوا هم به ارتباط تتلمذ وتحصيل وتلقٍّ وتحفيز. فالنشاط الديني، الوظيفي، الحكومي كان يتوازى أحيانا مع نشاط استنقاذي وتنويري ينهض به مصلحون، كل حسب استعداده للتضحية. وكان ذلك النشاط يمارَس تحت تحوطات السرية، وينتشر كالضوء أفقيا في صورة زاوية منفرجة، يبدأ من شخص المصلح، فتنتقل تعاليمه إلى من يباشرهم من عناصر ملازمين، مداومين، ومنهم تنتقل تلك التعاليم إلى القرابة (أهل وأصدقاء)، وهكذا تنفرج مساحة النور، وتتسع قاعدة الهرم بكيفية وئيدة، لكن بتصميم. وكان على المصلح أن يُصعِّد من الجهد بكامل الدهاء والحذر والحكمة ما أمكنه التصعيد، فعيون الترصد لا تنفك عنه، وما أكثر ما كانت أجهزة الرصد تأخذ بمجرد الظنة.

كيف حدثت نكبة المسلمين في العصر الحالي؟

الاجتياح الغربي الذي غمر البلاد الإسلامية هتك الحاجز الحسي والمعنوي الذي أسدل بين العالمين الغربي والمشرقي منذ سقوط الأندلس، فمع تصفية الوجود الأسلامي من الأندلس، تحولت أوروبا إلى مرحلة التمدد والانتشار، واستهدفت دار الإسلام، واستطاعت أن تستولي على الثغور والمجالات الحيوية، وتوجت خططها بتفكيك بنية الخلافة

الإسلامية وتحويل العالم الإسلامي إلى خريطة تتوزعها ألوان الدول الغربية الغالبة، البريطانية والفرنسية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية وغيرها.

كانت صدمة الأمة قوية وهي ترى جيوش الغرب تغزو شواطئها وتحل بمدنها وأريافها، إذ وعت الجماهير فجأة هول القصور الذي صارت إليه، وكارثية الاستنامة التي غيبتها عن التاريخ على مدى عهود مديدة.

ما أسرع ما بدد الغزو والاحتلال ما كان يتوفر للأمة من عدة وقائمة صورية، وشتت من كان هناك من جماعات وعناصر كانت تشكّل طليعة المجتمع، ومقدمة الصف، ومصدر التوجيه.. وهكذا رأينا أمثال الأمير عبد القادر يعيش محنة الأسر ثم النفي عن الوطن، ورأينا الأفغاني يعرف المصير ذاته، والشيخ محمد عبده يسام العسف، ثم يحجر عليه، بل وسنرى حتى العناصر التي انخرطت في العمل تحت رعاية السلطان الأهلي من أمثال الطهطاوي وخير الدين التونسي والكواكبي والنورسي وسواهم يلقون نفس المصير، إذ انقلبت عليهم السلطُ المحلية، وضُيِّقَ عليهم؛ لأن أمر الأمة لم يكن في يدها، وإنما كان في يد الأجنبي الصائل، وكان هذا الأجنبي يترصد كل بادرة من بوادر الاستفاقة، فيُجْهز عليها في المهد.. وهكذا عاشت المجتمعات الإسلامية مراحل قاسية، شبه عزلاء من مقوّمات الوعي وأدوات الاستنهاض، لأن المستعمر وصنائعه الأهليين قد نفّذوا خطة تفقير وتجهيل وتجريف للبيئات المسلمة من كل مولدات التفكير والمقاومة.

تركيا من دور الحاضن إلى دور المنقلب

بانهزام العثمانية أمام القوى الكبرى ظهرت تركيا قطرا منهوك القوى، منتهك السيادة، لا تملك طليعته العسكرية والسياسية إلا أن تمضي في

طريق تم التمهيد له خارجيًا، ورُسمت معالمه، وهُيّئت له المخططات ورُصدت عدة التنفيذ.. وهكذا ظهرت -على المسرح- الدولة الحديثة التي كانت تلميذا نجيبا لأيديولوجة الانتكاس والحيدة عن الدين والانسياق الأعمى لروحية التغرب والانسلاخ عن الأمة.

سلكت الأيديولوجية الجديدة الطريق السهل، إذ حسبت أن خروجها عن هويتها الملية، سيمكّنها من تحقيق الانتساب إلى حاضرة الغرب. ولمّا كانت حسابات الدهاة الغربيين ترى في تغريب تركيا نجاح خططها في تعقيم القطر الذي شكل على مدار القرون رأس الحربة والجبهة التي لا يزال خطر المداهمة يتهددهم من صددها، انبروا يعملون بكل جهد على تهجين تركيا، وتدجين نخبها، وصولا إلى تحويل الشعب عن مشرقيّته، تأبيدا للسيطرة على أمة الإسلام، وسيادة العالم.. وهكذا طفقت دوائر التنويم والتوريط تساند النهج التغريبي الذي دشنَته القوى السلطوية، وراحت تلك الدوائر تعمل على تقوية عَرَّابي ذلك التوجه بالكيفية الغريبة التي تستبقي الأتراك في وضع معلق، بحيث لا يسعهم أن يتقووا فيلحقوا بمستوى تقدم وتطور الغرب، ولا أن يستيقظوا فيتفطّنوا لحالهم، ويجددوا صلَتهم بالأمة. لقد جعل الغرب الاستعماري من تركيا سيزيف العصر، بحيث لبثت تمضي وعلى عاتقها صخرة العذاب، تتجشمها بلا هدف، تصعد وتنحدر، وكاهلها ينوء بوصمة لحقتها جراء نكوص طائفة من الأبناء عن الموثق، وتفريطهم في المجد الذي كسبوه على مدى القرون المتلاحقة باحتضانهم راية الإسلام.

مأساة الأمة التركية أنها عاشت البلاء الروحي الماحق، والدمار المعنوي الكاسح، على يد لفيف متسلط من أبنائها، حادوا عن الأصل،

ونهجوا بالوطن والشعب سبيلا يناقض جوهر كينونتها.

عرفت الأقطار المسلمة أنواعا متفاوتة من السيطرة والاحتلال الأجنبيَين حين زحف الغرب على جغرافية الأمة، وصادر تاريخها، وارتهن مستقبلها، إذ راهن على أن يستبقي الأمة في حالة تخدر، يستنزفها روحيا، ويبتزها ماديا، ويقضي عليها وجوديا قضاء مبرما، ذلك لأنه ظل يتمثل فيها الخطر المحتمل الرئيس الذي يتهدده، والعائق الأكبر في وجه ترسيخ سلطانه على البسيطة، وتخضيع العالمين لإرادته، واستغلال مقدرات الأمم لصالح ازدهار حضارته.

وخرجت العثمانية من سجالها الطويل غير المتكافئ ضد الغرب وقد تحطمت واجهتها الجيوبوليتيكية، إذ أضحت قطرا خسر ما كان له من اعتبار استراتيجي وأدبي، وتقلص -إلى درجة مذهلة- ما كان لها من شساعة قارية وامتدادت بحرية، فلم يسع لفيف السلطوية التي آل إليها الحكم إلا أن تضع نفسها، أو لِنَقُلْ إلا أن تنساق وراء مخطط التغريب الذي هيأه لها الغرب الاستعماري.. وبذلك دخلت تركيا في مرحلة هدم الذات، فمضت النخب المستلبة، وخلال عقود متلاحقة، تتنافس في اتخاذ الإجراءات والتحولات والترتيبات التي تجعل من تركيا شعبا متغربا، قد قطع كل أسباب الارتباط مع ماضيه وأمته وعقيدته. ولقد كان أمرا طبيعيا في خضم ذلك المنحدر "نحو الهاوية" أن تتركز الجهود التغريبية على التشريع والقانون، إذ بتغيير القانون والتشريع تأخذ الأوضاع العامة والخاصة المنحى النكوصي، وتتلبس مجالات الحياة في شتى قطاعاتها الاجتماعية والثقافية والفكرية، بالمظهر التحللي الذي جعل الهدميون من أمر بلوغه، هدفهم ومناط رهانهم.

في ذلك المسار الانغماسي الفظيع، كان -حتما- على الأمّة التركية المنكوبة أن تقوم بردّ فعل على ما كان يمارس عليها من برامج تضليل وسياسيات تشويه ومخططات تضييع، فبرز من بين الصفوف علماء تصدوا للنكبة، واستماتوا في الاعتراض، واسترخسوا الحياة في سبيل الدفاع عن العقيدة وصون الهوية والأصل.

لقد كان على علماء تلك المرحلة أن يقابلوا سياسة التتْريك بكل إيمان واستبسال، فكان قدرهم أن يدفعوا أرواحهم لقاء تمسكهم بالعقيدة، وهكذا لبثت الشوارع والحارات في المدن والأرياف -طيلة ذلك العهد الانحرافي المذهل- تشهد أجساد الصادقين من علماء الدين والشرع والتصوف، تتدلّى في المشانق، معروضة ترهب الناس وتنذرهم بسوء المنقلب إن هم عارضوا نهج التفسخ.

كانت مهمة العلماء المصلحين في تلك المرحلة، مهمة اعتراضية، استنقاذية، تهيب بالأفراد والفئات والجماعات أن يستمسكوا فلا ينساقوا لدعاية وسياسات التهجين.

ومن المؤكد أن من بين رموز الإصلاح في تلك المرحلة الزلزالية، نَجِد المجاهد الفذّ النورسي يحتل الواجهة، إذ قضى العمر كله في منازلة السلطويين المؤدلجين وفي وضع اللبنات التي ينتظم بها الجدار الروحي العازل والمقاوم للردة. لقد بَسطَتْ أمامنا سيرتُه تفاصيل عن ذلك النزال المحتدم الذي خاضه رجال الله ضد التيار، ولقد دلت وقائع تلك السيرة أن الحقبة الجديدة قد ذهبت في الانقلاب على الذات والموثق مذهبا لا هوادة فيه، وأنها قطعت في خيار نهج التغرب بخطة لا رجعة عنها.

في جو المقاومة المريع ذاك، وضمن ظروف التجريف الشامل تلك،

ظهر فقه الاستعصام بالله، وراجت فتوى جواز التكتم على الإيمان، واستسرار العقيدة. واتبع المصلحون طرقا شتّى في المقاومة، حيث سلكوا سبيل التوقي وسبيل المعالنة حسب الاجتهاد، ونوّعوا في الكيفيات الترشيدية، ولبثت آلة الاستئصال تستحصد الأعلام، وتبدد حلقاتهم، وتخنق صوت الحق من خلال تصفية أهل الإيمان والاحتساب.

في هذا المسار الليلي الحالك، شب فتح الله كولن طفلا تربى على بيداغوجية المدافعة الإيمانية، ودرج يافعا يتغذى على قيم التأصل والتصلب والمعاركة الروحية، واستوى شابا يتقحَّم ساحات الدعوة ويبارز في خطوط الاستنقاذ الأمامية.

على خطا نهج الفقه الأكبر

في خضم الاجتياح الأيديولوجي اللائكي تعطَّل معيارُ الواقعة الشرعية، وحلّ محله معيار دفع الجائحة المدَنية، لأن الاستهداف لم يَعُدْ يعني اختراقات محصورة ومرصودة في مسائل بعينها، تشكل ما ظل الفقه الإسلامي يصطلح على تسميته بالنازلة أو النوازل، وإنما الاختراق أصبح ظواهر قيمية طارئة، ومظاهر أخلاقية مستجلبة، وأحوالا ثقافية تغربية مفروضة تزيح وضعا مدنيًّا وحياتيًّا قائما بأسسه الثقافية الأصيلة وأركانه الاعتقادية الوطيدة، الضاربة بجذورها في أرضية تاريخية وحضارية وتشريعية عتيدة، لتستبدله بنمط حياتي آخر تسعى أن تستنسخه في كلياته وتفاصيله من حضارة الغرب.

في وضع كهذا كان على المصلح أن يتحول إلى إِشهارية تنوير، تعرف كيف ومتى تعطي الضوء للمارة كي يقطعوا السبيل إلى النجاة بسلامة.

كانت مواجهة المصلحين -وما أقلّهم عددا وعدة!- للنكبة مركبة، اقتضتهم المنازلة الضارية أن يعملوا على أكثر من صعيد، بدءا باستكمال دور الأهلية في مجال التأطير والاستنقاذ الذي انبروا للنهوض به. فكان عليهم -من ثمّة- أن يثبتوا هم أنفسُهم على الجادة، وأن يتأهلوا للإمساك على الجمر في معركة التمحيص التي كانت تحف بهم وبالإسلام في تركيا الجديدة. فكم زل من قدم تحت وطأة الإغراء أو الترغيم التي عاشها العلماء الأتراك عقب الانقلاب..!

ثم كان عليهم من صدد آخر أن يعمقوا زادهم المعرفي من الشريعة ومن العلوم الأصلية، وأن يضيفوا إلى ذلك كفاءة راسخة في مجال الحداثة بتحصيل علوم العصر، ذلك لأن السجال لم يكن يخص أشخاصهم تحديدا، وإنما يخص الأمة التركية وفئاتها وناشئتها التي باتت عزلاء تتلقن فكر الإلحاد في برامج رسمية معتمدة، فكان لا بد على الصفوة من المصلحين أن يتسلّحوا بمعارف العصر، وأن يطّلعوا بعمق على الفلسفات المارقة، وعلى نظريات الجحود التي كانت تمثل جوهر المعرفة التنويرية الرسمية يومذاك. وكل ذلك لِيتسنّى لهم التأهل للمبارزة وحماية الدين واستنقاذ مَن يتمكّنون من التواصل معهم من الناشئة، وليكونوا على كفاءة في التصدّي وتحصين الشباب خاصة بالفكر الإيماني من موقع معرفي وعلمي وثيق.

وفي الآن ذاته عملت الطليعة من المصلحين على التسلّح ببيداغوجية الاستقطاب والتواصل الدينامية المناسبة للتعامل مع شتى الأصناف العمرية والأوساط الاجتماعية.

ثم كان عليهم أن يتفانوا في الدعوة وفي تقديم مزيد من التضحيات ومواجهة مزيد من المخاطر والامتحانات، وبذلك عاشوا ملاحقين

ومترصَّدين ومعتقلين، بل ولقد فتِئَتْ الأعدادُ منهم تلْقى حتفها على أيدي المغتالين. ورغم تتابع النكبات والخطوب، كانت مردودية ذلك العراك المرير راجحة، إذ خرج الصادقون في الدعوة مظفرين، حيث كفلت لهم صميميتهم المستمية نيل المقبولية لدى الفئات المتزايدة من الشعب التركي، وهو ما تكرس في علاقة تلاحم عضوي مع الجماهير، إذ ترابطت الفئات بالداعية على قاعدة من التواشج والاندماج، ما أحيا من جديد ماضي المشيخة كما طفق يجسدها عبر العهود التحامُ الأقطاب الأشاوس مع الجموع من الأتباع والمحبّين.. وهو ما تحقق للداعية الفذ والمجتهد المسدد، فتح الله كولن قائد نهضة الإصلاح والخدمة التي تشهدها تركيا اليوم.

لقد عكست السيرة العلمية لهذا الرباني الرشيد نوعية العدة والتجهيز التي تصدى بها للردة. فبعد أن انخرط في سلك الوظيف الديني الرسمي، باشر بطريقته المتبصرة مهمّة التنوير، مصعدا في الآن ذاته من جهود ترقيته العلمية وتحصيله الذاتي في العلوم الأصلية والحداثية على سواء، إذ لا ننس أن فتح الله غادر المدرسة وهو لم يتعدّ المستوى الثالث ابتدائي، ليتّخذ من عصاميته مطيّة السبق لبلوغ الذروة في مجال العلم والتأهيل الفقهي والاجتهادي. لقد استغرقته إلى جانب الدعوة أعمال الكتابة، وكانت مقارباته -في الواقع- بحوثا واستنجازات مهمة في مضمار التأثيث الفكري الدعوي، بحيث رأيناه كتب في السيرة وفي التاريخ وفي الفكر والدين وبيداغوجية الدعوة والإحياء، وفي استراتيجية الانبعاث والتأهل الحضاريين، بل وعالج قضايا من صميم العلم العصري[1] بتشعباته

[1] انظر مثلا كتابه حول نظرية النشوء والتطور الداورينية "حقيقة الخلق ونظرية التطوّر".

الاختصاصية وتوجهاته الابستيمولوجية، موظفا ذلك في وجهة إيمانية إثباتية تحصينية، كاشفا في كل ما كتب عن سعة تعمق وأصالة تمثل ورسوخ اطلاع على الآداب والثقافات والفلسفات العالمية.

لقد كانت مقارباته وقراءاته الفكرية مجالا حيويا للاستنباط وصوغ القيم والأحكام وتأصيل المعايير.. فكتابه الجليل عن الرسول ﷺ مثلا،[٢] هو قراءة تأصيلية مدنية وفقهية واستراتيجية، استحيا فيها قيم الشرع والأخلاق والاقتصاد والعدل والحرية الإنسانية، والمساواة المرشَّدة بين الرجل والمرأة، وفن الإدارة والسياسة الداخلية والدولية، وحماية البيئة ورجاحة السلوك الروحي وتنشئة النفس والجهاد بنوعَيه الأصغر والأكبر، وفلسفة الاجتماع، وفقه التوازنات القلبية والثقافية والمدنية، والارتكازات المادية والميتافيزيقية... كلا لم يستغرقه درسُ السيرة وتقليبُ صفحاتها بقصد الاندساس والتواري عن تفسخات مدنية هذا العصر، والفرار من كوابيسها وضراوة مآسيها، إنما احتفى بالسّنة وعايشها عن عمق وبصيرة، لأجل أن يؤصل منها سجلاً ذهبيا مرجعيا بمنهج النهضة المتوخاة، والانبعاثة المأمولة.

أضحى المصلح كولن -وهو يرى العدوان يطبق على الأمة من كافة المستويات- يدأب في بسالة ومخاطرة متناهيتَين، سعيا لتقديم الإسعاف الروحي والدعم المعنوي والخدمة التحصينية.. فالدور العتيد للفقيه انقلب، ولم يعد لرجل الإصلاح مجلس شرعي مهيب، يطرقه أصحاب الحاجات الشرعية، يستفتونه ويستمعون إلى منطوق الشرع على لسانه في قضاياهم،

---

[٢] "النور الخالد: محمد ﷺ.. مفخرة الإنسانية".

بل غدا المصلح نفسه هو الذي يحدب ويسعى -في ظروف التخنيع وإحصاء الأنفاس- ويستميل الأفراد والجماعات إليه، لأجل تمكينهم من أخذ لقاح الإيمان ضد ما يتأجج في المجتمع من أوبئة وأوخام.

طفق الدرس المنبري لكُولَن يتكيف مع أحوال الرقابة وأحابيل الجَوْسَسة، ويسعى بكل رشد إلى أن يشد الأرواح إلى الإيمان. ولقد كان أمرا طبيعيًّا أن لا تستبقي برامج الردة إلا على أعداد متناقصة باطّراد ممن يرتادون الجوامع، لذلك كانت ثمار جهود الداعية المصلح محدودة، الأمر الذي اقتضاه أن يباشر مستوى من التعليم الجواري المتواري، وقد كانت مهمة شاقة وغير مشجعة، نظرا لعدم الإقبال عليها بسبب الضغوط الكثيرة، حيث إن الطالب نفسه كان يجد في مباشرة العملية التعليمية الشرعية خطرا. وما أكثر ما كانت الأسرة نفسها تعيق الابن إذا ما انتبهت إلى أنه انخرط في حلقة من ذلك النوع التعليمي المتواري.. لكن المقاصد المستندة إلى عامل الصبر والمصابرة تنتهي دائما بالإثمار، وهو ما عرفته تجربة كولن، إذ بذلك الجهد التعليمي الجواري المتحفظ، استطاع أن يهيّئ الجو البيداغوجي والتنشيطي الذي أوجد الحلقة وأنشأ النواة الأولى للطلاّب الملتزمين. وما لبث الوضع مع الزمن أن اتّسع إلى حلقات أخرى في بقاع من الوطن، من خلال تطوع الطلاب النجباء، وهكذا توثقت الرابطة الروحية بينه وبين طليعة من الشباب النوعي، وامتدّت أواصرها لتشمل بقاعا من الجغرافية التركية، بل ولتتجاوز الحدود لتستوعب الجاليات التركية في مختلف أرجاء العالم. وذلك ما سهل من سبل تدشين فقه الخدمة والدعوة إلى الإسلام من خلال إقامة مشاريع التعمير والتكوين والإحسان التي انتشرت في القارات جميعا.

من رهانات المصلح المنتخب الثابتة، العمل بلا هوادة على تحقيق الترقّي بحياته إلى مرتبة أهل الكمال، ليغدو -بحقّ- يمثل الحلقة الذهبية الرابطة بين أجيال السلف والخلف، وأن يصير روحا مكرَّمة تستمد وهجها النوراني وطاقتها وبركتها من سائر مصادر الإيمان، وتغتني بأسباب الاقتدار من خلال تمثل سيرة أهل الحق ورموزه، بدءا بمحمد ﷺ وسنّته الْمُشرَّفَة، ومرورا بكافة الصفوف من أرباب الاجتهاد في كل عصر ومصر.. بحيث يستحيل كَينونة كبرى، لها إشعاع بسعة الأرض ورحابة الآفاق، لأن روحه كسرت -بفضل العمل الباهر- قيد المحدودية، وامتلكت صبغة الكارزْمة وهوية الإنسان الكامل.

الجهد التحولي الذي يكابده الرباني، يراهن على بناء هوية استمدادية إمدادية، فهو لا يفتأ دائبا على تلقّي الحظوظ الماسية، يغترفها من النبع القدسي، كتابا وسنّة، ويستلهما من الاقتداء بسيرة الواصلين، ليعود بكل الغنائم المجتناة في ذلك السبيل الجهادي، ويضعها بين يدي العالمين.

إن حبّ احتلال الصدارة الذي نراه يحتدُّ لدى أهل الدنيا، يتحول عند أهل الكمال إلى إصرار على التماهي في نماذج الكمال من السلف، والتَّأَحُّدِ[٣] معهم، والإمعان في تمثُّل مآثر الكاملين ومناقبهم، وتزكية الروح والقلب والوجدان بنفحاتها، وهو ما يجعل من المقتدي مكافئا للمقتدَى بهم، ومن الفرع أصلا، ومن المتدرج مثلا ونموذجا وقواما.

كل أداء للفرض أو للنافلة تكون الحافزية العروجية فيه هي إرادة تحصيل التوفيق ومساماة أهل الكمال.

---

[٣] من مصطلحات التراث المسكَوَيهي.

إن الجهد المبذول لجهة إِناطة الذات بالنماذج العليا من أهل الكمال، هو النهج الصعب الذي يمضي عبره العبد الصالح وهو يؤدي دَوره في قيادة الأمة.. إذ التربية التي يمارسها المصلح تبدأ لديه، بالنفس -نفسه هو- والاعتلاء بها، لتشارف القمم، ولتجاور أهل الذرى.. فإذا تأتَّى له بلوغ ذلك المستوى، تهيّأ له عندئذ أن يرود الفئات بلا عناء، فلكأن القوة التي أضحى يبذلها في القيادة والزحف، هي من جنس قوة الأبرار ومن صنف نفاذية أهل الصُّلاَّحِ الخالدين.

إن مستويات القراءة والتمثل والاستلهام التي يمارسها الداعية المصلح، هي بعض عوامل الشحذ الروحي والسيكولوجي التي يداومها ليلحق بأهل العزم.

إن قراءة كولن للسنة الشريفة هي قراءة طافحة بالمواطن التي تكشف مدى عمق تهيامه بشمائل السمو والسلوك التي طفق الرسول يحرِّض عليها ويرغِّب فيها. وإن عكوف كولن على مدارسة السنة، كان مبعثه الإرادة الجارفة لتمثل تفاصيل تلك السنة، وهضم مفردات ذلك الخلق العظيم، والأخذ به قلْبيًّا وحياتيًّا ودعويًّا.

إن مستوى الاستبطان الاستيعابي الذي قرأ به الأستاذ كولن وقائع السنة الشريفة، وتفحص به أحداثها ومواطن الاعتبار فيها، هو الأساس الذي بنى عليه فهمه للدين، وأرسى فوقه دعائم فقه التيسير والاعتدال الذي يدعو إليه وينادي به.

يُسر المبادئ الشرعية وجوهرها التخليقي

ليس دافع الدعوة إلى التيسير -على نحو ما تنادي به منهجية كولن- هو

تنزيل مسطرة الشرع إلى مستوى من التساهل تقتضيه الواقعية التصحيحية كما هو حال بعض الديانات المتعالية عن الواقع (إشكال الزواج والطلاق في المسيحية مثلا).. ولكن الدافع إلى ذلك هو الرغبة في الرجوع إلى مسطرة الدين الحق؛ إذ شعار الإسلام كما تنص على ذلك حزمة من الأحاديث الشريفة، المعززة بسيرة المصطفى ﷺ، هو «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا»[٤]، و «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٥]، و«إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ»[٦].

ومما لا شك فيه أن الرسول عاش الدين بمستويين، مستوى أهل الاصطفاء والعصمة، فكانت عبادته مثالية، كاملة، لا يدانيها أحد.. وعاش من صدد آخر العبادة بمستوى إنساني، بحيث ظلت وصاياه تؤكد الصبغة الواقعية والعملية والاعتدالية التي أراد أن تكون عليها الأمة في استمساكها بالشرع وتطبيقها لمبادئه فروضا وتعاملات: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ»[٧].

والجنوح إلى التشدد في العبادة جائز، لأنه عزيمة فردية، لكن الدعوة إليه لن تسلم من مخاطر حمل الناس على ما لا يطاق. من هنا رأينا الداعية كولن يشدد على يسرية الشرع: "التيسير هو روح الدين، فمن أراد جعل الدين صعبا لا يطاق انسحق هو تحت هذا الثقل، بينما الدين المعيش في

---

[٤] رواه البخاري، ص:٢٧؛ رواه مسلم، ص:١٢٢٠.

[٥] رواه البخاري، ص:١٥٨١؛ رواه مسلم، ص:٩٣٠.

[٦] رواه البخاري، ص:٦٩٦؛ رواه مسلم، ص:٥١٥.

[٧] رواه الإمام أحمد في المسند، ص:٣١٤٧.

دائرة الاستقامة سهل ويسير يقول ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»[٨]"[٩].

ولا شك أن السيرة الشرعية التي يحياها كولن في واقعه ومعيشه وعلاقاته، هي من الانضباط الحدي البليغ.. فهو يعيش التبتّل في أزكى صوره، وهو حري بما بات عليه من منزلة ومكاسب قلبية أن يدعو إلى التشدد، لكننا رأيناه يرسم فلسفة روحية تجعل الدين السمح، المزكي، المتوازن، قاعدة للحياة، ومجلى للالتزام الإيماني.

وليس لكونه طليعة في مجال الدعوة إلى عالمية الإسلام، يكون اختار شعار اليسر والاعتدال كسبا لمسلمين جدد.. كلا، فإن رؤيته الدعوية تضع من خطتها أن تكون سلوكات المسلم بذاتها دعوة، ويكون مستواه المدني والعلمي والأخلاقي دعوة، وأن تضحى ردة فعله إزاء المحيط الذي هو فيه، والأحداث التي تطرأ على المجتمع الذي يستقر به، دعوة.. فالقدوة محكٌّ مناسب للفت الناس إلى حقيقة الشريعة الإسلامية، ولم يهيّئ الله هذه الشريعة لأن تكون رحمة للعالمين إلا لأنها كاملة الأركان، لا تحتاج إلا إلى الجماعة التي تتقمصها وتخرجها للناس في صورة سلوكات وتعاملات، حتى تلقى القبول والانتشار تلقائيًا.. ذلك لأن النموذج السلوكي الأكمل، يجد في الأغلب طريقه إلى القلوب دونما حاجة إلى دعاية أو إشهار.

إن صلاحية الإسلام تتمحص اليوم بشكل خطير وسافر ودقيق، وسيتصاعد التحدي للإسلام غدا أكثر وأكثر بما يطرأ على الحياة من

---

[٨] رواه البخاري، ص:١٥؛ رواه الإمام أحمد، ص:٤٩١٩.

[٩] "النور الخالد: محمد ﷺ.. مفخرة الإنسانية"، فتح الله كولن، ص:٥٨٦.

تجديدات تمس في جلها الثابت من القيم، والراسخ من المعتقدات، والوطيد من المسلمات. إن الإعلام الذي تديره وتحتكره قوى عالمية وتستلب به وعي المجتمعات والشعوب، باتَ هو المعلِّم والموجه والسلطة، بل وبات هو الأسرة ورابط العُشرة.. فشخوص المسلْسلات وأفلام الكرْتون مثلا، هي شخوص حميمة، ولصيقة بمواجدنا، وأكثر قابلية لاستدرار مشاعرنا من كثير من الشخوص الواقعية التي نتواصل معها بالدم والمساكنة.. إن ثقافة وفكر وأخلاق عالم السمعي البصري هي التي باتت تنْفذ إلى بواطن الشعور واللاشعور لدَينا.. من هنا تزعزعت المنظومات القيمية التي ظلت المجتمعات تتوارثها، وبات تأثير تلك المنظومات العتيقة متراجعا، بعد أن حلت محلها منظومات افتراضية يسكها ويصبها يوميا في دواخلنا السرد السمعي البصري.

وإن دور الإسلام هو أن يكفل الوقاية والمناعة للمجتمع، فليس في وسع الأسرة المسلمة أن تعيش بمنْأى عن الانْتَرْنيت وأخواتها من وسائط الاتصال.. فإذا لم تتوفر هذه الوسائط في البيت، فهي وافرة في الشارع والمؤسسة وعند المعارف والجيران، ولن يحول بين فظائعها ومهالكها وبين الناشئة، بل وبين الأوساط عامة، إلا التحصن بالدين الذي من خاصيته -عند التفعيل- أن ينمي في النفس إرادة الغض والتعفف والرقابة الذاتية.

حقا إن الأمة المتطورة علميا ومدنيا تستطيع أن توفر لمواطنيها البرامج المتوزانة، تصنعها وتملأ بها فضاء المواطنين، وتلبّي شتى الأذواق، وتسدّ مختلف الحاجات، وتغطّي سائر المناحي. إنما الأمة المسلمة -في جل أقطارها- ما زالت في الرغام، غير قادرة حتى على مجرد مباشرة التجريب التصنيعي والتعميري الحيوي والفعال، الأمر الذي يجعل البيئات المسلمة

عرضة لاختراقات وتأثيرات ثقافة الآخر بكل مفاسدها.. من هنا يتأهل الدين -إذا ما فُعِّلَ- للتصدي، بحيث تكفل الثقافة الدينية النيّرة للمجتمع أن يتحكم في ما يتلقى من مدونات، وأن يعمل على تصفية ما يصله من إعلاميات، واختيار ما يعرض عليه من سرديات. بهذا الدور الدفاعي الحيوي تبرز حقيقة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

والخطورة نفسها قائمة في ثقافة المؤسسات وفي التعاملات وفي النظم. إذ العالم قرية، والمجاميع المسلمة لا تفتأ تستهلك النظم والبرامج والأساليب التعاملية الوافدة، فهي من ثمة مطالبة بالتحصن بالعامل الشرعي، فإذا كان هذا العامل الشرعي متشددا وغير مرِن، تعطّلت مصالح المسلمين.. وبالمقابل إذا تُجُووِزَ وتَعَطَّلَ العاملُ الديني أو تُسُوهِلَ فيه، طَمَّ الخطْبُ وعم الضرَر وتهالكت الجدر.

إن الدعوة إلى التيسير كما ينادي بها الأستاذ كولن، تجعل من أهدافها أن الجهد ينبغي أن يبذل بأقصى ما يمكن من الإصرار من أجل بناء البيئة والمجتمع الإسلامي المتكامل الذي لا يحتجز الأمة عن العالم، وإنما يقيم الكيان الذي يكون له من قوة الاستقطاب والمنعة والاكتفاء ما يجعل الآخرين يقبلون على الإسلام أفواجا.

صلابة الإسلام صلابة ذاتية، كامنة في سهولة تطبيقاته وفي طابعه العملي والالتزامي، الفردي والجماعي، إذ هو فرائض وأخلاق بارزة للعيان، فلكأن الشأن في هذه الفرائض والأخلاق منوط بالجماعة والمجتمع، أو لكأن الجماعة هي المسؤولة على تفعيلها.. فالفرد المسلم -من بعض الوجوه- مسوق إلى الدين بالشرط الجماعي، ففي ترجيح كفة صلاة الجماعة (والجمعة) إلزام له بحضور الصلاة، وإلا شذ عن الجماعة..

وإن روح تبادل المصالح والتشارك والتعاون والتراحم التي تشرط الفرد المسلم في محيطه الاجتماعي، تملي عليه أن يكون مندمجا في دائرة الجماعة، ليس فقط بدافع اجتماعيته وإنسانيته، ولكن أيضا ضمانا لمنافعه ومصالحه، وإلا فاتَتْه ثمرة المكاسب (المادية والمعنوية) التي يجْنيها الفرد من الروابط التي يولدها التجمع والجماعة، وإن المسجد ليفتح المجال واسعا في وجه تمازج الفرد مع المحيط، الأمر الذي يجعل من واجب تأدية الصلاة الجماعية مدخلا كريما وميمونا ومؤهلا لتحقيق الاندماج.[١٠]

ونفس التبعات تلحق المسلم عندما تتوطد اندماجيته في الجماعة، إذ إن بقية الأركان الشرعية تدفع إلى التواصل، وتعمل جميعا على تقوية الأواصر بين الفرد ومحيطه. فمبدأ إيتاء الزكاة (أداء أو نيلا)، والقيام بالحج، وكذا إِحياء المواسم الدينية، فضلا عن أنواع المداخلات والمشاركات التي تنشأ بين الفرد والجماعة بحكم التعامل وبفضل روح التضامن والترابط التي تزيدها -حتما- أطوار الحياة واقتضاءات الواقع والتقارب قوة واستحكاما.. إن ذلك كله يُفتّح المسلم على الجماعة، ويكيّفه مع الدين الذي هو أبرز لاحم بين الأفراد.. وإن جماعية العقيدة الإسلامية تتميز بصبغة الاستقرار والثبات، إذ لا ينبغي أن يطرأ على الشعائر، وبالتالي على روح العقيدة، أيّ طارئ يزيحها عن أسسها، وإلا حصل التحلل من ربقة الشريعة..

---

[١٠] لا ننس أن هناك رهوطا تحترف التردد على المسجد بنوايا دنْيوية محضة. وكل إنسان يمكنه أن يقرأ المسحة الدينية القشرية التي يصطنعها أناس من حوله وفي محيطه، ويكتشف أن الدافع هو أن المسوح المظهرية تكفل لهم ثقة الناس وتخلق لهم مجالا حيويا لإدارة المصالح واقتناص فرص الاستنفاع. هؤلاء المسلمون بالمظهر يسيئون إلى الإسلام على نحو ما يسيء إليه خصومه، بل أكثر، لأنهم يمثّلون طائفة من طوائف النفاق.

الأمر الذي يجعل من الدين الإسلامي الدين العملي الذي لا يأتيه الباطل، باطل الانزياح والتحوير المبدئي، لا من بين يديه، ولا من خلفه. فهو بهذا الطابع الجماعي (المشهود)، والصبغة العملية، التطبيقية، دين ذاتي القوة، وذو روحية قائمة على التيسير، والاستدراك، والقضاء[١١] عند الاضطرار.

ولما كان كولن إنساني الرؤية، ذا فلسفة دعوية كونية، فقد أرسى مسطرة منهجه على شعار اليسر والتيسير الذي يراه جوهر العقيدة الإسلامية، ومميزها، وطابعها الأصيل الذي إذا ما حادت عنه، تعطلت الدعوة، وتأجل موعد تلاقي الأمم مع الدين الذي شاءه الله أن يكون دين البشرية قاطبة.

كان على كولن أن يعمل على إعادة توطين الإسلام في بلاده من جديد، بعد أن جهدت قوى الردة في إطفاء مصابيح الدين في المجتمع وبين الأوساط، واختلقت نخبا وطبقات أهلية متفرنجة، مجافية للدين تماما.

تَبْيِيئُ القيمِ الإسلامية كان أفقا ظل كولن على مدى عقود يُصعِّد من الاستراتيجيات لبلوغه. لم يكن متاحا له في تلك العقود أن يباشر النقاش العلني، وعقْد حلقات الجدال والإقناع التي كان في إمكانها أن تبصر الناس، وأن تسهل من مهمة إعادتهم إلى العقيدة.

لم تكن قوى التغريب تتوفر على الاستقلال الذهني الذي يؤهّلها للمواجهة الفكرية، إنما كان كل عدتهم أنهم يردّدون -ببَغائيًّا- أحكاما ومقولات حاقدة على الدين، تلقنوها -في الأغلب بالسماع والاحتذاء الأعمى- عن الغرب الذي ناهضت فلسفاته المادية الشرائع السماوية،

---

[١١] قضاء الفريضة متاح حين يفوتك أداؤها، لداعي النسيان أو الإهمال أو ما إلى ذلك.. وإن فضيلة التوبة هي باب تدارك الأخطاء الذي جعل من الإسلام بالإضافة إلى خصائص جوهرية أخرى في شريعته، دين اليسر والرحمة والغفران.

لعلل تاريخية معروفة.

وإن ازدواج معاناة كولن في عراكه مع الفاشيين، أنه كان يواجه قوى الاستلاب التي لم تكن تتوفر على وجاهة الحجة وقوة الإقناع والسجال الفكري الموضوعي، إلا شعارات أيديولوجية سخيفة تبنَّتْها عقيدةً ظنّت أن الاعتداد بها سيحقق للإنسان التركي الجنة الأرضية. لقد لبثت الفلسفة الجحودية تمثل مصدر ثقافة النخب المستلبة المتسلطة على الحكم، تلك النخب التي لقفت عن الغرب روحيته الحاقدة على الإسلام حصرا، فجعلت في صدارة أهدافها اضطهاد الدعاة وإخراسهم، ومحاربة قيم الأصالة، وتعميم ثقافة أجنبية في البيئة والمجتمع التُّرْكيّين.

كان السبيل الوحيد أمام كولن أن يستمر في العمل بحذَر، وأن يوسع من دائرة المتنورين، واضعا في حسابه حتمية حصول التغير في الوضع الأيديولوجي والجيوسياسي من حوله، إذ كانت تعاليم القرآن تعزز لديه اليقين من أن دولة الإلحاد آيلة إلى الانهيار، وإن طال بها العمر.

لم يكن نظر كولن يترصد سياسة بلاده فحسب، ولم يكن يضع في الاعتبار أحوال السياسة التي كانت تديرها أقلّية من السلطوية التركية وصنائعها من طوائف اللائكيّين المتشدّدين.. تلك السياسة التي كانت تجعل من محق كل مَنْشَطٍ ديني أهلي هدفها الأول.. بل لقد كان كُولن يترصد خريطة الأيديولوجيات والترابطات الجيوسياسية التي كانت تقسم العالم إلى معسكرات، وتملي وصاياها على البسيطة، وتمتد بتحالفاتها عبر الأقطار والقارات، وتقوي من النظم المستلبة المتحالفة، وتوفر لها الحماية وأسباب القوة للاستمرار، وتمكِّنهم من القدرة على بطش المعارضة الداخلية.. وكانت تفاقمات الأيديولوجيات الداخلية والخارجية

لا تزيده إلا إيمانا بقرب أوان الانفراج، فكان ذلك يقوي لديه أكثر فأكثر من حمية المرابطة ومواصلة السعي.

لقد ظل الإيمان يُمثِّل مصدر الخطر والصدد الذي يؤرق نظام الأقلّية السلطوية في تركيا. من هنا كان حجم تلك الشراسة التي ظل الفاشيون يلاحقون بها رموز الصمود، ولقد كان كولن طليعة أولئك الرموز المستهدفين الذين نالهم ما نالهم من ألوان الشر على أيدي هؤلاء، ولقد أيقنت تلك الفئة المتشددة مدى المخاطر التي بات نشاطُه يمثلها لمصالحهم الذاتية، فقطعوا بالحكم بتصفيته الجسدية.

بقي الإيمان قوة كامنة يتعهدها كولن والمصلحون، كل في جبهته وبما تُتِيحه له ظروفه.. ورغم المحن فقد لبثوا يراهنون على انبعاثه لا محالة، ورجعته بكل تأكيد. ولم يخلف الله وعْده المؤمنين، إذ انهارت الشيوعية، وها هي الرأسمالية اليوم تمضي في حال من العرج والترنح، وسيكون مصيرها لا محالة مصير الشيوعية.

انقشع الوضع بعد انهيار الشيوعية، وأذّن كولن في المؤمنين الأتراك، فانبعثت كتائب التثمير إلى الخدمة، وباشروا الدعوة على صعيد فقه التعمير كما أرسى مسطرته وفلسفته كولن.

كانت عقود الجهاد والتزكية قد أثمرت وهيأت له الصيت الروحي الذائع، والمكانة الاعتبارية الراسخة بين أوساط المجتمع التركي، لقد تحول كولن إلى رمز بفضل صبره وديناميته وحكمته وثباته على الطريق، وتكيفه الموفق مع الوقائع، واقتداره على التعامل معها بالدقة والفطنة التي مكّنته من النجاة وتحقيق الفاعلية.. وبذلك أضحى يمثل ظاهرة إصلاحية تسجّل الفتوح باستمرار، وتكسب الأشواط باطراد، وتستقطب الأتباع

المتطوعين على الدوام.. بل لقد أضحى واجهة حراكية بارزة، ومفاعلا معنويا راسخا، يؤثر في الأوضاع الاجتماعية ويساهم في توجيهها بفضل ما بات له من رصيد الإكبار، ومن وجاهة انتزعها بالكدح ومداومة التزكية. لقد أتاحت له عقود التمحيص والاحتساب أن يضحى قمرا منيرا في سماء تركيا، ورقما اعتباريا على خريطة الوطن.. وما لبث أن تفتّحت له أبواب الدواوين والمؤسسات الحكومية، وتهيأت له طريق التواصل مع النخبة من رؤساء أحزاب ومن رموز سياسيين بشتى التوجيهات، ظّلوا يديرون سياسة تركيا ويتداولونها عقودا متتالية.. وهكذا صار محاورا مع القوى التي ظلّت تحاربه وتناهض توجهه الإيماني، وبذلك تمكَّن من أن ينشئ جو حوار وطني لم تشهده تركيا المعاصرة من قبل، وترتب عن ذلك الحوار المثمر، والتواصل المرشَّد، إنشاءُ مؤسسات ثقافية وفكرية عمومية مفتوحة على التيارات بمختلف مشاربها.. وبذلك غدا كولن يشارك بطريقة أو أخرى في صميم الأداء السياسي لبلاده، رغم إمساكه المبدئي عن الخوض في السياسة بصيغتها الحزبية السفسطائية المعروفة.

لقد يَسّر عليه أن يبلغ ذلك المستوى الباهر من النفاذ والمقامية في تركيا وبين المحبّين، سيرتُه الإيمانية المفعمة بالإصرار، ونهجُه الروحي والبيداغوجي الميمون، وكارزميتُه الصميميّة التي لا مراء فيها.

العَلَمُ أو الإيقون، حين يستوي اسما استقطابيا مكينا، ومرجعية إحالية راسخة، يكتسب من الخصوصيات الروحية والاعتبارية ما يجعل منه قوة مؤثرة ومفاعلة للمجتمع والجماهير من خلال العلاقة السحرية الاستثنائية التي تنشأ بين القطب والفئات.. بأدنى الإيماءات تتحرك الكتل إلى الفعل، وتتنافس وتتفنن في التنفيذ.. إن شخصية القطب تتحول في مواجد الناس

إلى ماهية عليائية طافحة بالأسرار والمعاني والإيعازات الروحانية.

وإن التفوق الذي يبلغه رجال الدعوة (رجال الله) في ذلك السبيل الشاق من التزكية والشفوف، والذي طفقنا نقرأه في سيرهم خوارقَ وكراماتٍ، إنما تترجمه هذه العلاقة الإشعاعية التي تصل بين الداعية الروحاني وبين الجماهير. إن الأوساط لا تفتأ تقرأ في سيرته العامرة بالبر والمحامد، المعاني اللدّنية (أي القرب من الله)، الأمر الذي يجعل القلوب تتشرع لمحبته (الداعية)، بل والتناهي في تلك المحبة، فيشتحنون نتيجة لذلك بالقوة، ويستمدون منه، بالتأثر، وبما ينشأ لديهم من قابلية، مدود العزم والنفاذ، وينعكس ذلك على كثير مما يفعلون وينْجزون، وهو ما يجعل معنى البركة والتوفيق يظهر عيانا للناس عن ذلك السبيل.

لقد تجلّت هذه الحقيقة الروحية في علاقة كولن بالمجتمع التركي، فنتج عن ذلك قيام دينامية بناء وتجهيز كبرى. لقد أرسى منظومة قطاعات نهضوية حيوية متكاملة، شملت حقول التربية والإعلام والاستثمار والخدمات وحتى ميدان البحث العلمي.

بل وهيأ مجالا للتفتح الخارجي ومد دينامية الدعوة والخدمة إلى كافة القارات، بما في ذلك تخصيص منح للطلاب الأجانب، سواء من الدول الإسلامية أم من غيرها. ويدخل ذلك التوجه في إطار برامج الدعوة وفلسفة التبليغ كما يرسم لها الأستاذ كولن في مرحلة الانفتاح والعولمة.

ومما لا شكّ فيه أن كولن يرى أن هذا الانحطاط الشنيع الذي آلت إليه الأمّة إنما كانت علّته انحرافها عن الجادة، وإخلالها بحقوق الله، إذ بمراعاة حقوق الله تنكفل حقوق العباد، وتستمر شروط جدارتهم بالتكريمية وطيدة.

وأبرز ما تظهر عليه أحوال التردّي الحضاري هو هذه الوصمة الانهزامية الوخيمة التي مني بها المسلم، فأضحى مستكينا، مهين النفسية، عرضة للعسف الأممي، بلا شخصية ولا توق، محصورا في رقعته مكبل الإرادة، محتلاً في موطنه مستسلما للحطة، تطبق عليه حال الغباء حتى لا يكاد يستشعر واقع الكارثية الذي يحياه، وإنها لأوضاع تقتضي التعديل والتجاوز.. من هنا كانت إحيائية كولن ترى لزوم استهداف الكيان الداخلي للفرد المسلم، وإعادة بنائه من جديد، على الأسس الأصلية ذاتها التي أنجز بها الأماجد المحمّديون ماضينا الحافل بالعظائم.

ومما لا شكّ فيه أنه لا استحقاقات في الحياة لأمة فرطت في رصيدها القيمي، وهدرت مخزونها من العزة، وباتت عطلا، شوهاء، سادرة في الخمول، توطّنت فيها المهانة، بحيث لا تستجيب لتقريعات الزمن إلا بما يزيد من وهنها، "لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم"[١٢].

وإن أساس النهضة وعمارة الأرض يتم بتفعيل الإنسان، وترميم شروخ روحيته، وإعادة صياغته نوعيا، على ذات الطراز النوعي الذي أرست معاييره البعثة النبوية، وجسّدت نفاذيته منجزات الصحابة ومَن لحق بهم من أجيال القرون الذهبية الأولى.

إن عُدّة النهضة في مخطط كولن وقوامها يتشكل من النخب والطلائع العاملة في ميدان الدعوة. وإن دورهم في بث ثقافة التنوير والانبعاث

---

[١٢] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٤٠.

لحاسمة. من هنا طفق كولن يشدد على خصوصية المثال المتكامل من السموّ الروحي والمعنوي الذي ينبغي أن يكونوا عليه، حتى يتأهّلوا للمهام الإحيائية التي يضطلعون بها.

إنه يطمح إلى أن يكون الصفوة من الساعين على طراز أصيل من المتانة الروحية ومن التبتّل والخلوص القلبي. إن أعظم خَدَمَةِ الحياة هم مَن طلّقوها، وعملوا فيها لا لأنفسهم، وإنما وُكلاء عن الحق، مالك الملك ﷻ، وبذلك نالوا السلطنة، وتوجتهم الجماهير ملوكا أبَديّين، وكلّلتهم سجلات التاريخ، بالقار والمجادة.

وإن الجهوزية المثمرة، القادرة على التجاوز بالأمة وضع السقوط المزمن الذي تعيشه، لا تتم إلا بالتسلح بالعلم ومعه الأخلاق المتوجة بالتزكية واكتساب حس الآخرة.

لقد بنى كولن تصوره للنهضة على تشكيل صفوة طليعية تستوفي شروط التكوين، من خلال اتصافها بالفتوة، وبالعلمية وبالاحتسابية. فالقاطرة التي تجر العربات هم النخبة التي تلقّت تكوينا عميقا في العلم الشرعي على يد الداعية، وتزوّدت بالاستنارة المعرفية العصرية، وتدرّبت على التمرس على التريض القلبي الذي يجعلها تستعذب الأداء وتستذيق ذاتيا مراءة البذل والتضحية. إذ ليس كمثل الدافع القلبي ضامنا لاسترسال الجهد والمواظبة على البناء وتقديم الخدمة.

يدرك كولن أن الأيديولوجية السياسوية إيمان عرضي لا يدوم ولا يَسلم من الانتكاسات لدى العثرات أو الصدمات والخيبات؛ فالأيديولوجية نار هشيم لا تتجدد ولا تبقى.. لذا يعول على استزراع القيم الروحية في مواجد الطليعة المتنورة، وحقن مفردات الروحانية في قلوب العاملين،

وإن كتاباته[١٣] في ذلك الاتجاه هي داعم تربويّ وبيداغوجي يندرج ضمن الرؤية التكوينية والترشيدية (الرسكلة) التي يراها لازبة، ولازمة، لإدامة عامل الاشتحان والحيوية والمضاء.

ولا غرابة والحال هذه، أنْ نراه يؤكّد أن صفة "العالم" لا يحوزها بجدارة واستحقاق إلا عالم الشرع، ذلك لأن كولن يدرك أهمّية الدين في تجهيز الفيالق، وفي إدارة المعركة، وحسم جولاتها، لذا تترجح عنده الأهلية الشرعية على ما سواها؛ فالعالم القمين بهذه الصفة، هو عالم الشريعة والدين، ولا ريب أن هذه النظرة هي التي سادت قديما عند المسلمين، فالعلم الحق كان يعني عندهم الفقه وثقافة الفتوى، ولئن بدا لنا اليوم ضيق وانحسار هذه الرؤية، فلأنها لم تراع التوازن في منظومة المعارف، الأمر الذي ترتب عنه التفريط في علوم الدنيا، والاستخفاف بعلوم المدَنية، وهو ما أودى بالحضارة الإسلامية، ذلك لأن الاعتداد بعلم الشرع وحده، جعل يتراخى باطراد هو أيضا، لأن الرثاثة التي سرت في المدنية بانبخاس المعارف، انتهت إلى المعرفة الشرعية، ونالت منها، فأضحت تتراجع وصارت نظميات ومختزلات، وضمرت روحية الأمة بجفاف معينها العاطفي والأخلاقي والقيَمي، وتعمّقت هوة الانفصال بين الإسلام والمسلمين، وبذلك حصل الخسران.

من هنا يلحّ كولن على وجوب إعادة اللحمة بين الدين والدنيا، ولهذا فإن دَور العالم الشرعيّ يغدو اليوم دورًا أساسيًّا، بالنظر إلى أن الأمّة بصدد تدشين مرحلة من الوثوب والفكاك النهائي من نائرة التردّي، لأن

---

[١٣] انظر مثلا: "التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح"، فهو مدونة توجيه روحي للعاملين.

الإصابة التي أودت بالأمة أضرّت بالروح، وإن العلاج ينبغي أن يكون روحيا بالأساس، لأن العقيدة هي العامل. الإطار الذي يهيّئ الأرضية التي تقام عليها دعائم النهضة. فإذا تعافت الروح، تيسّر على الأمة أن تستدرك كل ما فاتها في حقول المعرفة الدنيوية والمهارات المدنية.

واستراتيجية كولن تترقى إلى أهدافها بمنطق التدرّج. فالأمة التي عاشت طيلة أجيال متلاحقة تحت وطأة الإلحاد والجحود، لا يمكن أن نركّز -ونحن نرشدها إلى مبادئ دينها وفلسفة عقيدتها- على الجوانب التي تبدو ثانوية قياسا بالركنيات والأساسيات.. من هنا رأيناه يعتمد خطّة تقديم الأهم على المهمّ، ليس لأنه يرى أن العقيدة تفاريق وإقطاعات تؤخذ بالتجزئة، كلا، إنما همّه أن يسلك بالجماهير والنخب التي طالما غيّبتها الأيديولوجية الإلحادية عن الشرع، المنهج التذْويقي المفيد. فبدلاً من أن تستثار أمامها قضايا ذات طابع استكمالي، توضع أمامها المبادئ الروحية التي -حين يتحقق استيعاب الجماهير لها-، فإن قابلية الاستكمال تتهيّأ لدى تلك الجماهير. وعندئذ تجد الناس يسعَون هم بذواتهم إلى استيفاء شروط تديّنهم.. ومن ثم فلا ينبغي أن يتهوّر المسلمون فيجعلوا من نقاط الخلاف المعلن نقطة الانطلاق إلى بناء الغد ونشدان النهضة. ذلك لأن كولن يرى أن تعميم قيم العقيدة وإشاعة ثقافة الدين على نطاق جماهيريّ واسع يقتضي التدرّج بالناس (وإِخراجهم من تغريبيتهم بحكمة التيسير) والسير بهم برشد عبر منهج يتيح لهم أن يكتشفوا عظمة دينهم من خلال التعرّف على أسسه الإنسانية وأركانه الأخلاقية، فإذا ما تم لهم حظٌّ من ذلك، انقلبوا بأنفسهم إلى التفاصيل الشرعية يحتضنونها، وإلى التفاريق العقدية يعتصمون بها، ويستكملون كلية إيمانهم.

مبدأ تداول المشترك الإنساني

يؤمن كولن بمبدإ الحق للبشر في تداول المشتركات التجهيزية والإنجازات الإنسانية، وبكونها ثمرة ومكسبا لا ينبغي التقصير في الأخذ به والتمرس عليه، لاسيما في الحقل العلمي وفي المجالات التطبيقية، إذ بتوسع المعرفة الإنسانية يتحقق التطور، والتطور حين ينبني على مسطرة من أخلاق النزاهة والحيادية، ينعكس بثماره على الإنسانية جميعا، إذ إن أي اكتشاف علمي أو صناعي أو صحّي أو ما إلى ذلك، إنما تترجح فائدته المادية والأدبية -حتى بالنسبة لمكتشفيه ومُنْجزيه- على قدر ما يتسع تداوله ويروج استخدامه. ذلك أن الأخذ بأسباب التطور -عندما يسير في الاتّجاه الصحيح- لا يعني إلا أن الآخذين بتلك الأسباب إنما يسكنهم إلى جانب وازع الترقية التجهيزية، وازعٌ معرفي مُلِحٌّ هو الحرص على الوصول إلى المستوى الذي يتمكّنون فيه هم أيضًا من استكمال الاستعداد والتهيّؤ للإسهام بدورهم في حركة الكشوف والإبداع، فيغدون من ثمة متحكّمين في التقانة، مولّدين للعلم التجديدي، مصدّرين للخبرة، ومزوّدين للسوق العالمي بالمنتوج الذي صنَّعته أيديهم، وبالتقنية التي تفتّقت عنها عبقريتهم.

لا ينطلق كولن في هذا التصور من فراغ، إنما هو يستند إلى معطيات التاريخ، إذ إن العثمانية التي رادت الأمة في بناء حضارتها الإسلامية ردحا مديدا من الزمن، قد سجّلت على مدى القرون صفحات من السبق المعرفي والظهور الإنجازي، بحيث لبثت طيلة العصر الوسيط مَصْدَرا باثًّا للقيم الحضارية والمدنية، وموئلا مستقطبا للخبرة العالمية، ومثابة مستقبلة لأهل القرائح والإنجازات من كل صدد وصوب.

بهذا الوعي يرى كولن أن مرحلة الاقتراض المدَني لا تعني الاستنامة للعجز الإنتاجي، بل عليها أن تكون جسرا تعبر الأمة من فوقه إلى طور التصنيع الشامل، وتتجاوز وضع العقم الذي صير مجتمعاتنا المسلمة أسواقا تستجلب إليها البضائع، وجعل جموعنا البشرية مجرد كتل تستهلك ولا تكاد تنتج شيئًا. إن رصيدنا من الناجز الحضاري الإسلامي، مرجع حيوي لتغذية القريحة وشحذ الهمّة وتحريك مفاعيل العمل والبناء، والانطلاق من جديد في صناعة المستقبل وإقامة الصرح.

فالخلفيّة التي تستند إليها الانبعاثة النهضوية، مشحونة بالمآثر والصفحات البيض التي ستشكل أرضية الفتوح العلمية المنتظرة وأساس التنمية المنشودة. إن اقتحامنا للرهان التصنيعي والتثميري لا ينبغي أن يكون مجرد مغامرة تفتقد إلى شروط الأهلية والاستحقاق، بل عليه أن يكون يقظة يسوغها وضع الانسحاق الذي نعيشه منذ أمد. من هذه الاعتبارات يرى كولن أن النهضة هي في واقع الأمر توبة شرعية ومدنية تستدرك بها الأمة ما اقترفت من إثم التفريط والتقهقر والإخلال بموثق الائتمان.

واستمداد المدنية الراهنة وتلقّي نتاجاتها ومنجزاتها لا يكون مفيدًا وإيجابيًّا إلا إذا رافقه وعي يستصفي شوائب تلك المستوردات؛ إذ إن العقل الذي صاغها واستنجزها عقل لا يهتمّ بالبعد الشرعي في المصنوعات، لأن التأثيث المادي هو غايته فلا غرو أن نرى قطاع الألبسة مثلاً لا يفتأ يمعن في التهتك والسفورية وتخطي حواجز الاحتشام. ذلك لأن ضوابط حضارة "الموضة" ليست شرعية إنما ماركوتنغية، ربحية. والأمر نفسه نجده في ميدان التغذية والتموين والتطبيب وما إلى ذلك، إذ يغيب البعد الشرعي في صناعة الأطعمة والمواد الدوائية، فلا تراعى المحظورات.

إن حضارة الراهن الغربية حضارة لائكيّة، مادية، اختلاطية، فهي من ثم تقتضي من المتداولين لابتكاراتها، أن يصطنعوا نظام "فَلْتَرَة" وتصفية مانع للأذى، صونًا للقيم الأصلية من الأضرار.

وإن نظام النهضة المأمول لن يكون أصيلا، ولن يجسد كماله ونموذجيته إلا إذا راعى الطابع المعياري الشرعي في سائر مبتكاراته وتداولاته. ولقد بين الأستاذ كولن في كتابيه "ونحن نقيم صرح الروح"، وكذا كتابه "ونحن نبني حضارتنا" الاستراتيجية التي تصلح لتنفيذ رهان الوثبة النهضوية والأسس الواجب توفرها في الفواعل (رجال الخدمة بمختلف مسؤوليّتهم التمويلية والإنجازية)، وفي التخطيط والوسائل والأهداف والتكييفات والمتابعات.. ولا اعتبار لنهضة تجعل من تقليد الآخر واستلهام معاييره ومقاييسه سقف رهانها ومنتهى عزمها.

إن المميزة -بالنسبة إلى رؤية كولن- شرط مدني يَفْرُقُ بين مقومات الـ"أنا" الجمعي الإسلامي ذي البعد الروحي الراسخ، وبين ما سواه من أنماط التمدّن التي تعول على المواضعات المادية والنظم الصماء.

الدين مجال استلهام وترشيد، وليس كما يزعم المخترقون والضالون، أنه -فحسْب- تكؤة يستند إليها القصر وضعيفو النظر، وهزيلو الخيال.

إن ما يبدو لأولئك الجاحدين من سعة يُتيحها النظر المتحلّل من الضوابط، ومن انفساح في الرؤية يكفلها الانخراط في أجواء الحرّية المطلقة والتحرر اللامحدود، هو وهْم وبيل؛ إذ لا يغنم الإنسان من أجواء التحلل والتهتّك إلا التسكّع المجاني، والعود على بدء، وإنهاك الروح من غير طائل؛ إذ جماع ما تُحصِّله الإنسانيةُ من جرْيها وراء سراب الانطلاق والتحلل من عقال الشرع، هو مظاهر صورية تستجيب للحس

أكثر من استجابتها للعقل، وتلبّي الحاجة التهتّكية والتمتّعية العابرة أكثر من تلْبيتها لما يخدم البشرية. وإن المتع الحسية غذاء الأجساد، والعقل غذاؤه الحقائق الألماسية الصلبة التي لا ينال منها الزمن.

الضوابط -حتى الأرضية- تحُول بين الكائن وبين الميوعة، فكيف لا تكون وقاء لا يبلى حين تكون ضوابط صادرة عن السماء؟!

إن القوى الاحتكارية (والأقلّيات) الباذخة، المستهترة، الباحثة عن المكاسب، هي مصدر التمييع الثقافي، والجري وراء الشكلية الجوفاء، والتفسّخ المقيت الذي يستهدف العالمين، وهتْك الحرمات وضرْب المقدّسات.

وإن مساحة الزيف ضيّقة وإنْ توهّم المتوهّمون لا محدوديّتها، إذ هم لابثون في الدوارن حول وتد الشهوة والأهواء، والإفتان (والافتتان) الرخيس، والتضليل التعيس، أشبه بثور مربوط إلى حلقة.

إن المميزة تعني الاستئناف المؤصَّل الذي يتجسد على أرضية الواقع من حيث الإبداع والعمل وتحقيق الكفاية والفائض عن الكفاية. حتى الاستنساخ الذي تمارسه الأمم بتخطيط في نقل معارف بعضها من بعض يعكس مستوى من الأصالة ونمطا من الذاتية التي تضفيها -حتما- تلك الأمم الناقلة على نقولها، ولو من حيث إظهار قدرتها على المحاكاة والتمهر في الاحتذاء؛ إذ الاحتذاء -إذا كان مؤسّسا على حسّ التجاوز ووازع التأصل- هو عتَبة مهمّة لكسب المهارة والخبرة والثقة التي هي شرط أساس للتحول إلى الابتكار الفذّ والتفرد المميز، إذ لا ننس أن معطيات المكان والبيئة والواقع الاجتماعي المتحرّك، تنتهي بفرض ختمها وخصوصياتها على المنتوج (ولو كان مقلّدا)، لأن الحاجة التداولية

هي الموجِّه الحاسم لجهة طبع الناجز، أيًّا كان ميدانه، ونوعيّته، حتى الناجز الذهني والفكري والأخلاقي، فضلاً عن الناجز المادّي والتأثيثي، إذ جميعًا تحكمها ضغوط الحاجة العملية والتجهيزية المُوَلِّدة لها.

وبالنسبة لرهانات النهضة الإسلامية -كما يترسّمها كولن- فإن رصيدها التاريخي، وعمقها المدني، وتراثاتها العريقة في شتّى الميادين، هي أرضية ومرجعية أساسية ينطلق منها أي انبعاث إحيائي تعميري.

إن الوجدان الجمعي للأمّة لا يزال مشحونًا بأصداء جذلى لتاريخيّة حافلة باليقينيّات والمآثر وسجلات التفوّق والمعنويات الكامنة والاستعدادات المهيّأة للنهوض واستعادة العزّ والكرامة.. فالأمّة ذات العراقة لا تكون مراحل تراجعها وتعطلها إلاّ بمثابة استراحة المحارب الذي لن يستغرقه القعود وإن طال، فهو سينهض لا محالة، وسيستأنف نزاله واستبساله؛ لأن روحيته جبلتْ على السير والطراد.

اجتهاد التأصيل والتصويب

يشكل البحث في محيط الدلالة القرآنية والنبوية، وقراءتها من زاوية سبر البعد المدنيّ التجدديّ، الذي تَشْتَحِنُ به، مَنْشطا مُهِمًّا ومَشْغلا رئيسًا في منهج الأستاذ كولن. فطالما استلهم المنظّرون أفكارهم وتصوراتهم من وحي الافتراض والتخيّل، أو استمدّوها من حقل الاقتباس والتركيب، أو أنشأوها من خلال استنطاق التاريخ ومنعطفات المسيرة الجمعية لأممهم. وكُولَن في رسمه لخطّة المستقبل، يستند على أرضية صلبة من المعطيات، تتمثل في مقررات الكتاب والسنّة من جهة، وفي بيانات السجل التاريخي كما عاشتها الأمّة في أطوارها المختلفة، وبكل ما ميّز

مسيرتها من انتصارات وانكسارات.

إن استقراء توجيهات وإيعازات هذه المصادر القدسية والتوثيقية، واستدرار تبصيراتِها وعِبَرِها، هو نوع من الاستنباط الفقهي الدقيق الذي يخصّ مصير الأمّة ورسالتها الربّانية الخالدة. فهو إذن حقل تخريجي من صميم جنس الاجتهاد الشرعي الذي أهاب القرآنُ بالأمّة أن تُفرّغ له على الدوام مَن يتكفّلُه ويتولّى مراسه: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(التوبة:١٢٢).. بل هو ذروة هذا الاجتهاد الشرعي وسنامُه الذي حرضت عليه الآية وأوجبته، لأن المناط فيه مناط جمعي مصيري.. بل إنه تطبيق عملي لدعاء المسلمين المتردد على ألسنتهم وفي قلوبهم مع كل صلاة ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٦)، فاستشراف المنافذ والمصادر والطرق التي تساعد الأمة على الخروج من منسحقها، هو جهد اجتهادي وتمحيصي يهدف -في إخلاص- إلى استنقاذ الأمّة وبيان السبيل الأوفق لها، والجادة الأجدر أن تسلكها.. فهو من هذا الجانب جهاد أكبر، وفقه أكبر، حريٌّ بالأمة أن تلتفت إليه، فتُرسِّمه ضمن معارفها الشرعية الأصيلة.. ذلك لأن هذا الضرب من التروّي الإسنادي قد تعاطته الأمّةُ في عهود مضت، حين تصادمت مع التمدد الصليبي وجثُوّهِ على ثغورها. وإن ما كتبه الغزالي مثلا، هو بعض ما حاول النيّرون من مفكّري الأمة أن يتصدوا به للعدوان آنئذ. غير أن الأمة وإن واجهت الاعتداء غداتئذ بالجهاد وبثقافة الانكفاء، إلا أنّها لم توفّق إلى تنمية فقه الاستنهاض والاستقواء.. لأن مضاعفات التراجع كانت من الفداحة بحيث تقلّصت الرؤية وانحصرت -أجل انحصرت- في مطلب البقاء الأعزل، بعد أن

تدهورت الهمّة واقتصرت على الرضى بالكفاف.

وإن الاشتغال الفكري الذي يواظب عليه الأستاذ كولن اليوم، هو قمّة الحدب والتكفل الذي تمليه على الأكرمين روحُ الاحتساب والمبرة والمرحمة حيال أمّتهم ودينهم وإنسانيّتهم. ولا يمكن في هذا الصدد إلا القول أنه اشتغال موصول باجتهادات أرباب الفكر الفقهي ممن عاشوا وأفئدتهم مشرَّعة تحتضن الأمّة، وتقيل عثارها في مواطن الزلل.

فحين يستنبط المفكّر ورجل المدَنية كولن مفاتيح فلسفته من صلب معطيات ماضيه، وصميم تجارب أمسه، فإنه يسترفد التاريخ الذي كتبت الأمة صحائفه بدَمِها، ويسترشد الحضارة التي شادت الأجيال معالمها بعرقها، ولا يكون كولن في كل ذلك -قطعا- عالةً على ذلك الماضي، ولا هو منتكص صوبه لدواعي العجز والكلال، كلا، إنما الذي يحمله على القيام بمثل ذلك الاستئناس هو الرغبة القويّة في أن يستوثق للأشواط حتى لا تحيد، وللرمية حتى لا تخطئ.

داعي الأصالة والتأصيل يلحّ عليه فيزداد استمْساكًا بالأرضيّة والجذور، لقد علّمته دروس التاريخ أنّ مسار الحضارات آيل إلى طريق الانسداد ما لم تدر عجَلته على دعامة الرّوح.. بل لقد علّمه التاريخ أنه حتى المدَنيات ذات البعد الروحي والشرعي، مآلها إلى السقوط ما أن تنحرف عن الخطّ الأخلاقي، وتحيد عن النهج الالتزامي.. وإن مصير الحضارة الإسلامية في شوطها المنصرم لَناطق بهذه الحقيقة، ومؤكّد لاطرادية قاعدتها. من هنا كان الحرص على استحضار البيانات والمعطيات والاسترشاد بها في رسم الطريق إلى النهضة.

إن تِيمَة النهوض والانبعاث أضحت هي القضيّة الفقهية المركزية

التي يطرحها واقع الأمّة على المفكّر كُولَن، ويعرضها لسان حالها عليه، وتستفتيه بخصوصها أوضاع الشعوب المسلمة.

لقد أرسى أئمّة المذاهب الفقهية قديما أسس ثقافة العبادة وعلوم الشعائر، وكانت تلك الثقافة التعبّدية تمثّل في وقتها واجهة المقاصد التي لا محيد عنها لوضع قواعد البناء الحضاري.. وينبري اليوم رؤساء الفكر الالمعيين ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾(ص:٢٤) لتدشين فقه النهضة وإقامة أسس الاجتهاد في مجال اليقظة والتعمير.

المفكر النهضوي يرسم الخريطة التي تتحرّك عليها الأمّة، بتشخيص الأدواء، ووصف الأدوية، وتقدير مدّة العلاج والاستجمام، ثم يرافق بنفسه المراحل، ويصاحب الخطوات، فلكأنه مقاول ينشئ مدينة بكافّة مرافقها؛ فالأعمال تجري تحت بصره، متساوقة، لتكتمل في الإبان.

ومن فداحة النتائج التي أسفرت عنها المسيرة المؤدلجة، ومن كارثية المآلات التي انتهت إليها الأمّة وهي تلْهث وراء سراب العبث، باتت الجماهير لا تثق في حكّامها ولا في سياسيّيها. وحدهم القلةُ من الأفذاذ الذين سلخوا العمر في المنازلة والالتحام مع فئات المجتمع والشعب، أضحوا رادتها ومحلّ ثقتها، ومن تُسلِّم إليهم المقادة في حب ويقين، وتنصاع لتعاليمهم وتوجيهاتهم بلا تردّد؛ ذلك لأنها سلخت العقود وهي تراهم ملْء السمع والبصر عاكفين على العطاء، ممعنين في المناضلة ومكابدة ألوان الحرمان.. وأكبر وأقسى أصنافه انعدام العش والزوج والولد.

وتلك -لعمري- هي بالذات آية الاصطفاء، وذلك هو عنوان البسالة والتفرّد الذي جعلهم ربّانيين بلا منازع.. وإلا مَن ذا الذي يطمع في أن يصيبه بعض غبار سنابك خيلهم وهي تطوي المدى في مضمار المقامية..

رابطوا العمر كله للحق بالحق وليس لشأنٍ يخصّهم أو مطمح يستوطنهم، إنهم أهل العزْم والكمال، يجودون علينا ببعض الحظوظ الربّانية التي نالوها بالعرق والبكاء والاستماتة.

اختاروا الخلود فعاشوا ينجزون ما يضاعف الأجر ويؤهّل للديمومة.

وإن ما أحجمت الفئات عن المدافعة عنه من تحوّلات تطعن العقيدة والشرف والأصالة والانتماء في العمق، هبوا هم يساجلون دونه بكلّ ما أوتوا من قوة ودهاء، يستمدّون العون من الله، واثقين من أنّ الظفر في النهاية يكون للحقّ، مشفقين على الجماهير وهم يرونها تنقاد منكسة، تمتثل لما يصدر لها من أوامر وزواجر المستبدّين.. لكَم طفقت تدْمى أفئدتهم جراء أحوال الصغار التي كانوا يرون عليها أمّة النبي، والأجيال من أحفاد الفاتح.. لبثت أصواتهم تعلو وتهيب بالأمّة أن تستفيق وتعمل لأجل أن تنتقل إلى مستوى الكفاءة والقوامة.. كان يدحرهم وضع التخلف والحطة التي أَزْرَتْ بأمّتهم، ذلك لأنهم يعتبرون وضع التخلّف والانحدار وضْعٌ شاذٌّ لا يتناسب مع الشرط الإنساني، ولا تحتمله صفة التولية والتكليف التي أضفاها الله علينا نحن المحمّديين، "أورثَنا الانحطاطُ ليس التخلّفَ المادّي والترهل البنيوي فقط، ولكن عُقَدا استشرت وقمعت في الروح كل نزوع للانبعاث واليقظة. من هنا توجَّب العملُ الشمولي على التداوي ومعالجة الذات من عقد الحطة وتبعاتها المعنوية والأدبية".

لقد استيقن كولن أن الفريضة الغائبة هي فريضة النهوض المدَني والانتفاض المادّي. وأنه من الوفاء للموثق أن يعمل النيّرون، على تحيين هذه الفريضة، وأن يتحوّلوا في خضم التحضير لها، إلى قواطر تجرّ العربات.

ولقد أدرك أن النفاذ إلى تحقيق الهزّة التي تنتشل الأمّة من وهْدتها،

وتعيدها إلى الجادة، إنما يتم من خلال تشغيل محركات الانبعاث وبناء الهوية والتي هي الدين والتاريخ والانتساب إلى شجرة الإسلام المنفتحة على بني الإنسانية قاطبة.

وإن خوض الأستاذ كولن لتجربة الخدمة هو -حقا- تدشين لآفاق نهضوية لا قِبَل للأمة بها. لقد عملت بعض الطرق، ومنها السّنوسية مثلا في القرن الماضي، على اتباع نظام الاكتفاء الذاتي فشجّعت أتباعها على إقامة مستزرعات في أماكن استقرارهم بالواحات وغيرها، سعيا منها إلى أن تضمن مستوى من التكفّل الذاتي، لكن تجربتها لم تخرج عن الجهد التمويني القطاعي، والمقتصر على منظومة زواياها ورُبَطها، وفي قسم من حاجاتها، ليس إلاّ.

إن الخدمة كما رسم لها الأستاذ كولن، منهاج يفتح في وجه الأمّة مجالات واسعة وحيوية بإمكان أهل الاستعداد أن يوظّفوا فيها فوائض أموالهم وديناميّتهم ومعارفهم وكل ما يتوفّرون عليه من إمكانات وقدرات ومن مهارات على صعيد التصور والتخيل والإبداع.

لقد تشربت مواجده وارتوى فؤاده وضميره من معين النهج النبوي وملحقاته من مآثر السلف الصالح، زيادة على ما نهل من تعاليم القرآن وضوابط الشرع. وكل ذلك حول سيرته ووقائع حياته إلى اجتهاد فقهي حي؛ إذ ساهمت الوجهة المدنية والمنهجية البنائية التي انبرى لها، في ظهور وميلاد فقه العمران والنهضة. فلأول مرة تخرج بيداغوجية الزهد والانقطاع والعكوف في الخلوة، عن نطاق مبدإ رفض الحياة والإشاحة عنها، لتنخرط بكل ما لها من إيمان غيبِيّ وحسّ أخروي، في التعمير وإقامة مشاريع التمدّن والخدمة.. تفعل ذلك تجاوبًا مع قوله

تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(المُؤْمِنُون:١١٥-١١٦)، وقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزَّلْزَلَة:٧-٨).

لقد تصرمت العهود المتلاحقة التي ظلّ فيها قطاعٌ غير سوي من الفكر التزهيدي يشحذ في المسلمين روح الاستقالة، بل ولقد مضت عهود لبث فيها حتى العاملون من رجال الله يؤدّون من جهود الارتفاق والتعمير ما لا يتجاوز حد الضرورة، إذ ظلّت قراءتهم الغروبية للتاريخ (غروب الساعة) تصور لهم دنوّ الأجل الذي ستنتهي فيه الحياة ويتوقف التاريخ.. وبالفعل لقد تسببت رؤيتهم الأزوفية تلك في توقّف التاريخ بالأمّة في القرن الخامس، وإن أكثر ما تحقق من منجزات بعد ذلك القرن في مضمار الحضارة والفتوح، إنما كان من أثر الاندفاع الذي استمر -وبتراجع طبعًا- يفعل فعله التحريكي حينا بعد تعطل المحركات عن العمل.

لكن منهج كولن يعمل اليوم -وبإصرار لا هوادة فيه- على إعادة ضبط عقارب الساعة على التوقيت العصري، وإنه لَيشقُّ بالفئات طريق التعمير، وبما أنه طريق مستجدّ، فإن كل إنجاز يتمّ على صعيد التنمية والبناء، إنما هو اجتهاد فقهي تعميري، ذلك لأن فلسفة الخدمة -عند كولن- أدمجت التعمير في العبادة، وعادت بالرؤية المدَنية إلى صميم روح القرآن، إذ القرآن، وفي أبرز آية من آياته البينات، وأكثرها ترددا وتداولية، قد قرن الإيمان مع العمل، نقصد اللازمة القرآنية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، بل إن القرآن في سورة الماعون مثلا، -بل وفي ما سواها من مواطن قرآنية عدة- قد قدّم الجانب الاجتماعي على الجانب التعبّدي،

فجاء التنبيه إلى رعاية حقّ اليتيم والمسكين سابقا في متن السورة على التنبيه إلى رعاية حق الله.

الفقه التمويلي

الخدمة التي أرسى بنيانها الأستاذ كولن، نَجحت في التحوّل بزكاة مجتمع التكفف (اقتصاد التقشف والتقلل التي سادت عصر الانحطاط) إلى زكاة التساهم والتثمير التمولي المنتج والفائض عن الكفاية.. وهذه الزكاة التثميرية هي امتداد للمردود الخراجي الذي كانت تغله الدولة المسلمة قديما من المستثمرات الزراعية، إلا أن مداخيل الخراج ظلت -في الأغلب- موجّهة إلى تسديد نفقات القصر والعسكر. أما زكاة الخدمة -في فلسفة كولن- فقد تطوّرت بالتمويل إلى مستوى استثماري نوعي ولّده الاجتهاد والترقّي في الرؤية التدبيرية للشأن الاقتصادي، وأتاحه التوسع في قراءة مقررات الشريعة ومفروضاتها حسب الضرورة العصرية.

إن نظام التمويل الخدمي هو ارتفاق هيكلي فعّال ومحايث للمرحلة والعصر، ويشكّل وثبة تعَزَّز بها دورُ التكافل الجماعي، بل ومكَّنَ من الارتفاع بهذا التكافل من وظيفته الإحسانية التي كانت في ما مضى تؤدّي واجبا خيْريًّا استنقاذيًّا، آنيًّا، بسدّ شيء من حاجة الأفراد والأسر المحاويج، إلى وظيفة خدمية، ذات مردودية نمائيّة ملْموسة، وإضفاء طابع المؤسّسة عليه (التمويل)، ضمانا للنجاعة والتوسّع؛ إذ المؤسسة تكتسب صفة الحياة والاستمرار بفضل مخطط ونظام الأداء المنضبط الذي تتبعه، والذي هو -في الحقيقة- تقنين إذ شئنا أن نعيّن له موقعا في المنظومة التشريعية، فحتْما سندرجه في فقه الخدمة.. لأن إنشاء مشاريع العمل

والاستثمار، وإدامة سير الخدمة وأوجه الإدارة والتكييف، والتحكّم في مستويات الإنفاق والتمويل والموازنات، هي الإطار التقنيني والتنظيمي الوضعي الذي يضمن سلامة الأداء ويحفظ المستثمرة من الوقوع في الاختلالات. وذلك بفضل فقه الضبطية، لأن ماهية الفقه في المدنية الإسلامية لم تقتصر على المجال التعبّدي فحسب، وإن مدوّنة قواعد المراقبة والمرجوعية المعيارية التي مارس بها المحتسب في الحضارة الإسلامية دوره، كانت مدوّنة فقهية من استنباط الفقهاء.

من هنا نسجّل هذا تباشير النماء الحاصل اليوم في فكر التشريع، وعلى يد المدرسة التي أسّسها كُولن، إذ بفقه الخدمة يحقق الفكر الشرعي وثبة نوعية في مجال توسيع الاجتهاد وتغطية أرضية التمدّن والنهضة والتطور بالمعادل التشريعي الاجتهادي.

إن تجديدات الخدمة التجهيزية والارتفاقية والمدنية زيادة على طابعها التحولي الفعلي، هي أدخل في مطلب تحقيق المميزة. ولا بدّ أن نلتفت إلى سورة الكافرون، وإلى الجدار الذي أقامته بين المسلم وغير المسلم؛ فهي سورة الـ"لا اندماج" ليس في باب العقيدة فحسب، ولكن في باب المثاقفة السلبية عامة. وإنه لبيِّن أن الأمّة التي لا تخطو بجدّ في حقل التمدّن والتصنيع وتحقيق الكفاية، لن تستطيع أن تحقّق التطابق مع هذا الإلزام الذي نادت به السورة. من هنا يتوجّب علينا المضي، وبكل عزم وتثبّت، تحصيلا للقوامة التي نغدو بها في مستوى ما توجبه علينا تعاليم كتابنا التي هيّأتنا لأنْ نكون محلّ احترامٍ وإلْهام وريادة وخير وإحسان للعالمين.

الفصل الثالث
تجربة الخدمة..
لبنة على طريق نهضتنا المعاصرة

- ونحن نبني حضارتنا
- العولمة والعولمة المضادة
- المآل المشؤوم
- كيف يقرأ كولن الأحداث؟
- دعوة كولن... عوائق وحقائق
- حراء الرمز
- إعادة تركيب كيان الأمة
- نظرة كولن إلى الحضارة
- بداية الدعوة وتكوين الإنسان الفاعل
- المدرسة، الإنسان، الحضارة
- النهضة بين المدرسة الكسيحة والمدرسة الناجزة
- أهم ما تسعى إليه المدرسة الناجحة
- البيئة والبناء
- الكلمة المفتاحية

بسقوط جدار برلين دخلت الإنسانية في طور تاريخي وحضاري فارق؛ قلة هي الدول التي أدركت يومها ذلك التحول النوعي الحاسم. وفيما كانت بعض بلداننا العربية تستشعر أن الغطاء سقط من على رأسها فجأة بسقوط الاتحاد السوفيتي، كانت دول أخرى ترى أنها انتهت إلى المرحلة التي فقدت معها ما كان لها من قُرب عند المعسكر الغربي، المعسكر الغالب.

القطبية آذنت الناس بهيمنة الرأسمالية على العالم مطلقًا، والتحالفات فقدت معناها، بات فتح الحدود في وجه بضاعة وفكر وإملاءات السيد الجديد هي وحدها الطريقة التي تكفل كسب ودّه.

كانت دولنا في تلك الأثناء كمملكة النمل حين يداهمها المحراث في تربة الحقل، بل لقد كانت أشبه بالحريم ساعة ينتهي إليهن نعي معيلهن، فهن شائشات بائسات يبحثن عن بعل جديد أو خادن، يسد مسد السيد الهالك.

يومها كان كولن يعلن في جموع المصلين من على المنبر، أن فجرًا جديدًا قد وُلد، وأن على العاملين الجادين أن ينطلقوا بلا تردد في الآفاق. فطريق العولمة الذي شرَّعتْهُ تلك الكَسْرةُ المذهلة لن يظل طويلاً مفتوحًا في وجه كل سالك. يومها تداعى الأبطال من كل حدب، وشرَع كلُّ واحدٍ يستخرج ما ادخر ويلقي به في الأرض، وجاء المهندس بشهادته وخبرته، والمقاول بمعاوله وشاحنته العتيقة، وصاحب الورشة بإسهامات عُماله،

وتقدم رب المصنع بعقوده، والتحق الطبيب يحمل سماعةً وحُقَن بنسيلين يَصْحَبُها معه في حقيبته دائمًا للطوارئ، والمعلم المتقاعد والممرّض، والطالب، وخرّيج الجامعة.. كلهم وقفوا في ساحة المسجد يستمعون إلى كولن، وهو يهيب بالعاملين إلى العمل، وكل يكتتب بما في كسْبه.. كان هناك كهل فلاح يحل بيد خشنة حزامه على ما دسَّ فيه من مبلغ، وآخر يستخرج من كمّه حفنة من الليرات، وبعضهم ورقة دولار، وتتابعت أكثر من يد تلقي إلى الكومة بشيك من العملة.. أولئك كانوا عمالاً وأرباب مرافق ومؤسسات عادوا من مواطنهم بالمهجر، فصادف أن سمعوا الدعوة، فلبّوا بلا توانٍ. أولئك كانوا تلاميذ قدامى، أو أتباعًا عرفوا صوت كولن في الأشرطة المهربة، فوضعتهم كلماته على الطريق، والتحقوا بالركب بنية خالصة وتوبة عميقة.

وتقدم كولن فشق بعصاه كومة المال نصفين، ثم بحركة عمودية شقّها ثانية فصارت أربعة أحواز، وتقدم الناس، كل طائفة حملت حوزة، وسارت تضرب في الأرض، وتُيَمِّمُ وجهَها شطْرَ قارة من قارات الأرض.. كانت حركة الخدمة قد انطلقت، بتلك الخطوات البسيطة. كان مشروع بناء الحضارة قد بدأ.

ونحن نبني حضارتنا[1]

حين نقرأ عنوان هذا الكتاب، يلفتنا تصدُّر حرف الواو في العبارة، ويستطيع القارئ أن يتأول للواو محلاً نحويًّا ينسجم مع قصد الخطاب؛ إذ يمكن القول: إنها واو الاستئناف، أو الابتداء، ويمكن القول: إنها واو

[1] عنوان أحد كتب الأستاذ كولن المترجمة إلى اللغة العربية.

الحال، أو أنها للمعية، أو أداة نسق عاطفة.. إلى ما هنالك من إمكانات تحتملها القراءة التقديرية للجملة.. لكنَّ أَوْجَهَ التقديرات -بحسبنا- هو أن الواو في هذا العنوان واو الاستغراق؛ إذ إن النسق هنا يفيد -وبصورة أوضح- المباشرة والانخراط والاسترسال. فالحدث (حدث البناء) قد شُرع فيه، وهو مستمر، يستغرق الفاعلين ويشغلهم، فهم ملتبسون به التباسًا عضويًّا لا فكاك عنه؛ إذ اشتمال الفعل في الجملة على فاعل ظاهر (نحن)، وآخر مضمر في الفعل (نبني)، له إفادة التأكيد والاستغراق والمناجزة.. وربما شاكل هذا الخطابُ آية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾(المؤمنون:٤) من حيث الأداء والإبانة عن معنى الملازمة والاستغراق.

لا شك أن للعنوان بهذه الصيغة مرامي تصريحية جلية، فقد أخذ سمة البيان الإعلامي، واستوعب قيمة العرض والخطبة، حتى لكأن الدلالة الضمنية فيه تقول: ها نحن باشرنا البناء، وإن الجهود لتستغرقنا في إنجاز صرح الحضارة، وها نحن نسير بنفس الاجتهاد والتفوق الذي أنجزناها به من قبل.

ومن المؤكد أن القارئ المتابع لكتابات كولن، يتداعى بسهولة إلى ذهنه عنوان كتاب آخر، صِنْوٌ لهذا وقسيم له في الموضوع، هو (ونحن نبني صرح الروح)؛ إذ الكتابان يلحّان ويلفتان إلى أن هناك انطلاقة تشييد ميمونة قد بدأت، ينهض بها فيالق الخدمة، حاديهم في ذلك الإيمان والاستماتةُ.. انطلاقة تعمير، تستهدف وضع الأسس الروحية والأدبية لنهضة تسترد بها الأمة ما سُلب منها بالأمس من سبق وعز.

العولمة والعولمة المضادة

حين انطلقت القوى والكيانات الدولية، والشركات المتعددة

الجنسيات والقوى الاحتكارية، وراحت تُرسي سلطانها على الأرض تحت عنوان العولمة، انطلقت بالتوازي زُمَر من شباب الخدمة ورجالها الطيبين، يسعون هم أيضًا إلى أن يضعوا أرجلهم على الطريق، ويبدأوا في اغتراس بذور الخدمة عبر الأقطار والأصقاع التي وصلوها كطلائع مسلمة تملك من المال قدرًا ضئيلاً، وخبرتها في التثمير محدودة، ولكن لها طفوح إيماني قوي يجعلهم يتقبلون تحمُّل التحديات، ويعملون على تخطّيها بالصبر والتدبير والاستعانة بالله.

لقد كانوا تعلموا في دروس الوعظ والتوجيه التي داوموا عليها سنوات وسنوات في حلقة أستاذهم كولن ومجالسه وخطبه، أن الأعمال الكبرى في التاريخ بدأت صغيرة، بل بدأت في صورة أفكار، ثم تحولت بالإصرار والعزيمة إلى برامج وخطط ومنشآت حازت موقعها في تاريخ الإنسانية.

كان كولن يدرك أن الرأسمالية التي انفسح لها الطريق عريضًا، ستحمل للمجتمعات مزيدًا من شرور الربا والاحتكار والابتزاز. وكلها أمراض وإن واتاها الظرف الجديد، وساعدها على التوسع والازدهار، فإن ذلك لن يدوم ولن يستمر إلا لبعض الوقت؛ لأن نظم التعامل الجائرة والقائمة على أخلاقيات النهب والاستئثار، مآلها إلى السقوط، وأنه كما سقط النظام الشيوعي لخروجه عن حدود الفطرة، ومخالفته روح المنطق الاجتماعي السوي، لا محالة سيسقط النظام الرأسمالي الذي يرتكز هو أيضًا على طبيعة شرسة تنافي مبادئ العدل والتعاون التي أرساها الله قاعدةً للاجتماع البشري، وشددت عليها رسالات السماء، وهي توجّه الإنسان نحو الجادة القويمة.

المآل المشؤوم

لم يكن منطق الأشياء يحتمل أن تجاري تلك المجموعاتُ العزلاءُ من طلائع شباب الخدمة ترساناتٍ عالمية لها النفوذ والصولة والإمكانات اللامحدودة على التمدد في الأرض، وفي أقطار السماء، لكن كولن، العقل المجهّز لتلك الطلائع الخدمية، والمقحم لهم في الميدان، كان متيقنًا من أنه يقوم بما يقوم به، في إطار فهم نوراني، يؤكد له أن ساعة النهوض قد أزفت، فالقوى الشيوعية التي ظلت سادرة في غلواء تجبرها قد انهدت بلا مقاومة، مُؤْذِنَةً بتحقق وعد الله لعباده المؤمنين المستضعفين بأنه سيورثهم الأرض، بل لقد كان كولن واثقًا من أن المصير الدماري نفسه ستعرفه كل قوة باغية أخرى على وجه الأرض.

طالما كانت خطبه المتنبئة بالمآل المشؤوم للطغاة ممن حادُّوا الله واستهانوا بالروح، تثير السخرية، بل وتسبب له الملاحقات. لقد ظلت معاناته تتزايد؛ نتيجة رفضه أن ينساق في نهج الإنكار.. وكلما أمعنوا في العمل على قهره وتصفيته، أمعن هو في الجهاد والمناضلة، لا تزيده مظاهر التربب إلا قوة وإيمانًا بأن النصر قريب، بل لقد لبث يتوقع أن خراب المعسكرين كان يتسارع ويقترب من أجله باطراد وتصاعد قوتهما الضاربة، وتمادي الأنظمة الأيديولوجية المرتبطة بهما في البغي والعدوان. وكان أمرًا طبيعيًّا أن يقرأ كولن في واقعة سقوط الاتحاد السوفيتي أول نُذُر الله المتحققة، لذا لم يتردد في تجييش ما أمكن أن يحثه من تلاميذ ومحبين، وأن يدفع بهم نحو الآفاق، في اتجاه صنع عولمة من نوع جديد، عولمة لم يكن لها- قطعًا- ما تعتد به، قياسًا إلى عدة وعتاد وسيطرة القوى العالمية التي تنافست فيما بينها على اقتسام الأرض واحتكار السوق، لكن

كولن كان يدرك أنه بتلك الزُّمَر القليلة كان يدشن المسيرة التي طالما حلم بها وحلمت الأجيال المقموعة من أهل الإيمان. كان يعي بامتياز مغزى قصة سباق الأرنب والسلحفاة.

كيف يقرأ كولن الأحداث؟

كان الإيمان بالله أول مصدر يستقرئ به كولن الأحداث، ويقرأ الوقائع، ويفقه حراك المدنيات وتطوراتها..

لقد لبث يستخرج من قصص القرآن ومن سير الأنبياء ومن أسفار التاريخ ما يؤكد له حتمية انهيار إمبراطوريات البغي، لذا لبثت دروسه وخُطبه وبياناته وتوصياته تصبّ في هذا الاتجاه، وترسخ في ضمير الشباب والأحباب عقيدة قرب مجيء الفرج، حتى إذا ما تهاوى جزء من سلطان الأيديولوجية المادية، كانت الفراسة الإيمانية التي يتمتع بها كولن مهيأة لأن تُصدِر التوجيه المناسب في الوقت المناسب، فكان من نتيجة ذلك الإجراء الفذ أن تحولت به أفواج من المؤمنين إلى الآفاق، ينشرون الإيمان، ويبثون الدعوة، ويقدمون الخدمة للعالمين.

لا ريب أن كولن وهو يُقْدِمُ على اتخاذ ذلك القرار، كان يستحضر خطوات الرسول ﷺ وهي تتسلل بين الأعداء الشاهرين سلاحهم، تتحسس طريقها تحت جُنْح الليل، تمضي إلى المَهْجَر؛ لتواجه إمبراطوريات الأرض من روم وفرس وحبش وسند وهند.

وبقدر ما كان كولن يعرف أن عُدته في استشراف المستقبل واستبصار المسار التاريخي للبشرية كانت عُدة يقينية؛ لأنها استمداد من قوانين الله كما رسمتها آيات القرآن العظيم وسنة النبي الكريم، وأنه بذلك كان متيقنًا

من إفلاس وتبدد شمل المدنية المعاصرة التي طالما ردَّد على الناس أنها مدنية انتهت إلى السقف الذي تَوَعَّدَ اللهُ عنه بالعقاب اللازب.. على ذات القدر واليقين كان كولن يؤمن بأهمية الانطلاقة التي أعلن عنها، والحملات التي جهّزها ودفع بها إلى الآفاق.

دعوة كولن... عوائق وحقائق

لقد كان يعرف أن الحركة التي وفَّقه الله إلى استحداثها عشية تلك الانعطافة، والتي بدأ في التجهيز لها على مدى عقود حالكة اشتدت فيها قبضة الطغيان، تُضيقُ الخناقَ على الإيمان، وتحارب رموزَه، كانت حركةً دفَعَ بها الله إلى الوجود ولا رادّ لأمر الله؛ ذلك لأن كولن يعتبر أن خطته الخدمية هي حراك مسترسل في الزمن، وإن خفي عن الأعين، انتهت إليه موجة الدفع المنبعثة من أعماق التاريخ، فأنعشته وبعثت فيه الروح.. تلك الموجة الولود التي حصلت على يد صاحب الرسالة الأشرف ﷺ وصحابته المكرمين، وشاء الله لها أن تستمر في الزمان، تتجدد على يد الأجيال المتلاحقة كلما تهيأت أسباب اليقظة وانتهت إليهم مدود الروح المنبعثة من عهود العز، فينهضون ويستأنفون السير، ويمضون على سبيلٍ يشاء الله أن يوطّده لدينه ولأمته خادمة الإنسانية.

سدّد كولن حيث أخفق الماديون والاستراتيجيون المغترون بأيديولوجياتهم، والعَمُون بقوانين الجدلية والحتمية والتحدي، وبتوهمات دوغمائية ربطوا بها فهمهم للتاريخ، فلم يعودوا معها يلتفتون إلى الأبعاد القدرية التي هي جزء راسخ في ماهية الوجود وحياة البشر وسير الأحداث واسترسال أطوار التاريخ.

لقد ظل كولن متيقنًا من أن حركته الدعوية التي بدأت بسيطة، وغِرَّة، وغير ذات طَوْل، سيترتب عنها النماء المتزايد، والتوسع المتسارع، والبركات المترادفات التي ستغدو بها قوة تنويرية وبنائية تشق طريقها بالدعوة إلى الحقيقة والسلام، وستطال روافدها الخيرية[٢] كل صقع وبقعة من العالم، وستصل إلى الناس كافة.

وحررت العولمة وسائل التواصل البشري والإعلامي وعدَّدت أسبابه، وقرَّبت الشُّقّة بين الأقطار، وساهم ذلك في فتح العيون على ما كانت الأيديولوجيات تُخفيه. فرأى الشقيق شقيقه وعرف موطنه وحدوده، وأحسَّ فجأة بالعاطفة -التي غوَّرتْها عهودُ الطيشِ والتردي- تنبعث في الأعماق وتشدّ النسب (الروحي) إلى نسبه، واللُّحمة إلى لُحمتها، وحلت بالديار العربية والإسلامية الأفواج الأولى من رجال الخدمة، وانطلقت حركة تعمير يديرها عمَلةٌ ومسيرون آتون من ديار الآسِتانة، والتقاهم الناس في الورشات وأماكن العمل، وتعرفوا عليهم في المساجد والبيوت، وانعقدت شراكات اقتصادية وتجارية ساهمت في الانتعاشة، وفُتحت مدارس ومؤسسات تعليم سرعان ما عرفت التزاحم على أبوابها، وطابت نفوس شباب أتراك ممن نزلوا عمالاً ومتدربين (على الخدمة)، ولمسوا الطبع المشترك والأخلاق المتقاسمة مع من حلوا بينهم من إخوة الدين والملة، فانفتحوا على البيئة وتعددت القرانات.. طور آخر تتجدد به حياة مشتركة عاشها العرب والأتراك قرونًا متلاحقة تحت راية واحدة يسدون الثغور حماية للبيضة والشرف.

---

[٢] ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عِمْرَان:١١٠).

لم ير أولياء الأمر عقليةَ الإجرام وثقافةَ المافيا تنتقل مع هذه الأفواج التركية إلى الوطن، ولا رأوا تصعيدًا لموجة فتح مقاصف ومرافق سياحة تفيض على المجتمع بمبيعاتها من الخمر، وبأخلاقها من الخلاعة والتردي المعنوي.. وبدل من ذلك رأوا رجالاً يستغرقهم العمل، وأخلاقًا تسمها العفة، بل رأوا حركة ثقافية تجارية مرشَّدة تتزايد، وأواصر إخاء تنعقد، ووشائج قربي تتوطد.

الطرق التي فتحتها الأنظمة تجاه تركيا، والمواصلات النشطة معها، والتسهيلات التي باتت تتيح للآلاف من الشباب والرجال والنساء أن يزوروا تركيا، بل وأن ينزلوها مسترزقين من تجارة الشنطة، لم تُشعْ في المجتمع ما أُمِل لها أن تشيعه من أخلاق لادينية، وتحرر متغرب، وميوعة متسفلة، وإنما رأوها تنقل إلى الناس سلوكًا يجسّد الهمة في العمل، ومعاني الكفاح، وحسن التصرف، والاعتماد على النفس، وهي قيم تفتح أمام الفرد والجماعة باب التقويم البنّاء، والنقد الذكي، والوعي بحقيقة الانغلاق الاقتصادي والتجاري والسياسي الذي عليه المجتمع والوطن.

كانت تلك الجموع من المواطنين العرب الذين يزورون تركيا يلمسون حقيقة التغيير والنهضة والاعتداد بالنفس الذي يسود بلاد الأناضول، وهي أحوال بقدر ما تُبهِج الأفئدة، تثير الحسرة والتوجع لغيابها في أوطانهم.

ولم يَفُتْهم أن يدركوا أن السياسة في تلك البلاد كانت تصنع كل يوم إنجازًا، وكان يديرها أحزاب منتخبة، وكان الإسلام من خلال رموز الدعوة والإصلاح يتصدر الحراك الاجتماعي، وكان الساسة المسلمون يحققون كل حين من النجاحات والرهانات ما تخجل به القوى المتغربة التي طالما عَزَتْ إلى العنصر المسلم العجز والتخلف، بل وطفقت ترميه

بالتحجر ومعاداة المدنية.

هكذا جاءت النتائج المترتبة على خطة ربط الصلة مع تركيا، فبدل أن تكون تلك الصلة مددًا يدحر روح التطلع والتدين والشعور بالذاتية، راحت تلك الصلة تقوّي سجايا الأصالة والعمل والتثمير.

لا ريب أن دارس التاريخ في المستقبل سيسجل تأثيرًا ملموسًا ليقظة الأتراك الراهنة على الأمة العربية، تلك اليقظة التي أسَّس لها الفكر الإسلامي المعاصر، لاسيما فكر النورسي وكولن، ونشّطها أتباعهما، ونقلوها حية في صورة فكر ومشاريع خدمة وإنتاج وتثمير.

ومن المؤكد أن نهضة تركيا الراهنة تجد في سياسة التقارب مع العرب والمسلمين نفس الفوائد التي يجدها كل شعب جراء انفتاحه على بقية أشقائه من شعوب الأمة؛ إذ إن الأتراك من خلال دعم التقارب مع الأمة العربية والإسلامية يعملون على توجيه المسيرة في اتجاه يعاكس ما ظلت موجهة نحوه خلال عقود من التغريب، والسير في أرضية مدنية وتاريخية مضللة.

إن حركة الخدمة، وهي تسعى لأن تمد لها فروعًا في بلاد المسلمين، (علمًا بأنها حركة دعوية مفتوحة على بلاد العالم) لا تريد أن تستلب الأهواء والضمائر، ولا أن تستغوي الفئات والأوساط على نحو ما تفعل الأيديولوجيات حين تراهن على اصطناع أجنحة وتيارات تضمن بها التدخل والتحكم والتأثير في الأوطان.

كلا، إنما هي ترغب في أن تعزّز الوجهة بجعل جذور الشعب التركي تضرب من جديد في تربة البلاد التي ترتبط معها روحيًّا وحضاريًّا، إنه نوع من تهريب المواجد والمشاعر والأحاسيس نحو الحظيرة الأصلية، وإعادة اغتراس الهوية في أرضية الملة، أرضية دار الإسلام. وإن اعتماد

أسلوب التواصل المباشر الذي تتبعه حركة رجال الخدمة يضمن اختزال المراحل؛ ذلك لأن مما يركز عليه كولن في مجال ضمان التوفق والتفوق، هو الإجادة المتناهية في استغلال الزمن، وإن اِحكام اللُّحمة مع المحيط الأصلي يقتضي في عصر السباق المتهيّج، والعولمة العارمة، ضمانَ السبقِ والمسارعة في إرساء الأسس والدعائم على الأرض، وإقامة مشاريع النفع المشترك الملموس، والإفادة التي لا يستغرقها الانتظار والتلبث المجاني، ففي كل توانٍ فرصٌ ضائعة، ومجالاتٌ تُفتَقَدُ.

حراء الرمز

إن تأسيس أول وسيط ثقافي إعلامي باللغة العربية، في تركيا، في زمن العولمة، نقصد مجلة حراء، لَيحمل الكثير من الدلالات، أقلها أنه جاء يعيد الصلة الوجدانية والروحية مع أهم مقومات الأصالة أي لغة القرآن. فمجلة حراء هي مَعْلَمٌ رمزي بكل ما تشير إليه دلالة الرمزية.. واعتماد كولن لهذه الدورية التواصلية، يندرج في خطة الحرص على تفعيل علاقة التقارب والتواشج بين تركيا والأقطار العربية ليس فقط على صعيد المشاريع والمؤسسات ذات الطابع الخدمي والاقتصادي والثقافي، وإنما تقوية ذلك بالداعم المعنوي؛ حيث يلعب العامل الرمزي دور استقطاب وحفز معتبر.

إن استصدار حراء العربية اللسان في تركيا، جاء تتويجًا لمراحل مديدة من النضال والصبر خاضها أبناء الأمة الأصلاء هناك، وبذلوا أعمارهم لأجل كسب النصر في معركة استرداد الهوية الروحية والانتماء الحضاري. لقد أبى التغريبيون إلا أن يجهزوا على الحرف العربي في تركيا، فجاءت اليقظة التي آثرها كُولن لتعيد الأمر إلى نصابه، فكان في إصدار (حراء)

إشارة معبرة وإعلانًا فصيحًا على أن الفجر قد أشرق من جديد.

هناك يحث على التجمع والترابط الأخوي المِلّي تبديه الحركة رؤية كولن؛ لأنها تدرك أن العالم يتقوى باصطناع الانتماءات، فكيف لا تمارس الأمة -ذات الروحية الواحدة، والتاريخ المشترك- حقها في الوحدة كي تواجه مخاطر الابتلاع. إن العولمة هي البالوعة الاقتصادية والثقافية الخطيرة التي تتهدد الضعفاء والمتفرقين، وإن الأمم التي تنخرط في نظام العولمة بلا عُدّة ولا تحصُّن بالقوة، تعرّض ذاتها للانمحاء.

إعادة تركيب كيان الأمة

إن إعادة تركيب كيان الأمة لا يعني بالنسبة للمفكر كولن افتكاك زعامة تغدو بها تركيا على رأس الأقطار والأوطان، كلا إن الغاية هي التمكين للأمة أن تحتمي حين تتجمع في كيان قوي، من دواهي الضياع الذي عانته تركيا وسائر البلاد والإسلامية الأخرى على شرِّ ما عانت أمة من طوائل المحق والتبعية والهوان.

التغريب الذي داهم تركيا نكَّلَ في العمق بالشعور القومي والكرامة الوطنية. لقد تحولت العثمانية نتيجة المخادعات إلى رجل أوروبا المريض، ثم أُطيح بمجدها، ثم أُلحقت تابعًا للأطلسي، ثم حين تفكك المعسكر الشرقي وُضعت على الهامش في قائمة الانتظار.. تلك هي بعض ما يستشعره الإنسان التركي الأصيل حين يسترجع وقائع الثمانين عامًا الأخيرة من تاريخ بلاده، وذلك ما يجعله يُبدِي كل هذه اللهفة على العودة إلى الديار.

لقد خرج بقناعة لا مراء فيها، استمدها من تحليل سديد للمآل الذي

عرفته التحالفات على إثر انتهاء الحرب الباردة، واستمدها أيضًا من تقدير سليم لمتطلبات العولمة، وهي أن المطمح الأيديولوجي لم يعد الغاية التي تراهن عليها الأمم؛ إذ الأيديولوجيات تتبدل وتتفكك ولا تدوم، فهي مجرد نار حصيد، تلتهب ثم تخبو. وإن السياسة الحكيمة هي التي تبني استراتيجيتها على شروط ومقومات ثابتة لا تنال منها التغيرات، ولما كانت الرابطة المتينة والثابتة والمتجددة في كل عهد، هي رابطة الانتماء العضوي، والتجانس الحضاري، والأخوة الروحية التي لا تنفصم، والمؤهلة بالحكمة والتدابير لأن تذود عن الحظيرة والكيان والمصالح المشتركة، كان أمرًا طبيعيًّا أن تمد النهضة التركية الحالية يدها إلى الأشقاء.

فالأتراك بعد أن استعادوا وعيهم المِلّي، باتوا متيقنين من أنه لن يكون لتركيا مستقبل ما لم تتحصن في كيان قومي كبير، وضمن امتداد جيوسياسي بحجم فضاء أقطار الأمة، فهي أضحت قوة اقتصادية يُحسَب لها الحساب، ولكي تكفل الاستمرار لنموها، والدوام لتقدمها، ورواج إنتاجها المتزايد، ولكي تضمن وفرة الاحتياط والمقدرات، لا بد أن تندمج في بنية وفي كينونة عضوية أصلية هي كينونة الأمة الإسلامية.

ولا يغيب عن المتفحص أن ما تدعو إليه تركيا اليوم وتلح عليه، من إقامة قواعد بناء وترابط واندماج ومشاركة، هو مطلب يخدم سائر أقطار الأمة؛ لما يوفره للجميع من أسباب المَنَعة، ومن الإمكانيات المساعدة على النمو والقوة.

وإذا كنا لا نزال نرى عدم الاستجابة لدعوات الوحدة والتشارك، وتقوية عوامل التقارب بين البلاد الإسلامية؛ فذلك لأن النظم المتخلفة لا يخدمها الاندماج.

إن الرؤية التوحيدية التي تلح عليها كتابات كولن، ترمي إلى بث الوعي

في الأوساط المسلمة، والمستنيرة خاصة، وتحسيسها بالمنهج التكاملي الذي يضمن شروط صون الأمة والنهوض بها.

والمؤكد أن تركيا -بحكم سبقها إلى الاستفاقة الراهنة، نتيجة الخبرة التي اكتسبتها من خلال تلاصقها بالغرب جغرافيًّا وتفاعليًّا، وما استفادته من دروس ووعي بفعل الضربات القاسية التي أصابتها وهي تقف على أبواب الغرب تنتظر الاعتراف بعضويتها، وفي ضوء إدراك ما تتيحه العولمة لمن يحسن استغلال الفرص.. إلى ما هنالك من إرث تاريخي ومن جدارة حضارية ترى نفسها في موقع من يبادر إلى التحرك في اتجاه الدعوة إلى الالتجمع ولمِّ الشمل.

إن بيداغوجية التحسيس بالإمكانيات والمكاسب التي ستجنيها الأمة من بناء سياسة التجمع والتحالف والتقاسم المصلحي، تهدف إلى بيان سبل التقوية، والاحتماء بالأسوار المنيعة التي يكفلها تفعيل روابط الانتماء والإخاء، إن اللطمات التي طفق الغرب يوجهها لتركيا ردًّا على طلبها الانضمام إلى حظيرتها، تجد الرد الطبيعي والسديد في التحول بالخيار الانتمائي إلى مجراه الحضاري الأصلي، وإن الإشراقة الإسلامية التي انبلجت في تركيا اليوم والتي ينشّطها رجال الخدمة بإدارة روحية للداعية كولن، لَتعمل باستماتة صادقة في هذا الاتجاه.

نظرة كولن إلى الحضارة

لا يمكن لمفكر معاصر في منزلة كولن، ينتمي إلى مدنية ازدهرت قرونًا، ويعيش أطوارًا وتفاقمات حضارة راهنة، أن ينظر بذات التصور الذي ينظر به إلى الحضارة مفكرٌ آخر ينتسب إلى مدنية العصر الحالي،

ويتابع تحولاتها من داخل صلبها؛ ذلك لأن كولن حتمًا سيجد نفسه -ربما تحت شعور الفداحة والفجيعة- يُقَوِّمُ معنى الحضارة في ضوء ما استقصاه من أسباب وعوامل سقوط حضارته، وما يستقرئ به اليوم واقع الحضارة الراهنة وهي تمضي أمام عينيه كسفينة يقودها ربان غير حكيم.

حدث اندحار الإنسان المسلم عندما انتهى التردي الفكري والقيمي به إلى وضع انحطاطي جرّده من مكاسبه الريادية الكبرى، وأضاع منه المَقَادة، وحوّله إلى مخلوق استسلامي، وهوى به وبحضارته إلى الدرك.

لا ريب أن حَيْدة الإنسان المسلم عن معالم الطريق كما قررها القرآن والشرع، كانت علة ذلك الاندحار.

وتدهورت المدنية المعاصرة، وأسفَّتْ بالإنسان من حيث شاءت أن تعلو به؛ إذ إن قطاعًا معتبرًا من الفكر المعاصر نزغ بالإنسان الغربي نزوغًا منكرًا، بحيث جعل من منطق القوة والاستغلال أساس المسطرة الأخلاقية، والقاعدة التي يبني عليها سياسته ومعاملاته حيال البشرية والكون عامة.

فالإنسان الغربي المعاصر ارتد به منطق الاغترار الأيديولوجي والجموح الفكري إلى مستوى التربُّبِ الذي كانت عليه آلهة يونان، تلك الماهيات الوهمية التي جهّزها الاعتقاد الضال بالقدرة الخارقة، لكنه لم يعصمها من النزوة، فعدمت شرط النزاهة والعلو القدسي، فلذلك طفقت تعيش المأساة مع ذاتها وفي علاقتها بالكون وما يعمره من قوى مضادة (أرباب).

وظلت حال الإنسان الغربي -على مدار مسافة طويلة من الزمن المعاصر- هي حال آلهة أسلافه اليونان قديمًا؛ إذ تجبَّر واستعلى، واجتهد ليكون على كل شيء قديرًا، لكنه رغم المكاسب ظل يتصرف بسلوك الآدمي المتوحش، وبطيشه.

وعلى العكس من ذلك فقد استنام الإنسان المسلم لعوامل فكرية وثقافية وروحية محبِطة، قعدت به عن إتمام مقاصد الإسلام في نشر رسالته إلى العالمين، فنكَّس همته وأذعن للامتهان، وانحدرت به المكانة إلى مستوى لا تقر به إلا عين الأعداء.

ومن الطبيعي أن الحضارة التي تستند إلى هذين النموذجين: نموذج الإنسان (المتأله)، ونموذج الإنسان (المستسلم)، هي حضارة انحدارية، مآلهما الانهيار. ولذا وجدنا كولن وهو يترسم صورة البناء الحضاري المأمول، يموقع الإنسان -بوصفه ارتكازًا مبدئيًا لا مناص منه- في قلب أي تخطيط، ويُحِلُّهُ في صميم أي تأسيس جديد لحضارة مبرأة من استسلامية الزمن الماضي، ومن جبروتية حضارة الراهن.

إنه يضع الإنسان في المكان الذي وضعه فيه الإسلام، أي أعاده إلى مكانة الاستخلاف. من هنا رأينا كولن وهو يُنَظِّرُ لبناء الحضارة، ينيط المهمة والآمال بالإنسان القرآني، المقِرّ لله بالعبودية، المؤمن بأنه إنما وُجد ليكون خليفة ربِّه في الأرض، المعترِف بأن أساس استحقاق ذلك الاعتماد، هو الموثق والتعاقد على الإيمان بالله، والعبودية له وحده.

لا بد للإنسان القرآني المرشح لبعث الحضارة، أو إعادة تأسيسها من جديد، أن يتحرك على هدى ثلاثة شروط مبدئية: الإيمان والهدف والزمن، هذا القانون الذي يضعه كولن أساسًا لبناء المدنية السوية التي تتخطى بالبشر المزالق الكبرى والإعضالات الجمة التي يواجهها العالم اليوم حتى وهو يعيش ازدهارًا باهرًا بلغته حضارة التكنولوجيا والتطور التجهيزي والفتوحات العلمية التي تتصاعد نتائجها في مجالات الحياة المختلفة.

وإذا كان كولن قد جعل الإيمان صدارةً لشروط النهضة؛ فذلك لأنه

يدرك أن البيئات والمجتمعات لا تعاني من نقص على مستوى وفرة العنصر البشري، فالتطور الصحي اليوم كفل الاحتياط، بل الكثافات السكانية التي باتت ظاهرة كونية شبه عامة في المجتمعات. إنما الذي ينقص هو الفاعلية الإيمانية الأصيلة، من هنا اقتضى الأمر على كل تخطيط أن يضع في طليعة اهتماماته مطلب توفير العنصر البشري المشبّع بالإيمان.

وإذا كان الإيمان في بداية أمره هو ميل، ثم تعلّق، فلا ريب أن الأيديولوجيات لها هي كذلك استقطاب يتحول بالبروباغوندا إلى إيمان، لكن الإيمان الذي يقصد إليه كولن، نوعي، يتجاوز عاطفة المذهبيات؛ إذ أثبتت السيكولوجية الأيديولوجية أن المشاعر الجيّاشة في ظل الأنظمة الشمولية لا تكاد تتجدد، وأن الرهانات الأيديولوجية تتطلع حتمًا إلى الجزاء الملموس، فلذلك هي عرضة للإحباط، بل والانهيار عند مواجهة القصور أو الخيبة.

إنما الإيمان الديني، الحق، هو الذي يتأهل للتجنيد والتجييش المستمر، وينتزع التهليل سواء في حالة الفوز أو الانكسار. فالبشر وإن تأهلوا سيكولوجيًا لأن ينخرطوا بقلوبهم في رهانات دنيوية إلى أبعد حد، وأن يبذلوا التضحيات من أجل كسبها، إلا أن الدافعية لديهم تتغير حتمًا في مرحلة من المراحل، وتتراجع الصفوف، وتتناقص الحشود بتناقص فيض الحماسة أو افتقاد المُحرِّضات والجزاءات، وهذا ما يؤول بالأيديولوجيات عادة إلى الفشل والانهيار.

عكس ما يكون عليه الأمر حين يكون الحافز والدافع هو الدين السامي، فإن إرادة الاستمرار وراء الأهداف السامية تظل حية، وحتى إن عرض لها ما يعطلها أو يقلل من سرعتها. فالمقاصد العليا لا تموت في النفوس،

ومن المؤكد أن كثيرًا من مُثُل الأيديولوجية وشعاراتها حين تُرَاجَع وتُقوَّم بالعقل السليم، يحملنا تَبَيُّنُ انحرافِها الموضوعي ومجافاتها للطبيعة الإنسانية، على الخجل، عكس الحال مع الدين القويم؛ إذ تظل مثاليته ورفعة مبادئه وسمو شعاراته، ثابتة متألقة بوهج قدسيتها في الأرواح، ولا تنتكس إلا النفوس الخسيسة أو المهينة عن إكبار الكمالات، وإن اعتزازنا بالشهداء مثلاً، آتٍ من هذه العلاقة التي تجعلنا نعظّم مَن ماتوا في سبيل المُثُل العظيمة، بغض النظر عن تحقق الأهداف أو بقائها في حالة انتظار، وبهذه الرابطة الإعلائية الثابتة التي تربط الإنسان بالمثل القدسية نرى روحية الدين تتجدد مع الأجيال، وذلك هو بالضبط ما يجعل منه المحرك الذي لا يتوقف عن توليد الطاقة، وضمان سيولتها.

من هنا تتخوف النظم الدنيوية المعاصرة من انبعاث الإسلام، بل وإنها لمتأكدة من حصول انبعاثه لا محالة؛ لإدراكها أن مكمن قوته قائم في ذاته، ومُتَأَتٍّ من سرّ هذه الصبغة الروحية العضوية التي يسري بها نوره في الأجيال، ومن هذه القدرة التي يمتلكها، والمهيأة على الدوام لتجديد الهمم حتى بعد تكرار الانتكاس؛ إذ يظل الدافع إليها حيًّا لا تختلف المشاعر نحوه من عهد إلى عهد، مهما عراها من البلاء أو الغفلة؛ لأن الروح الإنسانية جُبلت على الانحياز إلى الحق، فهي من جبِلَّتها تلك تسعى إلى تجسيد مظاهر الخير التي هي عنوان على الانصياع الفطري لوازع تعمير الأرض الذي فطرنا الله عليه، وعلى النهوض بمأمورية الشهود على العالمين: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عِمْرَان:١١٠).

هذا النوع من الإيمان العلوي الذي يربط الإنسان بمُثُل السماء، هو

كيمياء النجاحات التي تسعد بها الإنسانية. بالإيمان الديني الحق نبني الإنسان الصالح، المؤهل لأن يتجند في الصف، ويتطوع بما يملك. الإنسان النوعي، القَدَري، الذي خرَّجه القرآن، وصبغ أعماقه بصبغته، هو إنسان الحضارة، الإنسان الذي يراهن على وجوده كولن، وينيط به فتوحات المستقبل الكريم. إن تفعيل الدين، واغتراس روحه في النفوس والبيئات، هو السبيل إلى خلق القوى المؤهلة والمرشحة للعمل والبناء.

بداية الدعوة وتكوين الإنسان الفاعل

تحدثنا سيرة كولن أنه في مطلع شبابه، وبحافز ما كان يسكن فؤاده من تطلع وإحسان، شرع في استقطاب أفراد تلاميذ إلى حلقته التنويرية، يعينهم على دروسهم، ويفتح بالحكمة صدورهم للإيمان. ولقد بدأت التجربة محفوفة بكثير من المشاق، واقتضت أحمالاً من الصبر والروية، ثم مع السنوات بدأت المجاميع تبرز، وتطوّر أسلوب التواصل، وازدادت الحلقات عددًا، ثم شبَّ التلاميذ وصاروا أكفاء، وتحولوا بدورهم إلى وسائط تلْقين ودعوةٍ، ثم نفذت الدعوة إلى الأسر والبيوت وأماكن العمل، وسرت بعد ذلك كما يسري الماء في الأرض، أينما مَرَّ أمرع.

كم كانت طويلة المسافة الزمنية بين جلوس أول طفل في حلقة الأستاذ، وبين اكتمال جهوزية الطوابير من رجال الخدمة، وخروجهم إلى الأرض، وانتشارهم في الآفاق يضعون بكل حزم وتؤدة وصبر أسسًا لحضارة الغد السعيد.

لا ريب أن كولن وهو يتحدث عن عمر المرجان، وعن زمن التبلُّور، إنما كان يشير إلى شيء مما عاناه في تجربة التواصل تلك التي بدأت

بجلسة عقدها مع تلميذ سار به إلى المسجد؛ ليكون أول المكتتبين، وانتهت جهود الاستقطاب بانتظام حلقة، ثم بأخرى، ثم بحلقات، ثم بذيوع الكلمة الطيبة في الآفاق، وبعد أطوار تكاثرت الجموع، وولدت الخدمة.

في البداية لا بد من البدْء، وقد تكون البداية فكرة يتلقفها ذو حظ من أهل الفاعلية، فيستنبتها ويهيئها للإثمار، أو قد يكون فردًا تسكنه جذوة عشق، فهي لا تني تنقدح في روحه، وتشق به درب التمحيصات، وتتقلب به من طور إلى طور، أشبه بخطوات الأنبياء حين تسوقهم إرادة الله إلى حيث يبعثون.

ومن الفرد يكون الاثنان، ثم الثلاثة، ثم الجماعة، ويد الله أبدًا مع الجماعة.

الطليعة المؤمنة تمارس جهدها في زرع المحيط بالقيم المُؤهِّبة والأخلاق المُعِدّة للصلاح. تبدأ المستصلحات محدودة، ثم بتكاثرها يتزايد التواصل بين مفارزِها، ويغدو التواصل تفاعلاً عاموديًّا في الاتجاهين، من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى،[٣] ثم تتهيأ عوامل التأسيس وإقامة مشاريع الإثمار، فتصير الحركة التنويرية حراكًا للتخطيط والتعمير والتصنيع وعرض الخدمات، الأمر الذي يخلق مجتمع النماء والبركة والاستقطاب والخيرية؛[٤] إذ كل تحسن يطرأ على أحوال الأمة، ينعكس بالإيجاب على نظرة بني البشر إلى الدين الإسلامي.

المدرسة، الإنسان، الحضارة

اعتدنا أن نرى آراء أهل الفكر والسياسة تنيط -ببساطة وآلية- مهمة بناء المستقبل إلى المدرسة، وتقرنه بها. ومن المؤكد أن اطراد هذه الرؤية

---

[٣] راجع عموم هذه الأفكار في كتاب الأستاذ "ونحن نبني حضارتنا".

[٤] مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عِمْرَان:١١٠).

بهذا الشكل السطحي، ينمُّ عن روح التملص من عبء وضع التمثل، وإبراز الكيفية التي تجعل من المدرسة -فعلاً- أداة البناء.

والحال أن الأمة الإسلامية قد مضى على ما اصطُلح على نهضتها أزيد من القرنين، حققت خلال ذلك مكاسب في التعليم والتمدرس، لكنها ها هي ما زالت تستورد كل حاجاتها، وما زالت متموقعة في القاع، على الرغم من حضور المدرسة في الحياة الاجتماعية بشكل ملموس.

لقد خرجت بلاد كثيرة من التخلف، ولم يستغرق رهانها على النهضة سوى بضعة عقود على الأكثر.. فنهضة اليابان مثلاً، التي سبقتها بعض بلادنا الإسلامية بالانخراط في الحراك البنائي، قد تكرست منذ مراحل؛ بحيث باتت اليوم قوة كبرى لا تُضاهَى، ومثلها كانت ألمانيا التي انبعثت بعد دمار حربي غير مسبوق.. إلى منظومة من الدول المتلاحقة على خط الوصول، وبعضها ينتمي إلى دار الإسلام مثل ماليزيا وإندونيسيا، ممن انتفضت على التخلف، ووقفت على قدميها، وباتت اليوم يُشار إليها بالبنان. فما السر في تخلصها من التخلف، وبقائنا نحن راسفين فيه، رغم أخذنا نحن أيضًا بالتعليم ونظام التمدرس؟ لا ريب أن النهضة منوطة بالتعليم الفاعل والمدرسة الناجحة. لكن هل كل مدرسة هي وسيلة للنهضة؟

لا تتحقق النهضات -بحسب كولن- إلا في خضم عارم من التوتر والعنفوان الذي يجعل الطاقات تتسابق على البذل، والجهود تتنافس في إجادة الإسهام، والقدرات تتضافر في الابتكار والإبداع.

فالنهضة الأصيلة هي تشكيل عمراني وتثمير مدني نوعي، يقتضي -حتمًا- دافعيات ثابتة وهِممًا متجددة وعزائم استثنائية تُهيِّئ لميلاد الطفرة، وترافق مراحل تَحَقُّقها واسترسال نمائها بلا كلل، وتجتاز بالمجتمع إلى

صعيد وطيد، تلازمه فيه اليقظة، وتنتفي عوامل الغفلة حتى لا تتكرر عاديةُ انطفاء النور وانطباق الحلكة من جديد على الحياة.

والنهضة تحَوُّلٌ باهر في الأحوال وفي الوتائر، فالاشتحان الذي يلازم المخاض ينبغي أن يشمل كافة نُظم الحياة ومرافقها.. وإلا اختلّت الانطلاقة وتعثرت، وربما تفاقمت الأوضاع القائمة بأكثر مما كانت عليه من هشاشة ووهن.

والنظام التعليمي في طليعة المُفعلات التي يجب أن يستهدفها الضبط والتعبئة تمهيدًا للوثبة المأمولة؛ إذ لا يمكن أن نتوقع من مؤسسات تدأب على نظام تعليمي متخلف، أن تجهّز وتمدّ المجتمع بالدفعات القادرة على التحول به إلى الأحسن، والأفضل.

النظم التي تُواتي القفزات التاريخية، وتستجيب لرهانات النهضة نُظمٌ يميزها التجدد الروحي، والغنى العلمي، والرشد المنهجي الذي يولد في الجيل حرارة الشوق إلى العمل الارتقائي الشامل، ويعبئهم بإرادة التطور الجذري، من هنا كان التعويل على النظم والآليات والقنوات التي لا تحركها روحية التوثب والاستبسال، مجرد لغو، ولا طائل من ورائها.

النهضة بين المدرسة الكسيحة والمدرسة الناجزة

إن المدرسة الكسيحة في نظامها التربوي، والمهلهلة في برنامجها التعليمي ومنهاجها المعرفي، لن يزيد دورها في أحسن الأحوال، على توطيد الرتابة، وتكريس الآلية، والمُضِي في ضخّ نفس النوعية من المتخرجين الذين يتهيأون في مناخ راكد يورثهم نفس الاعتلالات التي تسود الواقع الاجتماعي والمدني من حولهم.

إنما المدرسة الناجزة هي التي تُحدِث في ذاتها وفي ميكنزماتها وارتفاقاتها، الثورة، كي تستطيع أن تخرّج الإنسان الفعَّال.

المدرسة المحقِّقة للفلاح والنجاعة هي التي تستوجب أن نستصلحها أولاً، قبل أن نطمع في تحصيل المردودية الصالحة من الأجيال على يدها.

على عكس ما تواترت عليه التنويهات بالمدرسة، رأينا كولن يكشف أن إناطة صناعة المستقبل بالمدرسة من غير توفير لمنظومة التحسينات والمستلزمات المختلفة، رهان غير مضمون.

المدرسة وحدها -بالنمط التنظيمي الراهن- لا تقدر على المضي بالمتخرج إلى صعيد العطاء، فعلى الرغم من أنها الخلية العمومية الأولى للتكوين، إلا أنها تظل قاصرة عن منحنا النموذج الإنساني الذي يتوفر على مقومات البناء الكامل بمجرد اكتفائه بما حصَّله فيها من معرفة، فـ"من العسير جدًّا عليها، بل من المُحال أن نستدل على أنموذج واحد أنجزته المدرسة وحدها"[٥]؛ إذًا لا بد من متممات للمقدار المعرفي المتحصل عليه تحت سقفها؛ حتى يستوي النصاب، ويستكمل الناشئ تأهيله.

لا ريب أن إسهام المدرسة التقليدية المعاصرة يظل نظريًّا وافتراضيًّا ما لم تكن البيئة التي يتحرك فيها المتمدرس بيئة سليمة من الآفات، ومنسجمة مع قيم أصالتها. فالزاد الذي توفّره ثقافة المجتمع ينمي بشكل عملي، وفوري، بل وقبلي، ما تلقنه المدرسة للأجيال.

وحين تتشبع المدرسة وتتجاوب مع قيمٍ تُمَجِّدُها الأسرةُ، ويقدسها المجتمع، وتحتفي بها رزنامة المواسم والمناسبات، وتتجسد من خلالها

[٥] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢٧.

العزة الجمعية، ويتعصب لها الضمير القومي والملّي، عند ذاك يتوطد التناغم بين الفرد ومحيطه، وتتغذى المناهج التعليمية بما تسترفده من قيم البيئة، وبالمقابل تتخصب البيئة بمظاهر الشحذ والتطوير الذي تُفَعّلُها به روافد التكوين، بما فيها الرافد الإعلامي بمختلف وسائطه، وبكل الخطورة التي يمثلها؛ إن هو سار في اتجاه الهدم والتمييع.

إن التعويل على المدرسة وحدها في صنع إنسان المستقبل كما هو الاعتقاد السائد حاليًا، ليؤكد السذاجة وسوء التبصر، ولقد آن لنا "أن نتقبل المدرسة بواقعها وحقيقتها، ولا نأمل منها إلا ما يمكن أن تمنحنا إياه.. إن تعليق الآمال كلها بالمدرسة منطلق مبالغ فيه وتفكير سطحي وبسيط"[٦].

من هنا يتوجب إعادة التفكير في المناهج التربوية، وقبل ذلك وبعده ينبغي إيجاد المعلم المهيأ الذي تظهر جدارته في نتائج التفوق التي تُسفِر عنها جهوده كل سنة، وفي النجابة التي يشحن بها تلاميذه، وفي روح الإيمان التي يتشربونها منه باستعذاب واستلذاذ.

في هذا الإطار تقترح منهجية كولن النموذج المدرسي المثمر، من خلال اعتماد منظومة المدارس العصرية التي زرعتها في تركيا، وعممتها بعد أن أثبتت تفوقها وانتزعت الاعتراف من المجتمع قبل أن تنتزعه من الدولة.

وإن حركة افتتاح المدارس التي يمضي بها رجال الخدمة قُدُمًا داخل تركيا وخارجها، لتندرج ضمن رؤية تستهدف تكوين فصائل من المتفوقين، وتخريج شتائل من الناجحين، سيكونون -حتمًا- خميرة يفيدون مجتمعاتهم، وستنتعش بهم الحياة والمدنية في بيئاتهم.

---

[٦] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢٧.

ثم إن المدرسة بالمواصفات العملية التي يقترحها كولن تغدو إلى جانب وظيفتها التكوينية الأساسية، وسيطًا مُهمًّا ضمن وسائط التحسيس، وبذر اليقظة والوعي بضرورة الترابط الملي والإنساني.

إن من المقاصد العليا للتعليم في فلسفة كولن: النهوض بعملية توليف وتقريب المواجد بين المسلمين؛ إذ إن مقوم الدين والرابطة التاريخية المشتركة يستلزمان دمج نظُم التربية والتعليم في إطار التوجه الاستقطابي بين أقطار الأمة، وهذا من خلال توظيف المقاربة البيداغوجية والتربوية المتجانسة في مشروع الخدمة، الأمر الذي سيقوي من تحقيق انعقاد اللُّحمة الإسلامية على أكثر من صعيد، وفي ذلك ما فيه من قوة وعز للمسلمين.

ومن المؤكد أن التعليم المدرسي بمنحاه العصري الذي أثّرت في محتوياته الروحُ اللائكية النافذة عالميًّا في المناهج المعرفية، قد أتى على جوهر الروحية الفطرية التي تربط الفرد بأصالته. فلقد استطاعت المدرسة العصرية (مضافًا إليها الإعلام بأنواعه) أن تزحزح النفوس عن بيئتها المعنوية، وأن تجعلها تتكيف مع ثقافة متسللة وطارئة على حياتنا الإسلامية.. ثقافة لا ترعى الحرمة، ولا تعبأ بالدين، الأمر الذي أوجد هذا الإنسان المسلم المعاصر الذي تطبَّع دون شعور منه على روح مجافاة القيم الأصلية، مع ما رافق ذلك من غلظة شعورية ونضوب عاطفي استرخت به لُحمة الأسرة والروابط الجماعية العتيقة.

إن بيداغوجية البناء والنجاعة التي يشدد عليها كولن، هي التي تحرص الحرص كله على تقطير روح الدين الحق وشَهْدِ العقيدة الصدق في نفوس الناشئة، يتلقونها ممزوجة مع ما يتلقونه من مواد التعبئة الثقافية والتمكين المعرفي؛ بحيث يتذوقها الناشئ في صلب القاعدة النحوية،

وفي العملية الرياضية، والدرس التحليلي، والمحاضرة الاقتصادية، وفي الأمثلة المَسُوقة، والاستنتاجات المستخلَصة.. فبذلك يتولد في الأعماق عشق الحقيقة، وحب العلم، والإخلاص إلى الحياة التي تضحى جزءًا من كونٍ مفتوح على الآخرة، ومشروط بعقيدة التقوى والاحتساب الغيبي.

أهم ما تسعى إليه المدرسة الناجحة

وتظل الناحية العقلية من أهم ما تسدد نحوه المدرسة الناجحة؛ إذ تركز على تعبئة القلب بالمخصبات العشقية وبالمواجد، وتأهيب الذهن، وشحذ الملَكات، وتنمية روح التفكير والنقد والاختراع، فبذلك يكون الفرد بما أحرزه من تجلية ذهنية في المدرسة وفي مؤسسات التكوين، إضافة نوعية، ومددًا مفعمًا بالحيوية، تغتني بها الحياة. إن ترويض وتنشئة الجيل على التفكير المنتج القائم على تعويدهم ربط أذهانهم بمجال الكون وما يحويه من معان وبينات، هو من أوكد غايات مدرسة كولن: "إن من أجدى الأمور في بناء الجيل الحاضر هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية، وبين حقائق الوجود؛ لتحفيز عزم التفكير المنظم لديهم، وتحبيب الإيمان والتعليم والتمحيص والتفكير إليهم، بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح"[٧].

لا شك أن المتخرج حين يكون قد ترقى عبر مراحل تكوينه الأولى في جو بيداغوجي وعلمي وروحي متكامل، سيكون على درجة من التأهل والتوازن عالية، الأمر الذي يرشحه لأن يندمج في الحياة العملية دون بوار، وسيتحول إلى المجتمع وقد اكتسب صبغة الإنسان الصالح الذي

---

[٧] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٨.

تتوطد به الفضيلة والسماحة والفاعلية.

إن هذه التجربة الناجحة التي تعمل دائرة خدمة كولن على توسيعها، لا تفتأ تُثبِت من سنة إلى سنة، وحيثما حلّت، اقتدارَها على تكوين النشء التكوينَ النوعي، وتهيئ الدفعات النبيهة، والمرشحة لأن تكون بدورها في المستقبل، قاطرة يتكرس بها الأفق المضيء"[٨].

وإن مما يقع على كاهل البيئة الحية التكفل بالخرّيج، والحرص على الاستجابة لما يحمل من كفاءة واستعداد، حتى لا تنهدر الطاقات بددًا كما يحصل في نظمنا التربوية الراهنة.

وما لم توجد المناهج التطبيقية والبرامج الاستثمارية التي تستقبل المتخرّجين، وتتلقف أصحاب التحصيل، وتحولهم إلى عَمَلة وصُناع ورجال إنتاج وتعمير وتطوير، فإن المهمة التربوية تظل بتراء، وبلا سند حقيقي.

إن تقصير المجتمع الأهلي عندنا في الحراك التعميري، يديم ما نراه من نزيف في القدرات، لاسيما على مستوى جموع الدفعات التي تتخرج في كل موسم، والتي لا تزال تتلاحق وتتكدس؛ إذ تجد نفسها أمام الأفق المسدود.

إن من شأن الاستثمار الاقتصادي والثقافي والإنتاجي عامة، أن يفتح الأبواب في وجه الشباب، ويدمجهم في الحياة العملية، وإذا ما هيّأت المشاريع التي توفرها مؤسسات التوظيف ومرافق الاستقبال، مناخًا أخلاقيًّا وتنويريًّا ومدنيًّا يعزّز عملية الإدماج، فلا شك أنها ستساهم في التحول بالمجتمع إلى وجهة الصلاح، وإلى النهج القويم الذي تسوده قيم الخير والطمأنينة.

---

[٨] راجع: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢١-٣٥

البيئة والبناء

إن دور البيئة الصالحة في بناء الشخصية السوية المتشبعة بأصالتها، دور أساس في منظور كولن، بل إنها المدرسة الطبيعية التي لا يفلت من تأثيرها أحد، ولقد "ظلت البيئة مصدر القيم الثقافية في كل الحضارات.. وإن هذه القيم الثقافية التي تسود الحياة الاجتماعية هي البيئة العامة التي تحضن وجدان الأمة، وتمازج تفكيرها، وتغذّيه، وإن علاقة المدرسة بالبيئة علاقة تفاعل عضوي، وبقدر ما تكون المدرسة متوجهة نحو الهدف، ومتسمة بالعمق، تصبح ميناء أو مطارًا أو منطلقًا للأمة؛ بشرط أن تصهر مكتسباتها في بوتقة الثقافة الذاتية"[٩].

إن البناء يولّد المواهب والعبقريات؛ لأنه يساعد على شحذ الاستعدادات الفردية والجماعية،، بل إنه يساعد على اكتشافها، واستنقاذها من الضياع الذي يطبع البيئات المتخلفة: فإن النجاحات الخارقة للعادة، المتحققة أمس واليوم، والتكوينات العالمية الكبرى، مرتبطة -إضافة إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم- بالبناء الاجتماعي المولّد للعبقرية، والوسط المناسب لتنشئة المكتشفين، والبيئة العامة الحاضنة للعبقريات.[١٠] فالدائرة الصالحة أي البيئة الفاعلة هي التي تخلف البيئة الموات، وتصبح أرضية فلح وخصوبة.[١١]

إن المدرسة المتعصرنة اليوم، في حاجة إلى المراجعة الكلية، لاسيما على صعيد البرامج والأهداف؛ إذ ليس لها أهداف محددة، فإن وظيفتها

---

[٩] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢٦-٢٧.

[١٠] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٥.

[١١] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٥.

هي في أحسن الأحوال إزالة الأمية، لكنها بالمقابل، تُورث أمية أخرى؛ إذ تشغل الناشئة -وخاصة المتسربين منهم- عن البدء مبكرًا في تعلّم الحرفة؛ لأنهم يتمدرسون أولاً، ثم حين لا يُوفَّقون يجدون أنفسهم في حاجة إلى بداية تعليم تأهيلي، من خلال تعلم حرفة أو ممارسة عمل ما.. والحال أنه -وكما أسلفنا- حتى المتخرج بشهادة يجد نفسه مضطرًا لأن يبدأ التكوين ميدانيًا.. ولقد زادت الهوة اليوم بين مضامين التعليم الكلاسيكي وبين النظم المعرفية والاستخدامية التي لا تفتأ سبلُها تنفتح باطراد أمام البشرية، نقصد الوسائط الافتراضية، من حاسوب، وإنترنت، ولغات، وعلوم المستقبل، وما إليها.

ولذا بات اليوم تجديد تصوراتنا إزاء المدرسة والتمدرس أمرًا ملحًّا.

وإذا كان إفلاس مؤسساتنا التعليمية في العصر الوسيط قد سبَّب اندحار حضارتنا الإسلامية، فلا شك أن أبرز العوامل التي فاقمت من الوضع التقهقري يومئذ، هو انعدام الرؤية التربوية، وغياب المشروع المستقبلي الذي يُفترض أن يرسمه كل نظام تعليمي بصير.

لقد استمرت منظومة الزوايا والتكايا والمساجد كما يسجل كولن، في مزاولة تعليم اجتراري مقطوع عن الحياة، بلا هدف، وغير معني بتاتًا بحاجة الفرد والأمة، ولا مهتم بما يتراوحها من ترديات، الأمر الذي كرَّس العقم، وسدَّ الأفق، فلا غرابة، والحال تلك، أن نرى الانحدار ينتهي بالأوساط التعليمية في تلك البيئة إلى حدّ راح فيه رجال الترشيد يقصرون مادة التعليم على تحفيظ الأدعية، والقصد هو مواجهة الانسدادات والضوائق بالضراعة وحدها، غافلين عن وصية المولى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾(الأنفال:٦٠).

لقد أشار الأستاذ كولن إلى هذا القصور الفادح الذي كانت عليه المدارس التقليدية في العصر الوسيط، فسجَّل أن مؤسسات الماضي الثقافية والروحية، ممن كانت تربي مهدنسي فكرنا وعُمال روحنا، لم تكن تواجه الحياة بمشاريع تجعل من رهان السيطرة على المستقبل مطمح الأجيال.

والأستاذ كولن يرى أن الفداحة مستمرة معنا؛ إذ حالنا اليوم بالقياس إلى ما تقتضيه منا متطلبات الجهوزية المستقبلية هو حالهم عينه بالنسبة إلى ما ظلوا يفاعلون به واقعهم: غفلة عن المستقبل، وتردٍّ في السلبية.. فنحن لا نزال سادرين في بلادة عن إنتاج رزنامة مشاريع كبرى، شاملة، وحاسمة، نراهن بتنفيذها على طي صفحة التخلف نهائيًّا، وبلوغ مستوى الانعتاق من الانحطاط.[١٢]

الكلمة المفتاحية

في إجابة على تساؤل يطرحه الأستاذ كولن حول كيف يحوّل الإيمانُ الإنسانَ إلى إنسان كامل؟ يجيب قائلا: الكلمة المفتاحية (لا إله إلا الله) بذرة الإيمان، والإيمان هو منبت المشاعر السامية في الأرواح؛ إذ يجعلها تنجذب إلى عشق المعرفة والعلوم التي تتصفى في القلب، وتضحى حسًّا داخليًّا ودوحة باسقة تمتد بأذرعها حول الكيان، وتلفّ الشخصية من كل جهة وجانب، وبذلك تصير سلوكيات الفرد سلوكيات عاشق مشتاق؛ حيث تعمّق فيه العباداتُ اللدنية وازعَ التقوى، وتُقوّي رابطتَه مع السماء، وبذلك يندرج سعيه وإنتاجه وعطاءاته في دائرة الحسنى والمعروف.

ولا تفتأ النية الاحتسابية تتجه بأعماله نحو الله، مدفوعة بما يسميه

---

[١٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢٤.

كولن قوة الجذب المركزي، ويصير الرجحان -في تصرفاته وخدماته ومساعيه- للذوق الناشئ عن تلك السيرة المتعالية عن أنواع الضعف بالعامل الروحي، فتنطبع كل منجزاته بالطابع الجمالي؛ نتيجة كثرة العشق في أعماقه؛ ذلك لأن الروح المرتوية بالإيمان تترك رسمها على الأعمال، لاسيما إذا كانت هذه الأعمال، بحيث ينطبع كل منتَج وكل إنجاز بطابع الدقة والرقة والإتقان، فلكأنه ينتمي إلى عالم الفن والثقافة.

إن المحرك القلبي يوجّه سائر أعمال الفرد المحتسب وتصرفاته، ويضفي عليها غلالة من مشاعر الحب التي تعمر قلبه، ففي كل جهد تكمن نية التقرب إلى الله؛ لأن ما يرفع إلى الله يقتضي أن يكون متناهي الصنعة والأناقة؛ لذلك تتولد الأعمال موسومة بالحسن، جانحة إلى التمام والكمال؛ إذ إن داعي الإيمان يتعالى صوته أنَّى توجه الإنسان القلبي، وحيثما سار سَمِعَهُ يهتف بمعاني الإنسان - الكون - الله التي تتحول في الروح إلى سند معنوي ينعكس على الرؤية والمشاعر والأعمال.[١٣]

إن الفكر الإيماني يستمر في التأثير على الأنشطة الأدبية والعلمية، وسائر ما ينيط به الإنسان القلبي همته؛ لأن هذا التفكير المصهور بالنور الغيبي، سرعان ما يضحى بدوره مصهرًا يقولب كيان الفرد، ويكسبه جِبِلّة شفافة؛ لأنه يأخذ مع الترسخ صورة طبيعة ثانية في الإنسان،[١٤] الأمر الذي يهيئ -بتنامي هذه الطبيعة الثانية في الأفراد والقطاعات والقيادات والمجاميع المرابطة في الورشات والمعامل والمختبرات- استحكام صبغة الفاعلية، ويفتح الطريق واسعًا لبناء الحضارة.

---

[١٣] راجع: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥١.

[١٤] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٢.

الفصل الرابع
فتح الله كولن وفلسفة البناء بلا عنف

- التأسيس للحراك والنهضوي المعاصر
- دور المثقف في النهضة
- إستراتيجية اللاعنف
- اختيار الأطراف ذات القابلية للتحاور

أرسى داعية الإيمان فتح الله كولن أسس الخدمة الدعوية، وفتح آفاقها الحيوية، وأعطاها الطابع النهضوي المناسب لروح العصر، بعد أن خرج من العراك المرير متوّجا بالنصر، حائزا على اعتراف الجماهير، بل واعتراف الخصوم الذين اضطرتهم جلائل الأعمال التي طفقت خدمته تدشنها على مستوى تركيا وأقطار أخرى تركمانية وإسلامية أولا، ثم بما أخذته من أبعاد توسعية عبَرَت إلى بقاع عدة في القارات، وهي لا تزال تتوسع بحركة دينامية ذاتية وضع كولن خطتها، ويرابط يتابعها، بحيث باتت التدشينات تتضاعف بوتيرة مباركة، وتشمل مجال قطاعات التربية والثقافة والإنشاءات الاجتماعية والتجهيزية المختلفة فضلا عن بث الدعوة ونشر السلام.

منهج خدمة فتح الله كولن يُعَدُّ فلسفة انفتحت على اجتهادات بنائية كثيرة؛ إذ التفت كُولَن إلى سجل وطنه مستلهما همة الأسلاف الأفاضل من بني عثمان، آخذا في الاعتبار شتّى المنجزات التي حققوها كاملة أو جزئيّا، وتحسس الأماني التي تاقت إليها الأجيال وطمح إليها الرجال المصلحون، فتبنّاها، وأضاف إليها ما هدته إليه عبقريته التأطيرية من استشرافات وتفتيقات في مجال النهضة.. ثم انبرى يصنع الفجر، وينسج الملحمة من خلال ما أرسى من مجمَّعات تنوير، وما ركّب من مرافق خدمة، وما أقام من شبكات تأثيث متعددة الأداءات، فاسحا الطريق في

وجه الطاقات الخيرية لتباشر عهدا ميمونا من العطاء والإثمار والإحسان.

لقد هيّأ كُولَن الشروط التي تستقطب الأفواج والطوابير من أولي المحظوظية، ليحقّقوا معنى الذات الفاعلة، ويعرفوا كنه الوجود الحق، ويتذوّقوا الشهد الذي تُولّده رهانات الخدمة وينتجه البذل (الجهدي والمالي) في سبيل الله.. لقد شقّ كولن طريقًا سيارا يتسابق فيه أهل اليسار والوسع، فيكتتبون لأنفسهم في سجل الخيرين الذين اختاروا أن يستثمروا في حقل مثمر، فيُقرضوا اللهَ قَرضا حسنا يضاعفه لهم.

أقل ما يسوغ التنويه به إزاء منجزات كُولَن، أنه انتهى بجولة العراك إلى المنتهى الذي استخزت به قوى الشر، حيث ألقت أسلحتها وانجحرت في أشنع مظاهر الاندحار، ناكلة عن المضيّ في المكابرة والمخادعة وتغليط الجماهير بصلاحية سياساتها الضالة.

من طيّ ظلمات الردة والتغريب، بزغ كُولن فتحا دعَويا مبينا، يكفل للجماعات والجماهير المهيّأة للعمل الخدمي والدعوة إلى الله، أن تشق الطريق، وتسدد نحو النهضة التي تولّد المرافق الروحية والمؤسسات الاجتماعية والمجاميع التكوينية والتنويرية التي ينهض صرح الإيمان على أرضيّتها من جديد، ويستأنف مساره نحو العالمية.

القطاعات الواسعة من ذوي الإحسان كان الضلال الأيديولوجي يكبّلهم ويسدّ الطريق في وجوههم أن يسهموا في البناء، بدعوى أن الدين ينافي التقدم، ويوقع الجماهير في التخلف.

الباعث الأبرز الذي جعل الخصوم يُقْصُون أهلَ الإيمان عن الحلبة، هو يقينهم من أن إمكانات المؤمنين لا تجارى، وأهليتهم لا تبارى.. إذ ليس مَن يقف نفسه على طاعة الله ومحبّة رسوله، ويعيش الإيثار والتعفّف

والبذل لأجل مرضاة الله، كمَن يعيش الأثرة والضلال الروحي والعجز والقصور في مجال القيادة والإستراتيجية والسير بالأمة على طريق النهوض.

ها عقود وعقود سلخناها نسير في ركاب المضللين، فإذا بالبلاد خراب، والإفلاس على الأبواب، وأحوال من التصحُّر في القيم والمثل الإنسانية تشمل المجتمع.. قد زايلتنا المكارم التي كانت فيما مضى من العهود عنوان النخوة والكمال، بعد أن حدا بنا حداة سوء، زيّنوا لنا التخلّي عن العقيدة التي كانت أساس تفوّقنا، وعلّة استقطابنا للأمم من حولنا.

أمام ما حقّقته ولا تزال تحققه رؤية كُولن من جلائل الأعمال والفتوحات، انخذلت قوى الضلال، وتصاغرت كثير من الجهات التي طفقت تتوشح بشعارات الإسلام لمقاصد بعيدة عن خدمة الإسلام.

وإنه لمعطيات مبشرة أن ينفسح المجال أمام المسلمين، وتزول كثير من عوائق الكبح التي كرّستها أنظمة متسلطة ائتمرت بأوامر الغرب، وسارت في اتّجاه مضاد للتاريخ وقدسيّة الرسالة التي ائْتَمَنَنَا عليها الإسلام، ولَحمتْنا بها لواحمُ التكوين ووشائج النسب والانتماء العضوي.

يمكن القول إننا اليوم -في وتيرة ثوْرات الربيع العربي[1]- نحيا طفرة الانتقال من وضعية ردّ الفعل والمدافعة من موقع الانحباس تحت طوائل العسف والقهر، إلى رحاب الفعل وممارسة السياسة، بعيدا عن أي عائق إلا عائق الأهلية؛ إذ انعدام الأهلية أو بالأحرى قابلية البناء، هو الخطر الذي يهدّد الرصيد النضالي والمكاسب السياسية المستحصلة بالمعاناة والمجاهدة.

فليس أشنع ولا أسوأ من أن نرى الأجنحة الإسلامية تستلم الراية

[1] التي نأمل أن لا تكون مخيبة.

وقيادة الجماهير في هذه البلاد التي اجتاحتها الثورة الشبابية، ثم لا تلبث أن تنتكس وتخور -لا قدّر الله- وتعجز عن قيادة الجماهير على درب الإيمان والتعمير وبناء النموذج المدَني الكامل والقمين بشد الأنظار إليه.

إن كل إنجاز في مجال المدنية والإيمان يحقّقه المسلمون في مجتمعاتهم، لمن شأنه أن يكتسب قوة الرمز ويتلبَّس صبغة الإشهار العالمي الذي يلفت البشر إلى حقيقة الإسلام. إن العالم بات قرية، وإن أقطارنا الإسلامية هي مجرد حيّ من هذه القرية، وكل تشييد ينجز على صعيد حيّنا، سيستقطب السابلة ويحرك فضولها للتعرف على مكامن الفضل فينا.

التأسيس للحراك والنهضوي المعاصر

لم يفتأ كُولَن منذ النعومة ينحت الصخر، ويشق بأظافره المعابر التي تخرج الأمة من قاع الظلمات الذي أهْوَتْ فيه. واليوم -وقد هيأ كولن الأجنحة، وأنشأ الوسائل، وأرسى المؤسّسات المكلّفة بالخدمة- ها هو يرابط من صومعته، يتابع الزحف، يقود بنفسه معركة التعمير الروحي والمادي المباركة، يوجّه الميمنة والميسرة، ويعزز المقدمة، ويحرك الساقة لدعم القلب، كلما بدت ثغرة أو لاح اختلال.

على نفس الأرض التي حرّرها الفاتح من ليل التخلّف، وعبر بحرها بجيش البناء إلى أعماق أُوربا، رابط كُولَن، وانتصب يحقّق فتوحا في مجال خدمة الإيمان ونشر رسالته إلى العالمين؛ بل هي مسيرة كمسيرة إسكندر أو مسيرة ذِي القَرنَين، تنطلق من ذات الصعيد البرزخي، لكنّها تحمل في هذه الجولة مشعل الخير، لا لتغزو وتحقّق السؤدد الشخصي الزائل، ولكن لتُرسي كلمة الله في القارات، ولترهص لقيام نهضة الإسلام

الحضاري، واستعادته الريادة التي فقَدَها منذ قرون.

بل إنها مسيرة تمضي على نفس خطى أبي أيوب الانصاري وخطى من تلاه من الزاحفين الجبارين، وتيمم براية النور نحو ربوع المعمورة.

كل مقال افتتاحيّ لصحيفة أو نشرة إعلامية خِدمية، وكل محاضرة يلقيها في حلقة المحبّين، وكل فصل في كتاب مرقوم مما لا يفتأ يُصدِره كُولن، هو بيان مشحون بواردات الحال التي عاشها هذا الرباني، وتلقاها في دورة الأيام والأسابيع التي تنقضي عليه وهو في المعتكف.

توْقيتية يوم كولن تسير على وتيرة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾(الانشراح:٧-٨). ولذا هو يوصي العاملين في حقل الخدمة أن ينضبطوا بهذا التوجيه القرآني الذي وزع الأجندة اليومية للمسلم على منوال من العمل والعبادة.

لا عُشّ لهذا الربّاني ولا أهل ولا دار، لأن الانخراط جذري، والمسؤولية فادحة، والرهان مصيري، لا يحتمل أن يكون معه قرين ينازعه الحب والأولوية والأسبقية، ذلك لأن حب الأهل والمتاع غالبا ما يتحول إلى امتحان[٢]، يعيق عن الاستماتة وبذل المُهجة.

لا يزال يُقَطِّر في السطور والكلمات جام ترشُّحات روح تتوزعها تجاذبات التبتّل في مصلى الاستمداد، وجولات الكر على جبهات

[٢] يقول كُولن: "والحقيقة أن الحب الحقيقي يبدأ بهذه الخطوة الأولى. وإذا جئنا إلى مشاعر الحب الفطرية عند الإنسان كحب الإنسان لوالديه وزوجته وماله... الخ، فيجب أن يكون هذا الحب ضمن الإطار الذي أمر به الله تعالى، وإلا ساق الله تعالى عبده إلى امتحانات في الحياة الدنيا بمختلف الوسائل ويؤاخذه عليه، أو يؤخر ذلك إلى يوم القيامة. والخلاصة أن المؤمن هو إنسان متوازن وعليه أن يحفظ هذا التوازن في كل آن ويصونه في وجه جميع رغباته الأخرى وشهواته". (أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:٧٨).

التخلف والقعود.

بروز القائد الرباني في الأمة هو تكرُّمٌ إلهيّ وحظ يتأتى للجماهير، لأن التجنيد وراء الربانيين أهل النعرة، ميمون الطالع، مكفول العاقبة، مثمر النتيجة، وغير محبط في كل الأحوال؛ ذلك لأن الإيمان يجعل الباذلين والمجندين وراءه، يضعون في الحساب -ومن أول الطريق- اليقين من نيل الجزاء البعدي، ويركّزون عليه، وبذلك تسكنهم الطمأنينة إزاء ما بذلوا، إذ يدركون أنهم، حتى في حالة إن فاتهم تحصيل المردودية العملية ومشاهدة إيناع ما غرسوا، فإنّهم واثقون من حصول المثوبة من ربّ كريم. فرهانهم أخرويّ، واحتسابهم لله وحده.

دور المثقف في النهضة

لقد زحف الغرب واحتل الأوطان وأورثنا طبيعة سلبية قطعَتْنا عن إرثنا ونظمنا، وغرست فينا قابلية استنساخ قيمه واحتذائه في عوائده، فأضحت النخب مستلبة، قصاراها أن تسدد في رهاناتها على مقاساته وتوجهاته، يحملها على ذلك الاستنساخ ما تراه عليه من تطور، فيتهيأ لها أنها بذلك التشبُّه السطحي ستحقق النهضة، ناسية أن النظم والثقافات، وإن توسعت من حيث أصداؤها وآثارها وانتشارها، إلا أن اغتراسها لا يكون أصيلا في تربة خارج تربتها الأم. وإن الديمقراطية التي قضى بها الغرب أطوارًا من التفاهم والسلم الداخلي والإنجازات التداولية، نراها اليوم تتكشف هناك في موطنها بالغرب ذاته، عن مطاعن وإعلالات عضوية فادحة؛ إذ إن لعبة الأحزاب في بلاد الغرب لا تَسْلَم من الانسياق لقوى خفية تتمثل في لوبيات تتحكم في حركة المجتمع وتدير لعبة التداول وترجح الكفة

في المقام الأول، ليس في اتجاه ما يصلح أحوال الشعوب، وإنما لصالح تلك اللوبيات ذاتها، لكن بمخادعة تمويهية توهم الشعوب وتصور لها أن السجال الحزبي، هو عنوان الحرية والتنافس النزيه. إن في الديمقراطية حسابات تضبطها وتتحكم فيها قوى المال والإعلام والفن وقوى تجارية شتى.. فهذه القوى العالمية هي التي تصنع الأيديولوجيات، وإن قبضتها في هذا المجال لواضحة.

ستمضي علينا عقود ونحن سادرون في لعبة تعلم ديمقراطية الغرب، حتى إذا حذقناها، وجدنا الغرب في أطوار أخرى، سنحاول أيضا اصطناعها تشبها به، وهكذا، بحيث ستمضي المراحل وهَمُّنا هو تلقّي المدنية والنظم والقيم من الآخر، لا يؤثر فينا ما نراه عليه من ترنح، إذ إن مدنيته الماضية على طريق التحلل من قيم الحق، انتهت إلى مرحلة التراجع، وهو يسعى اليوم إلى أن يجدد من حيويتها، لكن حتمية انطواء الكتاب[٣]، يجعله يعجز، ما لم يغير من روح هذه المدنية نحو الوجهة التي تتصالح فيها مع المثل الإنسانية، وتتخلى عن الرعونة والتربب والضلال.

الأمة المسلمة مطالبة بأن تؤصل نهضة عالمية ثانية[٤]، وترسي لها نظما نابعة من روح شريعتها.. فمبْدأ خشية الله والإيمان به، ركْن مركزي في أي رهان يراد له أن يكون فتحا حقيقيا ينعطف بالإنسانية نحو السعادة المنشودة؛ بل إن خشية الله هي الركيزة التي تستتب بها سائر التوازنات

---

[٣] ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(الرَّعْد:٣٨)

[٤] يقول كولن: "إن عالمنا (...) يمكنه بعد زمن العطل العابر أن يحرك مجددًا كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة". (ونحن نقيم صرح الروح، ص:٣٠).

التي تكفل الخير للإنسانية، وتضمن الكمال والعدل والأخوة لبَني البشر.

لا ريب أن كُولَن يستشرف هذه الآفاق التي باتت مفتوحة حيالنا، والتي نَعْشَى أن نراها نحن الذين ترسَّبَ في أعماقنا اليأسُ من النهوض.. فكُولَن يؤمن بأن الأمّة المحمدية قد حان دورها في الانطلاق، وأن قانون التداول على البناء الحضاري الكوني، قد آذننا تارة أخرى، وهو يحدونا اليوم أكثر من أي وقت مضى، إلى أن ننبري لإقامة النهضة العالمية الثانية.. هذه النهضة التي لا مناص من أن نظل ماسكين بزمامها على الطريق القويم، بحكم الموثق وبالنظر إلى أهلية وعالمية عقيدة الإسلام التي شرّفنا بها، والتي ستظل هي عامل الانبعاثات الحضارية التقويمية على مر العهود والعصور، وستبقى مصدر الوثبات التي نستقل بها القطار كلما عثر بنا القدم، فبفضل هذه العقيدة لن يقعد بنا أي تخلف أو انحطاط -مهما طال- عن الانتفاض وتجديد العزيمة، فنحن أشبه بمن ملك عنصر النار، لن يعدم توليد الطاقة أبدا.

وحتى يدور المحرك ويتسارع الزحف، لا بدّ من أن تتضافر جهود الأمة وتتشابك الأيدي والقلوب وتركز على هدف الانبعاث الذي سيخلصنا جميعا من الخذلان.

إن من واجب النخب العربية أن تعزز التقارب بين أقطار الأمة المسلمة. واليوم إزاء تركيا بتوجهها الجديد، والميمون، يجب علينا أن نعمل على تقوية التقارب، بل وعلى تحقيق الاندماج. ولن يضيرنا -إذا ما كنا أهل استشراف سديد- أن نتقارب مع تركيا حتى ولو -افتراضا- نجحت في الالتحاق بالحظيرة الأوروبية، ذلك لأن أي تحصيل ارتقائي يصيب جناحا من الأمّة، ينعكس حتما على باقي الأمة، ولو معنويًّا.

لنا العبرة في الغرب الذي يتأجّج بينه استعار التنافس الاقتصادي، لكنه يقدم مبدأ التضامن على مبدإ التفرق؛ إذ كل نجاح تحققه إحدى دوله يوظفه الغرب اليوم في تعزيز البناء المشترك، ألا نراهم والأزمة تعصف بهم، والشعوب -تحت ضغط البطالة- تدعو إلى الانكفاء القطري، لا يفتأون يضخّون المئات من الملايير، استنقاذا لميزانيات الدول التي انهارت خططها.

مسؤولية المثقفين العرب أن يتجاوزوا مطبات التنفير والتخويف وإثارة النعرات الشوفينية والعرقية وخلافات الماضي وسقطات التاريخ، ولنا أن نقتدي بالغرب أيضا في الروح التي تجاوز بها تَكَبُّداتِه في حروبه المدمّرة؛ إن ألْمانيا وفرنْسا تترابطان اليوم بوحدة عضوية تمليها المصالح والإستراتيجية، لأن الفرقة تعني الضعف وفقدان المكانة الدولية.. إن وحدتهم تضمن لهم السور الذي يقيهم التجاوز الذي يتهدّدهم من قِبل الدول الناهضة شرقًا وجنوبًا.

لقد ورثنا ثقة ساذجة واعتقادا أعمى في مثالية النظم الغربية التي حكَمَنا بها، وفي سياساته وديمقراطيته، وتجمَّدْنا عندها؛ فتَوَطَّنَتْنا روح الانكفاء العرقي والتقزّم القطري، ولم تكن الأمة إلا ملة واحدة حتى حين كانت تحكمها خلائف ودول وأسر تتوزع الملك بينها. فالشعوب والحركة والتعامل والشعور الراسخ، والانفتاح الإقليمي والجغرافي بين أبناء الأمّة وعلمائها وتجارها وطلابها وخبرائها، ظل يحتفظ بالجسرية البينية التي استندت على دعائم العقيدة الواحدة، واليقين بالمصير المشترك. ولقد ظلت العربية لسان الجامعات المسلمة، وكان في ذلك التوحد اللساني ضمانا كبيرا لوحدة الشعور.. وإن الضرورات والضغوط

لتزداد اليوم إلحاحا، لتجعل من العربية والقرآن والحس المشترك عوامل التوحد والتأحد، التي لن يغفر لنا التاريخ التهاون في إرسائها.

إن الابتزاز الذي نراه يزداد علينا شراسة، والقبول المذهل لوضع الفريسة التي نحن عليها حيال وحشية رأسمالية غاشمة، تقتضي منا العمل السريع والجاد والصارم على تخليص أنفسنا من براثنه. إن فَرْشَةَ[٥] النفط وحدها هي التي تجعل شعوبا منا لا تستشعر اليوم ما يقع لها بأنياب الغرب.. وإن ثروة النفط لا ينبغي أن تنفد دون أن تفيد منها الأمة ما يساعد على تحقيق النهضة التي تجعلنا في مصاف الأمة الواقفة.

إن مناشدات التقارب والاندماج التي ينادي بها كُولن، تندرج ضمن هذا المنظور الخلاصي الذي لا بدّ وأن يثير قلَق القوى التي تجد في الوضع التفكّكي دوام مصالحها النخبوية.

لا بدّ أن يشتغل أهل الثقافة والفكر والفن، فضلا عن الساسة والباحثين في المصير الأممي، على إبراز المكاسب التي تجنيها الأمة حين تتداعى إلى الترابط والتقارب.

إن إثارة غبار العرْقية، والعنصرية، والإحَنِ -التي لا بدّ أن يطويها النسيان-، والاعتراض المعلن أو المقنَّع على دعوات الاندماج والتخطيط المشترك، هو الرد الطبيعي الذي لا يفتأ يسوّغ به أهل النظر القصير سياساتهم الانعزالية، ويموّهون به على حساباتهم الخاطئة.

إن العولمة تفرض علينا أن نرسم بيداغوجية تعليمية وإعلامية يكون حجر الزاوية فيها هو تلقين الشعوب والناشئة حتمية العمل الجاد على

---

[٥] أي تدفق الخيرات والنعم.

تحقيق التلاقي والتقارب والترابط العضوي، ذبا عن المكانة، وكفالة لأسباب البقاء.

إن مفهوم الوطنية لا يلغي استراتيجية الاستقواء بِالأخ، ومَدِّ اليمين إليه. إننا نرى أوروبا تمسح اليوم ديونًا أسطورية لدولة اليونان، دعما لجدار الوحدة بين شعوب القارة العجوز.

لا زلنا نسمع في همس الأبواق التي لا بعد نظر لها، أن الدعوة إلى التقارب التركي العربي خطّة تحمل في طياتها العمل على إحياء دولة الخلافة. إن الغرب اليوم يبني خلافته، وهو يحترق كي يضمن لها الْمتانة، لأنه يراها السدّ المنيع الذي يحفظ له سؤدده ومكانته الدولية.

إن الحلم برجعة الخلافة أمر غير وارد، لأن التاريخ لا يتراجع إلى وراء، وظروف اليوم غيرها أمس.. إنما حلم الأمة أن تقيم النظام الجماعي، التجمّعي، الذي يكفل لها العزة، كيفما كانت تسمية وشكل هذا النظام التجمعي، الجماعي، حلم يثوي في جوانح كل مسلم، بله الطوائف المتنورة من أبناء الإسلام.

يكتب المثقف للشعب، وكثيرا ما يكون إدراكه لأحلام الجماهير ناقصا، أو أن رؤيته لا تبلغ من حيث السداد، ما يجعلها تتنزل جلوات تنويرية تحمل الوعي وتقوّي لدى الفئات قدرة التوق إلى التغيير. فأقصى ما يركز عليه هذا المفكر أن يعاين الأوضاع والانسداد، ويواصفها بنوع من المشاركة العاطفية، فيكون بذلك يتحرك على أرضية الشكوى العامة والتخبط المرير الذي يعم الساحة، فهو من ثمة يساير الجماهير في انفعالاتها، وربما جاءت روحه من الانسحاق والأنين ما ترى فيه الفئات ترجمانا عن مواجعها ولواعجها، فيرسو هو عند محطة الدغدغة مكتفيا

بما بات لديه عندها من صيت. فدوره هنا هو دور باكية الملمات والمعددة التي تحيي مجالس التعزية والحداد.

ويكتب المفكر باسم الأمة وبروحها وبجراجات وجدانها، ويتعمق ما يسكنها من اعتلالات ولواعج وآلام، فترشح أنفاسه نزفا وجمرا وتفتّت كبد، ولا يكتفي بذلك في المناسبات أو حين يصعد المنصة، أو يعلو المنبر فقط، بل إنه يصهر حياته وسيرته والعقود التي يقضيها في المبارزة في المَجْحَمِ، فلذا تأتي الآهات والتأوهات التي يرسلها في كل حرف يحرره وفي كل لفظ ينظمه، مصهورة، مذابة، جاعلا من نفسه على ذلك النحو، شعلة تتّقد لتنير الطريق للأمة، وتكشف لها المريرة[٦] التي تخرجها من التردّي إلى الحياة.

هؤلاء الجلة، القلة (بل الندرة) هم الذين يظلون وراء الستار محجوبين بامّحائهم، لكنهم، ولأصالة المبدإ الذي يعتنقونه، يتمكّنون آخر الأمر من أن يخترقوا سور الحصار، وينفذوا إلى قلب المشهد، ويشدون إليهم الجماهير، ويسيرون بهم فرادى وأشتاتا ثم جموعًا وشعوبا، يصنعون ما وعد الله أن يصنعه المتقون العاملون.

إن كل تأمين على دعاء هؤلاء السادة، وتأييد لما يقومون به من أسباب الإنهاض باستماتة وامّحاء، وكل دعاء لهم واقتراب منهم وانضمام بالقول والفعل إلى معسكرهم، وكل تقوية للصرخة الإيقاظية الثورية التي لا يفتأون يرسلونها وسط الجموع الشاخصة إليهم بمواجدها، السائرة معهم وخلفهم نحو الأهداف الكبرى، هو جهد يجزى عليه الإنسان، لأنه استجابة إلى داعي الخير.

---

[٦] الأثر الممتد على الأرض، الذي ترسمه الخطا وتعمّقه، فيغدو مسلكا للعابرين.

إستراتيجية اللاعنف

مما تميزت به رؤية كُولن الدعوية، تجنّبها للمواجهات العنيفة، ومجافاتها للغلظة الإجرائية في المنهج الدعوي وفي الحياة التي تربي عليها الأجيال. فهي دعوة رزينة، متّزنة، بقدر ما حرصت على الدينامية والاستثمار الحاسم للوقت والفرص والإمكانات في بث الدعوة ونشر برامجها، بقدر ما هي حريصة على التوثق لخطاها والتثبّت لخططها، والتبصر لمشاريعها التبليغية والتكوينية. ذلك لأن كُولَن يرى أن الإسلام دين الله الذي لا تزحمه المواعيد ولا تربكه الرزنامات، فلا ميقات محددًا لانتشاره، ولا أجل مضبوطًا لاستتبابه على البسيطة، فهو دين ليس مرتبطا بجيل بعينه ملزم باستكمال نشره في الآفاق وبين العالمين، إنما الإسلام عقيدة هيّأتها المشيئة الإلهية لأن تكون دين الإنسانية. ولقد اقتضت السنن الإلهية أن الهداية الروحية تستقطب البشر كلما ازداد شعورهم بالحاجة والضياع واللاّأفق.

هناك يُقلّبون النظر في الأرجاء، يتطلّعون لعل أن يسعفهم صوتٌ يضعهم على الجادة. وما أكثر ما يتوهّمون في الْتماعات السراب أدلّة وهداة، لكنها لا تلبث أن تتراءى لهم مجرّد أشباح لا حقيقة لها. عندئذ يهرعون إلى السماء، إلى تبني كمالات الشرع، والاستجابة إلى نداءاته. ولقد استقر الإسلام في البقاع التي دخلها، وتجذر بين الأمم التي ذاقت شَهْدَهُ، لأنها وجدته يجسد السقف الأعلى من المكارم والمثل التي تُكبرها الفطرة ويُؤْثِرها الحسُّ السليم. من هنا استمر تقديس هذه الأمم لدينها، لا تزيده الصروف والأطوار، مهما تردّت وقست، إلا تغلغلا في النفوس، وتمكنا في الضمائر. وإن الهزائم والتراجعات والتمحيصات التي ما فتئت

الشعوب المسلمة تلقاها منذ قرون من الانحطاط، لا يجد لها المسلمون بمختلف مشاربهم وطبقاتهم تقريبا، من تبرير إلا في حيدتهم هم عن النهج الشرعي، ومجاوزتهم للقواعد والأسس التي وضعها الإسلام أرضية للحضارة ولدوام سعادة الإنسان.. فلا يزال المسلمون يُحمِّلون أنفسهم مسؤولية التخلّف والقعود على الهامش والعجز المخزي وافتقاد الكرامة الشنيع، وليس الإسلام الذي يوقنون أنه كفل لهم في الماضي السؤدد، وأن من شأن العودة إلى حظيرته، أن تعيدهم إلى السبيل القويم الذي أهّلهم إليه القدَر، باعتبارهم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتَنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

فبهذه القناعة يرجح كولن النشاط الدعوي الهادئ الدؤوب، على العمل المنفعل المعرض للتقطع والتعطل.. فلئن تستمر في التقدم بريث وثبات ومردودية، أفضل من أن تقفز بعجلة لكن بمجازفة ومن غير ما طائل.

إن السداد في تنفيذ الخطط والبرامج يتعزز ويعطي نتائجه حين يترسخ في صورة حراكات متصاعدة الفعل، ووتائر متلاحقة الأداء، وتوسعات متزايدة المساحة، وقطاعات مترابطة الأواصر. فبذلك التواشج العضوي، والدأب المسترسل بلا هوادة ولا خلل، يتم البناء ويَطَّرد سبيلُه، ويضحى نهجا مدنيا تغتني به حياة الأفراد والمجتمع، وتكتسب صبغة الاحتسابية التي تضمّنتها الآية القرآنية في قوله تعالى موجّها الأمة إلى ما يحقق سعادتها في الدارَين ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ﴾(التّوبة:١٠٥).

إن شرط الخلوص القلبي الذي يُمَعْيِرُ به كُولن الجهد والخدمة، هو الذي تغدو فيه رقابة الله للفعل الذي نؤديه، وللعمل الذي ننجزه، هي ما يحكمنا ويحدونا في مهامنا قبل أي رقابة أخرى تتابعنا أو تفتّش وراءنا.

حقا إن كُولن يرى أن الانخراط القلبي في تنفيذ المهام يجعل الفرد يعيش الإنجازات مخطوف الأعماق، إذ إن التمرّس بالإخلاص والتفاني في حسم ما نواجه من مأموريات الدعوة، وما يسند إلينا من واجبات، أو ما نرسمه من أهداف، يكسبنا تلك الخاصية الروحية التي نغدو بها على حالة من التجنيح العميق كلما باشرنا العمل وبادرنا إلى البذل. إنها نفسية المحارب الباسل حين يدخل المعركة، إذ يحياها بمواجد لا يعود يعي في خضمها شيئا من الوجود، إلا تحقيق النصر أو الظفر بالشهادة.

وإن من مقتضيات التثبت والتبصر في العمل الدعوي مراعاة الظروف الملابسة لأوضاع الخدمة، فمثلما تراعي الخدمةُ شروط الأداء داخل الوطن، تراعيها حين تنبري لها خارج الوطن. وإن العولمة التي تحمل لافتة الانفتاح على الآخر، لا ينبغي أن توهمنا بهذا الشعار، إذ التضييق على العمل الخيري والنشاط الروحي لا يجد القبول والترحيب من قبل دوائر الاحتكار العالمي التي يهمها أن ترى العالم متحللا من كل وازع أخلاقي وروحي، إذ طبيعة رهاناتها أن توجد الإنسان المستهلك الذي يعتقد أن الحياة هي تَبَضُّعٌ وتهافت على اقتناء ما تلقي به القوى الصناعية والتجارية إلى السوق.

فمن الطبيعي أن لا نتوقع من الثقافة المعولمة التوسعية بما ملكت من هيمنة إعلام وتشريع وتوجيه، أن ترحب بأي دعوة أو روحية تضع في مقدمة أهدافها ترشيد الإنسان وتوعيته روحيًّا وقيميا، والدفع به على طريق كبح جماح الأهواء في نفسه، وتدريبه على الفطنة في الحكم على الأشياء، والقدرة على اتقاء البواعث الاصطناعية والأيديولوجية التي تعمل على تعميق قابلية التسفل والبهيمية فيه من خلال شحذ روح التحلل

واستشراء أدواء الاستزادة في الماديات والاستهلاكيات في نفسيته.

إن ثقافة التهييج المادي الماكر الذي تتبعه الرأسمالية الاحتكارية اليوم، بما يصبغ روحيتها الماركوتنغية من توجه إغرائي مطلق العنان، لهي النهج الذي تتبعه القوى الابتزازية العالمية في تدجين الشعوب. فقد استعاضت عن الاحتلال المباشر للأمم باحتلال آخر ناعم، هو أخطر ما يكون من حيث القدرة على ثني العنق، وتجريد الأمم والشعوب من مناعتها التي ظلت تنافح بها ضد استهدافاته لشخصيتها ومقومات تماسكها ومنظومات قيمها.

وإن دور الإعلام المعولم، المتخطي لكل الحدود، والمستهتر بكل القدسيات، إلا قدسية المال الْمَرْبِية مصادره، وطرق كسبه وإنفاقه، ليتصدر الخطوط في ترويض البشرية على الطاعة والانسياق الأعمى للرذيلة والتسفل، وإن أخطر ما انتهى إليه فعل التدجين الإعلامي للإنسان المعاصر أن بات يستعبد المجتمعات، ويخضعها لتأثيراته الإفسادية، بل لقد بات الإعلام[٧] ظاهرة عولمية إدمانية أخرى، لا يقدر الإنسان المعاصر عن الانفكاك عن سلطانها الفتاك، إذ أذعن لها، فبات ينام ويستيقظ على البرامج المفتتة للقيم، بدءا من أشرطة الكارتون، وهو ما انتزع الحكمة منه، بحيث تطبعت روحه على ملابسة السخافات، والتدنّي الفكري، والشعوري. إن الثقافة السمعية البصرية التي نَمّطها الغرب على قوالب

---

[٧] نسجل حتمية إفلات الإنسان بمرور الزمن من قبضة السمعي البصري التي تحاصره اليوم، وتملأ حياته بموادها الإرسالية المختلفة، وإن مستقبل السينما مثلا، سيكون هو مستقبل الدراما اليونانية والرومانية التي طوى الزمن صفحتها، وبتنا نتعرف عليها من خلال أطلال مدارج مسارحها الأثرية.. فالإنسان يشب عن الطوق ويتجاوز الأطوار الثقافية التي تستلبه خلال عهود قد تطول، لكن الذي نخشاه أن يقع في براثن ألوان أخرى شر من السينما كما يتعاطاها التصنيع الهيليودي اليوم.

تخرب الروح، قد أفقدت الإنسان المعاصر غيرته على الشرف، وجعلته يتقبل وضع التراجع والامتهان الذي قلص المسافة كثيرا بين الكائن البشري والحيوان، لاسيما من حيث تحكم الغريزة، وتيقظ حس الافتراس والتبذل.

إن ولع الإنسان اليوم بتجديد جهاز النقّال مثلا، وشغفه بتشغيله طوال اليوم، لهو وجه من هذه الكلبية البافْلوفيّة التي جرّتنا إليها ثقافة التسوق.

إن قوة الإنسان تتبدد على هذا النحو الانسياقي دون أن يعي ذلك. إن روحانية الإسلام كفلت لنا الإخلاد إلى السكينة في حلقة الذكر، وإلى التأمل في حضرة الترتيل القرآني، وإلى التجنيح عند التحول من سكينة الصلاة (بوجهَيها الجهْري والسري) إلى سكينة الذكر وتأدية المعقبات، فضلا عن التنفيل آناء الليل وأطراف النهار، فساقنا ذلك كله إلى وضع من الاستجمام المفيد الذي يتخلل يومنا، ويورثنا الصلابة الروحية والمعنوية، ويحفظ لنا مخزوننا من القوة والحيوية، عكس ما تفعله بنا هذه الثقافة الاتصالية التي تستنزفنا على هذا النحو الدرامي الخطير.

إن فضيلة الصمت والقصد في الكلام التي ظلت ممدَّحة إلى عهد قريب في ثقافات العالم، قد عصفت بها ثقافة الاتصال، بحيث أحالت الإنسان إلى كائن ثرثار، لا قدرة له على التركيز، لأن استرساله في المكالمات، والمواجهات الشبحية، يستهلك حتما ما له من احتياط ذهني ومرصود عقلي ووجداني كان في الوسع أن يتيح له تنفيذ شيء نافع، ودائم.. إن الاستغراق في مواقف التواصل قد شغل الإنسان وحرمه من أن يجد بهجة الامتلاء.

إن التكفف الذي يراه كُولن سمةً واجبة ولازمة في الإنسان باني

الحضارة المنشودة، يشمل مجال القول أيضا؛ فليس الإشباع الجسدي وحده مخلا بالفاعلية لدى الإنسان، إنما القول حين يغدو لغوًا، ويضحي هَدْرة، وتقصير أوقات، وتفقيرا فكريًّا وقيميا، هو أيضا إشباع إسفافي مقيت، لأنه يتدنى بقابليات الكمال وبالحس السوي، بل وبالمروءة. إنه انسياق من جنس انسياقات نزوية كثيرة وفاسدة ربَّتْها فينا المدَنيةُ المادية المعاصرة، المستهدفة للمثل السامية والروحية التي ظل الإنسان يبجّلها عبر الدهور.

ولا غرابة أن يرشدنا القرآن إلى فضيلة الصوم عن القول التي كان المصطفون، ومنهم مريم وزكرياء وآخرون، يعتصمون بها، في تواصلهم مع الله. وإن الاعتكاف في الإسلام قاعدته الكف عن الكلام، إلا ما كان من ذكر أو تلاوة أو ترتيل أوراد. بهذا التحنف يهيّئ الإنسان نفسه للتحولات التي تغير مجرى التاريخ.

إن هدف القوى الرأسمالية الاحتكارية هو جعل الكرة الأرضية سوقا، والشعوب طوابير من المستهلكين المتهافتين على السلعة، أيًّا كانت طبيعتها. ولذا هي ترى في الدين -لاسيما الإسلام- أخطر فاعل يواجه مخططاتها الماركوتنغية، إذ روحانية الدين ترتفع بالإنسان نحو القصد والتوازن والسمو النفسي، وتحدوه إلى عدم الانجرار وراء تهييجات أساليب العرض..

فإنسان مدنية اليوم -شأنه مع كل مدنية مادية جامحة- تتّجه به ترويضات بيداغوجية التسليع، نحو أفق يفقد معه نوازع إنسانيته، لأن التركيز التعقيمي يقع على جوانب الروح فيه، ولأن دوائر تحطيم مكامن العظمة في الإنسان تدرك أن إماتة الروح هي الضامن لرهان ﴿وَحْشَنَةِ﴾

الإنسانِ، وإطلاق عقال غرائزه، وجعله كائنا تتحكم فيه مُهلكات المدنية المعاصرة (الجنس والوخز والذهانيات الثقافية الأخرى..)، حتى الرياضة فلتت من إطارها الإنساني النبيل، وباتت أفقا ماركوتنغيا يتلقن منه ساكنة الأرض قيم العنف والغش والغلظة الوحشية، لاسيما وأن رمزيات الجمال التي تميز عالم التنافس الرياضي، باتت هي ذاتها تنعكس بالسوء على الأخلاق، وتُطبّع أهلَ البسيطة على قيم الجموح والبهيمية، لاسيما وقد أفلحت ثقافة التهجين المعولمة في استقطاب الأنثى إلى الحلبة، شاهدا على تسفل الجبلة وتدهور المثل، وفاعلا يتمرس على ألوان من الشطط والتبذل تنافي طبيعة الجنس الأمومي.

فلذا يرتفع اليوم صوت العقل يدعو إلى ضبط حراك التطور المادي بقواعد الفطرة والاتزان، والعمل على وضع حد لهذا الانفلات من ربقة الدين.. انفلات ربط الإنسان بالمادة، وجعله مخلوقا مشروطا بنوازع التهتك الجسدي.. من هنا لا يفتأ كُولن يلحّ على وجوب أن تتمرس المجتمعات -مثل الأفراد- بضوابط التعفف والقصد والتريض على خلق التمالك الذي يعيد للروح حيويتها، وللعقل وضاءته، وللبصيرة وهجها، ليتأتى للإنسان المعاصر أن يتخطى شراك اللذة والسقوط في هوة التحلل التي لا قرار لها.

اختيار الأطراف ذات القابلية للتحاور

إن مبدئية الحوار الحضاري التي يشدد عليها كُولن، أمر لا مناص منه، استنانا بسلوك الرسول الأعظم ﷺ مع مَن حاورهم في عهده من أساطين القوى العالمية آنذاك. فلقد توطدت الصلة بين الإسلام وبين

عظيم الحبشة، لأن الرسول الأكرم، أدرك ما لصاحب تلك المملكة من أهمية في مجال إشاعة الدعوة، وجلب الأطراف المحاورة لها، والمتعاطفة معها. ولقد رأى كُولن في طريقة مخاطبة النبي للنجاشي من خلال الدخول إلى نفسيته من باب ما يعهد من تعاليم عقيدته، حيث حدثه عن مريم والمسيح، أن المنهجية النبوية تبين لنا أهمية أن نحدث الآخر بموضوعات قريبة من معتقده وكتابه.[٨] لقد كان ذلك التواصل النبوي الشريف مع النجاشي أظهر إعلان على عالمية الدعوة الإسلامية، وكان في الكيفية التي أرسى عليها النبي تلك العلاقة منهاج للأمة تقتديه في سعيها اليوم من أجل نشر الإسلام وتوصيله إلى العالمين.

إن الجزيرة العربية وهي ترى أتباع محمد ﷺ في تلك المرحلة البدئية، بما شابها من ضعف وقلة ناصر، ينتهون إلى الحبشة، ويحظون بضيافة ملكها، قد شعروا بما للأمر الدعوي من خطر. ولذا فإن المشركين لم يقصروا في العمل على الاعتراض على تلك العلاقة، وكان سعيهم ذلك مستهل التحول الرؤْيوي الجاد الذي حصل لهم، إذ ما عتَّموا أن رأوا الكفة تجنح نحو محمد ﷺ، وأحست القبائل ذاتها بطروء شيء ما على قناعاتها، يحدوها للتفتح على الدين الجديد، فتهيأت بذلك الأقوام العربية لأن تدْخل في دين الله أفواجا. لقد كان تأثير العمل التواصلي الذي قام به الرسول ﷺ مع الحبشة، كبيرا، وإن اختيار الطرف المحاوَر كان من السداد بحيث أعطى ثماره المعنوية، وكان في الإمكان أن تتوجه الجماعة المسلمة اللاجئة إلى البلاد التي كانت خاضعة لروما الكنسية، لكن تقدير الرسول

---

[٨] أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، ص:١٦٣.

أن إفريقيا كانت أكثر استعدادا لتقبل الحوار، جعل التوجه يخصها بشكل عملي، إذ سارت الجماعة المسلمة الأولى من اللاجئين نحو الحبشة، فلقد ظلّت إفريقية (مصر والحبشة وليبيا ونوميديا) مفتوحة على الدعوات الروحية، وكانت الأقرب إلى العرب على صعيد الرؤية الروحانية للكون. فالجو الشرقي كان أكثر تغلغلا في تلك البلاد من غيرها، لذا أثمرت العلاقة النبوية مع الحبشة، وأحدثت الصدى المطلوب، علمًا بأن الرسول لم يستثن من الحوار الكراسي الدولية الأخرى في عهده، إنما الانخراط في بناء جسرٍ للتعامل الحي كان مع إفريقيا، وربما تجسدت ثمرة ذلك الجهد التواصلي أيضا في التجاوب الإيجابي المصري معه ﷺ، وفي زواجه من ماريا القبطية.

من هذا الاعتبار المنهجي يؤكد كولن وجوب أن تحسن جهات العمل الدعوي اختيار الأطراف ذات القابلية للتحاور، وأن يتم مخاطبتها بما يتلاءم مع ثقافتها ومدنيتها؛ لأن المحاور الذي يجهل قواعد التداول، ولا يراعي بيداغوجية التواصل، ينتهي إلى الخيبة، وقد لا يفلح حتى في لفت النظر إليه، بل قد ينتج عن ذلك الجهل بشروط الحوار، النفور من الإسلام ومن المسلمين، وهو ما نشاهده اليوم، إذ إن سيرة كثير من المسلمين في المهاجر، ورعونتهم، وعدم تقديرهم لمسؤوليتهم إزاء الإسلام، تجعلهم يبدون حتى في المظهر الخارجي النابي عن ذوق ومدنية الآخر، حيث يعيشون، على صورة شاذة، ومجسدة للتهوش والبدائية، وكان حريًّا بالمسلم أينما كان، أين يتوسل إلى الدعوة إلى الحق بالكيفية الناجحة، والسلسة، والمتدرجة. فأقل مكاسب الأمّة لو أنها عرفت السبيل الأنجح إلى توصيل قيم الإسلام السمحاء، أن تتجنب ارتدادات العداء التي لا تفتأ

تغذي أسبابها اللوبيات الحاقدة على الإسلام.

إن التأثير في الآخر يتحقق عن طريق الظهور المدني والصناعي المتميز، وبما تكسبه الأمم في مجال التدافع والتنافس، وهو ما لم نتهيأ له بعد. إذ أغلب الأقطار الإسلامية رهين التخلف، ويتحقق التأثير كذلك بالمسلك المثالي، والرجاحة المعنوية المعبرة.

لا بدّ للدعوة أن تعمل على بث الطمأنينة في البيئات التي تنشط فيها، حتى داخل المجتمع الإسلامي. وإن شرط الاستئلاف أمر أساسي في كل جهد تنويري، إذ إن الثقافة المعاصرة صلَّبت في النفوس روح التعنت والاعتداد، وطمست في الضمائر منابض الإيمان والقداسة، لذا بات يتعذر على الداعية ورجل الخدمة أن يحقق الهدف التنويري ما لم يتسلحْ بترشيدية تأخذ بعين الاعتبار سيكولوجية مدنية الراهن، واستفحالات الغلظة والتهمج الروحي فيها، وأن يدرك مدى ما يسكن قلب هذه المدنية من كراهية وتحامل شرس على الإسلام بخاصة. وإذا كانت الحال هكذا فكيف للمسلم أن يتسبب في تهييج الجموع المسعورة ضده، وهو يرى أن سياسة الإثارة والاستفزاز والعدوان باتت من صميم أيديولوجية بعض الأوساط الغربية في رؤيتها للإسلام.

إن التميز التشكيلي المنتظر أنْ تحققه الحضارة المنشودة، يكون ذا معنى وفحوى متى حرص على إرساء خصوصيات الإسلام، وإبراز كفاءة هذا الدين المثالية في التجاوب مع مطامح الإنسان، بغضّ النظر عن زمان هذا الإنسان ومكانه. إذ كما يوفر الإسلام للإنسان شرط التحصين الذي يقي الإنسان من مخاطر الزلل التي طفقت تعصف بالمدنيات عبر العصور، يوفر كذلك له شرط الحرية وانفساح المجال واسعا أمامه لأنْ

يستثمر إمكاناته في الخير والتعمير وتحقيق دوره في الخلافة في الأرض.

الإنسان الغربي قتل فكرة الألوهية، وها هو يقتل نفسه. وإن استنقاذ البشرية من هذا المصير المشؤوم لا يكون إلا على يد المسلمين ووفق تعاليم الإسلام.

وفي انتظار تهيُّئ الشروط التي تمكّن من إرساء مدنية الإسلام، على الأمة أن تعمل بلا كلل على تحقيق التميز، وسد باب التردي.

إن السد الذي أخبر القرآن بأن ذا القرنين أقامه حاجزا بين أهل الإيمان والكفر، يجدر بنا أن نقيمه على الصعيد المعنوي، لكي يقينا من رياح التدمير، ريثما تتهيأ الشروط، فننهض ونعود لحماية العالمين من شرور النفس وزيغانها المبيد.

الفصل الخامس
مبدأ الواقعية في فكر كولن

- الدولة، القائد، الأفراد والبناء الحضاري
- فقه الحضارة
- الأسس الإنسانية في الإسلام
- مصادر العزة والبعد الروحي
- تحرير الإنسان في الإسلام
- سمات النموذج الحضاري الإسلامي
- الفواعل والطلائع.. قادة الفكر والروح
- المحركات والدوافع
- أسس الرؤية الحضارية لدى كولن
- مركزية الدين في الإصلاح
- الهياكل والقيادات
- نشأة كولن وتأثيرها
- أثر التخلية والعزوبة في كولن
- المصلحون والاحتراق الذاتي الدائم
- العقل الملهم وقادة الفكر
- رجال الخدمة ودورهم في البناء
- إستراتيجية قرن العلم بالدين
- تلافي الثغرات في المنهج والأداء والإنشاءات

يقول كُولن: "الأفكار مناطة بالتطبيق وإلاّ بقيت أحلامًا وردية"[1]. كثيرًا ما سجَّلنا للأستاذ كولن واقعيته الفكرية، وقصدنا بالواقعية الفكرية هذا التمثل التوصيفي للواقع، والترصد الإحصائي الحسي والسببي لمكوناته، والتصور العملي لمعضلاته وتعقيداته.

ومن المؤكد أن قطاعاتٍ لا تنتهي من التفكير البشري لا تفتأ تتفق في كل عصر وكل منعطف على تخيل حلول، وافتراض بدائل، يتحسن بها الواقع الإنساني ويستقيم، لكن جلّ ذلك التفكير -لقصور النظرة- يظل مجرد تحويمات فوقية، لا تمتلك قابلية القبض على كيمياء الأوضاع المدنية والحضارية، وتحويلها في الاتجاه الذي يُحدث الانفراج.

نسبة كبرى مما تخطّه أقلامُ أهل الفكر يُعدّ -عند التمحيص- تجريدًا ذهنيًّا، وافتراضًا تصوريًّا لا سلطان له على الحياة، فهو من قبيل الإنشاء ليس إلا. وإن كثرة كاثرة من كتابات المفكرين والأيديولوجيين والمنظّرين هي في الحقيقة أصداءٌ لأدبيات الميتافيزيقا، كما تعاطاها الإنسان في القديم، بل إنها صدًى معاد، ونُسخة تتكرر على الدوام، عن حلم المدن الفاضلة؛ إذ يذهب الجنوح التنظيري بأصحاب هذه الكتابات إلى خارج مدارات الواقع، فيخبطون بعيدًا عن الموضوعية، من حيث يحسبون أنهم يُفَعِّلون الواقع، ويضعون أسس تغييره.

---

[1] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٨.

مما تميز به فكر الأستاذ كولن أنه يقبض بقوة على مبدأ الواقعية، ويتسم -أصالةً- بها؛ لأنه يعي أهمية الدور الذي يجب على المفكر المسلم أن يلعبه في عهود الخزي التي لا تزال الأمة تعيشها منذ قرنين تقريبًا. إنه دور استنقاذي، استعجالي، يسدد نحو الغايات بلا توانٍ أو تردد، انعطافًا بالأمة نحو الصحوة والمعافاة.

من واقعية نظر كولن، أنه يشترط توفر الدولة الحرة لتنفيذ المخطط النهضوي الحضاري، فأهم أركان عملية إنجاز الحضارة -بحسبه- هو الإنسان المؤمن المؤهل، وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رؤوس أموالها هو الزمن.[٢]

ومن المؤكد أنها نظرة موضوعية، ومتزنة؛ إذ ما أكثر ما رأينا أهل الفكر المعارِض للنظم الشمولية يجعلون في أولوية شعاراتهم الدعوة السافرة إلى الثورة على الدولة، والانقلاب على نظمها؛ توسلاً لتنفيذ أي إصلاح أو تعديل في البنية والمعطيات المدنية. لكن الأستاذ كولن، بواقعية تقديراته، يرى أن دور الدولة أمر أساس في الإقلاع الحضاري، غير أن كولن يشترط للدولة أن تكون حائزة على مقوّم الحرية؛ لأن الدولة الحرة هي المؤهلة لخوض التغييرات الكبرى، وإنجاز الوثبات الأبعد. ذلك لأن كولن صاحب فكر عملي، استمد مقومات تفكيره من خلال ملابسة واقعه الوطني، وارتباطه به، وأيقن أن شمولية الرهانات المصيرية، والتحولات الكبرى، إنما تتحقق على يد الدولة المرَشَّدة التي تدرك دورها، وتنهض به، فتشمل بجناحيها سائر مكونات المجتمع، وتؤهبها، وتدفع بها نحو الغاية الانبعاثية،

[٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٨.

الأمر الذي يختزل الوقت، ويحقّق النجاعة والفاعلية في تحقيق الأهداف.

حقًّا إن كولن يرى أن الإنسان الفعّال، المتجدد في روحيته وجدارته، هو الطرف الأبرز في صناعة النهضة، لذا فإن خطة تهيئة وإيجاد هذا الإنسان؛ إذا ما تمت برعاية الدولة تكون أسرع وأشمل، عكس ما يكون عليه الحال إذا ما كانت مساعي هذا التهييء والتكوين تجري خارج إشراف الدولة، أو عكس إرادتها، فعندئذ يكون الجهد سباحةً ضد التيار، وتنشأ علاقة الاعتراض والقمع التي تعيق أي صحوة، بل وتصادرها، وتضطرها إما إلى الانطفاء، وإما إلى العمل في جنح السرية والتخفي، مع ما يكون في ذلك من مخاطر على العاملين، ومن ضآلة ومحدودية على مستوى المردود والنتائج العائدة عليها.

هناك أنانية وقصور تعكسه أحيانًا شعارات دعوية تعتمد العمل التنظيمي الحصري، فكأنها تجعل من العمل التكتلي غايتها، فهي من ثَم تقصد إلى تحقيق الكيان الفئوي، أو التنظيمي، أكثر مما تهدف إلى الخدمة والبناء.

لا ريب أن الضغوط السياسية والأيديولوجية القامعة تحتّم على العاملين انتهاج سبل التستر والحذر، وإن من طبيعة هذا النوع من العمل -غالبًا- التزام التنظيم الهيكلي الخفي. فمساحة التحرك والتأثير ضيّقة، ومحفوفة بالتهديدات، ونتائجها غالبًا ما تكون بطيئة، ومتعسرة. وإن الاستمرار على اتباع نهج الحذر والتحفظ إنما تسوّغه روحية الثبات على الموثق، والحرص على المضي في الاستصلاح، ولو على نطاق محدود، وعدم إلغاء راية الدعوة على أمل أن تتهيأ الظروف الأفضل والأوفق للعاملين. من هنا رأينا الأستاذ كولن يقرر أن النهضات تنفّذها الدول الحرة، فهي التي تضمنها وتعطيها الصبغة الوطنية والقومية، بحيث تغدو رهانًا جمعيًّا،

ومقصدًا مركزيًّا تتضافر على بلوغه الإرادات الخيّرة والجهود المباركة.

لا ريب أن مبدأ إناطة النهضة بالدولة الحرة -كما رسم كولن- إنما أسَّست له تجربةُ العمر، وتَقلُّب الأوضاع بالأستاذ في مجتمعٍ سارت به سياسة التغريب على طريق الانسلاخ والتفريط في الهوية الأصلية.

ذلك لأن التقدم بالعمل الدعوي، باعتباره خطة نافذة وفعّالة في اتجاه البناء والتسديد، ظل يدبّ دبيبًا تحت ضغط القمع والمنع، قياسًا إلى الآمال التي كانت تسكن أعماق الأستاذ، وبالنظر إلى الدافعية العارمة التي لبثت تحرّكه وتجعله يوقف حياته على حلم تعميم الاستفاقة وتجذيرها في مجتمعٍ كانت آليات الأسْلبة والسلخ تفعل فعلها المنكر فيه، بعنادٍ وبلا هوادة.

أجل، كان الأستاذ يدرك أهمية تلك الأحجار القليلة التي يضعها أساسًا لليقظة، وقيمة تلك الخطوات التي يقطعها بكل جهد وإجهاد على طريق توطيد الصحوة، وكان موقنًا بأن ضم موضع شِبر إلى الأرضية المضاءة بنور الدعوة، هو فتح مبين.

الدولة، القائد، الأفراد والبناء الحضاري

إن تبني الدولة لمشاريع النهضة أمرٌ من صميم اختصاصها؛ إذ لم تنشأ الدول ونُظم الحكم إلا لكي تجتهد وتجنّد هياكلها الإدارية ومؤسساتها المركزية، ووسائلها القاعدية لصرف الجهود العامة، وتثمير المقدرات المتوفرة، أو الاحتيال لتوفيرها في حال شحّها أو نقصها، وتحويل ذلك إلى إنجازات تعمير ومرافق تمدين، تتوسع بها الحياة، ويزدهر المجتمع، ويؤصل من الأسباب والإرادات ما يكفل اطراد خطاه على طريق الرخاء والصلاح.

يحدث هذا عندما تكون الدولة مالكة لأمرها، سيدةً في قرارها، مطلقة اليدين من القيود التي تشلّ الحركة والإرادة. من هنا رأينا الأستاذ كولن يجعل من عامل الحرية شرطًا تكتسب الدولة به صفة التأهل لإنجاز النهضة وشقّ الدرب إليها.

الدولة الحرة هي القادرة على ضبط خططها، ورسم مسيرتها ووجهتها بالشكل الحصيف والاستراتيجي الذي يجنّبها الوقوع في مصائد القوى الاستغلالية، فهذه القوى بقدر حرصها على استبقاء وسائل التموين حكرًا لها، بقدر ما تستميت في إبقاء الأمم المغلوبة والمتخلفة عالقة في وحل الضعف والتبعية.

ينبّه كُولن إلى أن القيادات والسياسات حين لا توفّق في سوس الأمم ببصيرة وسداد، تكبّد رعاياها من أنواع العناء ما يعمّق من حطتها، ويزيد من انبخاسها بين الأمم.

ومن المؤكد أن السعد معقود على نواصي القادة.. فمتى ظهر القائد الحازم، المتبصر في خياراته، الألمعي في قراراته، المراهن على غايات تعزّز من شأن قومه، وترسّخ مكانتهم، سارت الأمة بخطا ثابتة وعزيمة مكينة، ورؤية واضحة نحو هدفها في المدنية والتعمير.

وإن ظهور قادة الفكر -في تقدير كولن- حين لا يتوفر الحكم الرشيد، يكون أجدى وأنجع في تهييء القاطرة التي تشق المدى بالمجتمع نحو الانعتاق، بل وإنه لَحَظٌّ أسنى، تُغبط عليه البلادُ والأوطانُ.

الدولة الحازمة تختزل المسافة إلى المدنية؛ لأنها ترمي بكل ثقلها في اتجاه تحقيق الغايات، فلذا تعوّل على تشبيب روح العنفوان في الإنسان، وتُربّيه على التمرس بقيم المنافحة والتصميم، وإحباط التحديات بالعزيمة

والحكمة والدهاء الذي يكفل النجاح.[٣]

الدولة الحكيمة هي التي تنهض بمسؤوليتها في بناء الإنسان، وتثمير الفرص أمامه، بل وهي التي تعمل بلا كلل على خلق هذه الفرص التي تمضي بالمجتمع على سكة البناء المتين. وإن من أهم ما يتجسد فيه رشد الدولة على صعيد التعمير: استغلال الزمن، واستثمار عامل الوقت؛ إذ إن إهدار الزمن هو عنوان صريح على التخلف، والبعد عن النجابة والصواب.

في كل الأحوال تظل مسؤولية النخبة حيال مهمة الإنهاض، مسؤولية لازمة لإيقاد شعلة الصحوة، بل ما أكثر ما انطلقت الشرارة من آحاد الأفراد، فالرموز الصالحة قادة الفكر والروح، هم جذوة يدخرها القدر لبعث الحياة، وتجديد مَطلع الفجر.

وإن بناء محاضن النخب وتكثيرها، هو استزراع يحقّقه الأقطاب النورانيون بكدّهم ومرابطتهم في الساحات، يستقطبون إليهم الخيريين من ذوي النفوس المجبولة على البر وحب الفضيلة. وإن كل جمع من الطيبين تراهم تداعوا إلى العمل الجاد، والعطاء المثمر، إنما يكون اجتذبهم إلى رحابه رجلٌ رباني وقف حياته على العمل الصالح، فليست المجَرَّة سوى مجاميع تترامى في الفضاء العالي، متحلقة حول شموس وأقمار، من حيث تستمد الضوء والانتظام والحركة والوظيفة.

ينفتح الطريق أمامنا نحو المستقبل على اتجاهات عدة، وسبل شتى،

---

[٣] راجع ما يقوله عن الدولة، وما ينبغي أن تتسم به من صلاح؛ كي تنهض بالمسؤولية التاريخية والحضارية المرجوة منها.. في كتاب: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٠٢.

فإما أن نستنيم إلى الحال المخدرة التي وضعتنا فيها تاريخيتنا منذ العصر الوسيط، ونمضي في التقهقر، شبه أموات، إلى أن يقع التحلل ونبيد. وإما أن ننغمس في مدنية الآخر بلا وازع ولا ضابط (وهو ما اختاره المتغربون المستلبون)، ونترك مصيرنا منوطًا بتوغل واستشراء هذه المدَنية وتفاقم غلوائها، وبكل ما يلحقنا من شرورها وهي تزدردنا لا يجد منا مقاومة ولا رد فعل.. وإما أن نعيش الغياب التاريخي، مثل رقدة أهل الكهف (وكان لهم ما يبرّر رقدتهم، عكسنا تمامًا)، فتنساب بنا الظروف والأطوار، كورقة جافة، تدحرجها الريح على القارعة، وتكورها السوافي عبر المجاري..

"وإما أن ننفتح على ذاتيتنا، ونلتحم مع ماهيتنا، وننفض الغبار على مقوماتنا، ونستحيي مكامن الوجدان، فينبعث الوعي، وينتعش الضمير، وتتجدد المعنويات، وتنطلق الحياة كرَّة أخرى؛ إذ مقومات الكينونة حين يلابسها دفء الوعي بالذات، وتنقدح فيها شعلة الانتفاض والانبعاث، تسترد قابلياتها الجوهرية في الحركة، وتندفع نحو اتجاه مرسوم سلفًا في فهرست الانتماء، الأمر الذي يجعل القافلة تستأنف السير، والعجلة تنساب في مدارها، وتمضي باسم الله مجراها ومرساها"[٤].

إن أهليتنا في بناء الحضارة، والترشح لإدارة مستقبل الإنسانية، أمرٌ مشروع، بل وحتمي، بكل المعايير، وبحكم منجزات الماضي، وما شاده الأسلاف من شامخ العز، وراسخ التحقيقات المدنية والحضارية التي لم يمحها الزمنُ، على الرغم من تزايد لواحق الإبداع الإنساني الذي أعقب غروب شمسنا؛ إذ ما زالت هناك تجليات لا تُحصى، ماديةً ومعنويةً من

[٤] انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

حضارة المسلمين، حية، وماثلة للعيان، ومنوَّهًا بها، ولا تفتأ الإحالة إليها، والاعتراف بقيمتها، صريحة ومؤكدة ومتواترة.[٥]

وإن ما يميز الإسلام أنه أعطى الإنسانية العقيدة التي تظل التشريعات الوضعية تنظر إليه بإكبار، وتبقى مدينةً لها في كل اجتهاد.[٦] كما أعطاها الحضارة التي حملت سماته الروحية وسجاياه الفكرية والجمالية، ومحامده الأخلاقية والقيمية، بخلاف سواه من الديانات الأخرى التي ظل نتاجها المدني والحضاري قوميًّا، حصريًّا أو يكاد (الصين، الهند، إلخ).

لقد تبنَّت حضارة روما العقيدةَ المسيحية فدجنتها على وفق مزاج إباحي، أبيقوري، فاضح، وجعلتها عقيدة تُراوِحُ عبر مسيرتها من الشمول الذي أحالها عقيدة ظلامية، منهِكة للإنسان، معنتة له، حائلة بينه وبين ربه؛[٧] إلى عقيدة العزلة، والانقطاع، والبعد عن الواقع (ما لله لله، وما لقيصر لقيصر)، فكانت ديانة معبدية، تتكيف بضغوط الحضارة ولا تكيّفها، عكس الإسلام.

وانظر إلى الظاهرة الحياتية التي أخذها الإسلام اليوم، من خلال الأقليات المسلمة المهاجرة في الغرب، والحضور اللافت لهم، ليس في ظاهرة ميعاد صلاة الجمعة الأسبوعي فحسب، ولكن في مواسمه، ونظام حياته، ومعاشه، وأُسس تفكيره، فإنك تدرك أن البعد الانفتاحي هو مَيْسمٌ في هوية هذا الذين؛ إذ ينتهي دائمًا إلى إحداث التأثير، وجذبهم بيسر إلى مبادئه.

إن الإسلام كما يعرفه الأستاذ كولن هو العقيدة التي تهيأت لتكون

---

[٥] انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

[٦] راجع: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٤٩-٦١، لاسيما ص:٥٥.

[٧] نقصد نظام الهيكلية الذي تتبعه.

للعالمين موردًا؛ حيث تأصلت لها سجية الصلاحية في الزمان والمكان مطلقًا، فمن خصائصه العضوية "أنه يدخل إلى أضيق المعابر في الحياة الفردية والعائلية، والاجتماعية والاقتصادية، والسياسية والثقافية، ويجول في وحدات الحياة كلها بصوت العصر الذي هو فيه، ويلفت النظر في كل وحدة من وحداتها بصورة أشد إحكامًا من أحكم شيء واقعي"[٨].

من هنا كان التَّوْق إلى بناء الحضارة اليوم، من صميم مقتضيات صحوة المسلمين، وإحساس متنوريهم وأعلامهم الخيرين بأن للإسلام حلولاً ناجعة، في وُسْعه أن يستنقذ بها الإنسانية اليوم -كما الأمس- من ترديّاتها المخيفة، وتشوهاتها المريعة.

فقه الحضارة

يجعل كولن من عناصر (الإيمان، والزمن، والهدف) أركانًا لاستراتيجية بناء الحضارة. وإذا ما تأملنا هذه المصادرة القانونية الثلاثية، رأيناها تضمِّن العامل الإنساني في أطراف المعادلة جميعًا؛ إذ القاسم المشترك بينها هو الإنسان.. ونستطيع قراءة هذه المعادلة كالتالي: الإنسان (المؤمن، صاحب الهدف، المستغل للزمن)، هو الذي يبني الحضارة.

ومثل هذا التقعيد لمقومات الحضارة وبنائها، رأيناه حاضرًا في كتابات المفكرين وفلاسفة المدنيات، ولعل أقرب هؤلاء إلى الأستاذ كولن المفكر مالك بن نبي، فقد ألفيناه هو أيضًا يشترط للنهضة وقيام الحضارة ثلاثة أركان = التراب + الزمن+ الإنسان.

ويمكن قراءة تمثُّل آخر لكولن يتعلق برؤيته لبناء الحضارة، محدداتُه

---

[٨] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٦.

هي (الله، الكون، الإنسان)؛ حيث تمثل الأستاذ أن وازع الإيمان هو أصل جوهري في الكون، وأن روح الإيمان ماثلة في الوجود، في صورة نداء يسري في العوالم، يردد معاني هذا التجلي الله - الكون - الإنسان الذي هو تسبيح بحقيقة ما فطر الله عليه الكائنات والكون، من حتمية التجدد والاستمرار. فهذا النداء هو صوت الفطرة الإلهية المنغرسة في صميم كل كائن، والمركوزة في حنايا كل مخلوق.

إن دورة المواسم مثلاً، هي تجسيد حي لهذه الفطرة التعميرية التي جبَل الله عليها مخلوقاته، وإن قانون التكاثر وعشق فصائل الجنس لمُكمِّلاته من ذات الجنس، هو عنوان آخر على فطرة التعمير التي هيَّأ الله بها الكون، وختم على ما يستوطنه من أشياء وأحياء، بل هو تسبيح معنوي وحسي تشهده قلوب النورانيين، وتشارك في نسج أنغامه، فأرواحهم هي في الحقيقة آلاتٌ تصدر عنها أنغام الذكر والشكر كما يصدر صوت الشجن عن الناي.

إن الصبغة الإنسانية الراسخة للإسلام، هي من أبرز البواعث التي تحتّم على المسلمين أن ينشروه ويستنقذوا به البشرية مما ترسف فيه من تفاقم الأيديولوجيات المضللة والفلسفات التجريبية القاصرة عن تحقيق الحد الأدنى من الطمأنينة والسلامة، وإن طرق الدعوة وإن تعددت اليوم، إلا أن أمثل الكيفيات التي تناسب إذاعة الدين الحنيف بين العالمين، هي أن يتقوى المسلمون، ويبنوا المدنية التي تحمل طابع الإسلام، وتعكسه روحيًّا وماديًّا، فيكون الطراز المدني المنجز خير دعاية ودعوة للإسلام.

الأسس الإنسانية في الإسلام

إن عدالة الإسلام ثابتة، ولا مراء فيها فيما يخص مراعاته لحقوق

الإنسان، وصيانته للكرامة البشرية، وعدم تمييزه بين العباد (إلا بالتقوى)، وفتحه المجال أمام كل من ينتسب إليه ليكون بأهليته وكفاءته صاحب شأن ورأي ومسؤولية حيال الأمة، وبالتالي حيال الإنسانية جمعاء؛ لأن الإسلام لا يعترف بأدنى امتياز للمسلم على غير المسلم فيما يخص الحقوق الإنسانية العامة، فكلنا عباد الله، بل على العكس من ذلك، يفترض الإسلام على الذي انتسب إلى هذا الدين الحنيف، أن يكون مسؤولاً عن الخلائق مسؤولية نفع وإصلاح، باعتبار ما تُلزمه به آية الخروج ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ..﴾(آل عِمْرَان:١١٠).

ومن البديهي أن الأمة المستصغَرة، والضعيفة، والمغلوبة على أمرها، لا يمكنها أن تحوز منزلة الخيرية، أو أن تبلغ مرتبة إسداء المعروف، ومنع المنكر، ما ظلت على ضعفها وصَغَارها.

من هنا كانت آية الخروج هذه آية إلزام، وتكليف شرعي يقتضي من الأمة أن تتوفر على شرط القوة، حتى لا يُستباح الحوض، أو يُنتهك العرض.

وإن التقوى التي وضعها الله عز وجل معيارًا للقرب منه أو البعد، هي تلك الروح المفاعلة للناس، والمتساكنة مع المحيط بانضباط أخلاقي، وتعفّف جوارحي، وتماسك قلبي يلجم الأهواء ويكفّ في النفس الرغبة في التعدي والتجاوز.. فالتقوى بهذا الاعتبار هي الصفة الإنسانية التي يغدو بها العبد حائزًا على مرتبة الاحتساب والإحسان؛ حيث يضحى في مقام يحمد العباد جميعًا منزلته وإنسانيته؛ إذ يجدونها تفيض عليهم بالحسنى والمبرّة والحنو.

إن هذه الأسس الإنسانية التي يمتاز بها الإسلام هي التي ترشّحه في

كل عصر، للانتشار. فليس هناك من يستطيع أن يطعن في مبادئ الإسلام، وفي إنسانيته، إلا المتعصب.. وإن تَمَنُّع خصومِه عن أن يفتحوا معه الحوار، لا يوجد له تبرير إلا خوفهم الأكيد من أن يُفتضَحوا ببضاعتهم في ساحة السجال.

ولذا نرى كولن يجعل من الدعوة حراكًا شموليًا، لا ينبغي أن يقتصر على الجانب التحسيسي والخدمي فحسب، بل إنه يرى أن الدعوة في إطارها الخدمي الحالي كما تنهض بها دفعات الشباب، وكما تتضافر لها اجتهادات أخرى من جهات أخرى، فردية وجماعية، رسمية ومدنية، اجتهادات ما زالت شبه جنينية وغير متصلبة بالخبرة والإمكانات التي لا تجعلها عُرضة للانقطاع، بل والتي هي في أحيان كثيرة مجرد مظهر من مظاهر المزايدة والتباهي والتستر عن التقصير والإخلالات المقترَفة في حق الله والأمة، إن الدعوة بهذا المستوى النشوئي الغض، لا يمكن أن يكون لها المحصول المجدي، والمنتَج الحاسم ما لم تندرج ضمن نهضة شمولية يضطلع بها المسلمون، وينخرطون في بنائها.. نهضة تراهن على إشهار النموذج الحضاري الإسلامي الذي يرى كولن أن كل الترديات الأخلاقية والاجتماعية والثقافية لحضارة الراهن المادية، تنتظره وتتطلع إلى بزوغه، كالفجر إثر ليل دامس.

مصادر العزة والبعد الروحي

ومما نسجله في هذا الصدد أن نظرة كولن لهذه الحضارة المنشودة، لا تعتدّ في المقام الأول بالجوانب المادية والتجهيزية حصرًا.. تلك الجوانب التي تضعها عقلية الابتزاز والصفقات والربحية في طليعة

اعتباراتها وحساباتها، بل إنه يركز على الجوانب الروحية، وعلى الركائز المعنوية التي يراها هي الضامن الأهم للتأسيس والإنجاز.

حسابات خيالية ننفقها كل سنة على مشتريات وتجهيزات بدعوى تحقيق الإقلاع، دون جدوى. إنما هي صبيانيتنا، وانبهارنا بالثروة المجانية التي كفلها لنا البترول، واستنامتنا لمخادعات وتنويمات الرأسمالية التي عوَّلنا عليها في استيراد الاستشارة والخبرة، والتجهيز والتعليم وفي كل المناحي المدنية الأخرى.

وقديمًا زعمت الأسطورة اليونانية التي هي جزء من مكونات عقليتهم، أن الإله بروميثيوس استأثر بالنار وحده، وأبى أن يعطيها للآخرين.

فالبداهة تجعل النبيه يدرك أن من كانت حرفته النجارة لا يمكنه أن يتنازل عنها لغيره، وإلا أغلق باب رزقه وفرَّط في شرط تفوقه، وكذا من كانت مهنته الصناعة، لا يمكنه أن يتيح لسواه أن يتلقن أسرارها؛ ضنًّا بخبرته التي هي مصدر ظهوره وأساس معاشه.

ومما لا ريب فيه أن ظروف انفتاحنا على الأمم الأخرى، وسذاجتنا في التواصل مع الاجتماع الدولي، نحن الأمة التي رسفت في البداوة والتخلف على مدار القرون، يجعلنا نقنع بل نغتبط بالحظ البخس من القبول المغشوش إدامة للغفلة والسذاجة التي تميزنا.

من هنا رأينا كولن يرجح في منهجه التمثلي لبناء الحضارة: البعد الروحي، ويجعل البعد المادي قرينًا له أو تابعًا؛ لأن اشتحان روحية المجتمع وقادته بالإيمان، واتضاح الهدف أمامهم، يجعل الجهد يتكثف باتجاه تهييء الجهوزية المادية، إما بانتقاء الوسائل والعدة من الآخرين (مرحليًّا)، وإما بالابتكار والتدبير الذاتي.

كان يرى عن كثب دُولاً بلغت من العُدة التصنيعية ما بلغت، آذنها الانهيار وباتت أملاكها وأساطيلها، بل ومقدراتها من العلماء والباحثين وأهل الفن والمهارات، تركةً تتوزعها الأمم، وبضاعة زهيدة السعر لا تجد من يعرض فيها الثمن.

أممٌ تعالت في الجحود، وداست على الروح، وآمنت بأن الإنسان قيمة شيئية تحكمه الانفعالية الشرطية، فيفعل أو لا يفعل، حسب الطلب، أمم اعتدَّت بالقوة المادية وحدها، وجعلت السبق للمادة على الروح، وتحسبت للمستقبل بقانون الحتمية الذي أناطت به كل فتح، وزعمت أنه القانون الذي يستمد وقوده من غبن الكادحين وصراعهم من أجل اللقمة، فيدأب الزمن على الحراك، يبني النهضات، ويقيم الصروح، من غير ما تدخل لقدرٍ؛ إذ لا قَدَر هناك -بحسبها- ولا اعتقاد في غيب أو دين (الدين أفيون الشعوب). تلك الدول لم تفدها عُدَّتها وصناعتها واحتياطها المادي في شيء، بل آذنتها مشيئة الله، فتزلزلت وتهاوت وتفككت تحت مرأى ومسمع العالم.

بل كان كولن ينطلق في استقراءاته للوضع الكوني، من حتمية أخرى يعتد بها المؤمنون، هي سنن الله التي قطعت بهلاك المتجبرين ما إن ينتهوا إلى الخط الأحمر الذي حدَّده الله، والذي لا مجال لتجاوزه (كالأجل، لا يتقدم ولا يتأخر)، لذا لبث (كولن) يلحّ ويحرّض على وجوب الرهان على الجانب الروحي في الإنسان وفي المجتمع والمدنية؛ إذ إن الإسمنت المسلح الذي لا تنال منه الزعازع ولا الزلازل هو الإيمان، وهو سَنُّ الروح بِمِسَنِّ الإخلاص، وتجهيز القلب بالعشق.

كانت آية الإيمان العملي متجذرة في عمق أعماقه ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(البَقَرَة:٣)، فكانت دلالتها منطَلقًا له في تَمَثُّل ما ينبغي أن يكون عليه الصرح الحضاري المتين، والكيفية التي يُقام بها، والأسس التي ينهض عليها، والعُدة والوسائل التي يكتمل بها "الإيمان بالخيرية والمسؤولية الإحسانية، وإيصال التعمير إلى الآفاق، والتعويل على أفضال الله في ما وهب للإنسان من رزق، هو مستخلَف فيه".

ويمكن في هذا الصدد القول: إن سائر كُتب الأستاذ تندرج ضمن هذا التوجه التعميري الذي نرى اليوم فرق رجال الخدمة ينهضون بشيء منه.. فمن كتابه عن السيرة، إلى كتابه عن السلوك (التلال الزمردية) إلى كتاب الموازين، إلى ما سواها، لاسيما تلك التي باشرت موضوع التكليف الحضاري الصريح، هي جميعًا تنظير لما ينبغي أن تكون عليه روحية المسلم العامل.

في هذه المصادر جميعًا، يؤكد كولن أن الإسلام يحفّز المسلمين على إقامة المدنية التي تستند على دعائم الروح، والتي تسري الأخلاق السماوية في شرايينها.. المدنية التي تسمو بالكرامة الإنسانية، وتضمن الوقاية للفرد حتى لا يغدو عبدًا لجسده.

تحرير الإنسان في الإسلام

إن مفهوم تحرير الإنسان في الإسلام لا يعني فقط تخليص البشرية من ظاهرة استعباد الإنسان من الرقّ الذي طالما استهدفه بسبب لونه، إن مفهوم الحرية الإنسانية في الإسلام يتسع فيشمل صون الآدمي من كل وضع تنقهر فيه النفس البشرية، وتُسَاس بما لا يحتمله الحسّ السليم

والوازع الفطري السوي، فتحريم الإسلام للزنا مثلاً، إنما هو حماية المرأة من شرّ ما تُسَام به من هتك، وهي تبيع عرضها و(تأكل بثدييها)[٩]، لكن الحضارة المادية، وباسم الحرية الشخصية، شرعت للبغاء ومكّنت أن يُشهَّرَ عنه في أكثر مدن وحواضر العالم.. والأمر يقال عن الخمر؛ إذ المدمن فردٌ مستلَب، عبدٌ لداء نفذ فيه، داء يُعَدُّ المجتمعُ عنه مسؤولاً حين رخَّص للمسكر، و«كلُّ مُسْكر حَرام»[١٠] أن يسوَّق، وأن يتعاطاه الناس بلا مانع.

وقل مثل ذلك عن آفات القمار، وألوان السمسرة، والاحتكار، و.. أليس عالم الحضارة المادية هو الذي يعدم سنويًّا الفوائض التي لا تُحصى من النعم والمنتجات، إبقاءً للسعر عاليًا.. أليس هو الذي يحتكر ترخيص التصنيع في المجالات الحيوية كحقل صناعة الأدوية، توفيرًا للدواء الذي تعجز عن دفع ثمنه البلاد الفقيرة لصالح شعوبها؛ لأن دوائر الاحتكار العالمي ترى في هذا الترخيص حدًّا لابتزازها من الكسب الشَّرِه؟!

لهذا وغيره، يرى كولن أن الحضارة المنتظرة التي سيؤسس لها النهوض الإسلامي الراهن، ستعمل بلا هوادة على علاج كل هذه السلبيات التي تُرهق في الإنسان إنسانيته، وتُخرجه عن سَوِيته؛ لأنها آثام في حقيقتها مناقضة لجوهر الطبيعة الإنسانية المهيأة للخير والرشد، فالشر والظلم ليس من الفطرة السليمة، ومسؤولية الإنسان أن يتمرس بالخير، تساميًا إلى منزلة التكريم التي خصَّ الله بها الإنسان.

إنها آثام وتعديات شاذة، تبرّرها فلسفة نابعة من فكر لا أخلاقي، أو

---

[٩] في المثل العربي: "تَجُوعُ الحُرَّةُ وَلاَ تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا"، انظر في شرحه مجمع الأمثال للميداني، ١٢٢/١.

[١٠] رواه البخاري، رقم الحديث:٤٣٤٣؛ رواه مسلم، رقم الحديث: ١٧٣٣.

بالأحرى لا ديني، بعيد عن روح الرحمة والتشارك، أدى إليه التحلل من أحكام السماء، وسوّغتها الاستنامة إلى أحكام الإنسان المحادد لله، الباغي في الأرض، المنكِر لقوانين الروح والغيب.

سمات النموذج الحضاري الإسلامي

إن إيجاد النموذج الحضاري الإسلامي الأصيل هو رهان المسلمين اليوم، وامتحانهم الذي يجعلهم حقًّا شهودًا على العالمين، وإن مواصفات هذا النموذج ومقوماته الروحية والتشريعية والقيمية والمدنية مرسومة في ما قرر القرآن من تأسيسات حدية، وما أرشدت إليه السنة من توجيهات تنويرية، وفي ما باتت عليه عقلية رواد الأمة ومصلحيها من تفوُّقٍ وإجادة وإبداع.

يتحتم -برأي كولن- على الأمة أن ترادف الجهود، وهي تتوجه إلى المستقبل، فتعمل من جهة، وبلا هوادة على تصحيح الأضرار الجسيمة التي لحقتها، ليس فقط جراء رقدتها طيلة قرون، ولكن أيضًا مما أصابها نتيجة تلوثها الفادح بمفاسد مدنية العصر، لاسيما على الصعيد الروحي؛ إذ دمرت أوبئة المدنية المادية أهم الخصائص الروحية التي اغترسها فينا الإسلام، ومكّنتنا منها مسيرة مظفّرة امتدت على مدار قرون، كنا خلالها أساتذة العالم، ومرشديه، قبل أن تنحرف فينا الفطرة القويمة بحَيْدتنا عن توجيهات دستورنا القرآني، وترشيدات سيرة نبينا الكريم.

الجهد الأوفى المنتظر منا -إذن- هو استصلاح ما فسد، والعودة إلى مقومات ديننا الحنيف، واسترداد رأس مالنا الروحي الذي فرَّطنا فيه -أول الانحراف- بفعل الغفلة، ثم بالتنكر لجوهرية وألْماسية معدنه، بعد ذلك حين انخدعنا بزخارف المدنية المعاصرة العرجاء، التي أضاعت ارتكاز

الروح، فسدرت في الضلال المبين.

لقد وضعتنا الفلسفات المادية، تحت هيمنتها، فأذْعنَّا للقهر طويلاً مع أن "القرآن يحرّم علينا الحياة تحت وطأة الوصاية" [١١]؛ ذلك لأننا فقدنا مقوّم القوة الذي لا تقوم لنا بدونه راية، حتى وإن كنا نملك أقدس الكتب وأعظمها ترشيدًا وتنويرًا، والسبب هو أننا هجرنا هذا الكتاب المبين، واتخذناه ظهريًّا.

فبتجهيز روحيتنا من جديد بمبادئ القرآن وتعاليم السنة، تتهيأ كينونتنا للانبعاث والعطاء والإبداع والبناء. في هذا الإطار، لا مندوحة لنا من العودة إلى الإسلام؛ اكتسابًا للحصانة من الاختراق "الإسلام كحليب الأم، له الدور الأساس في ضمان وتنشئة جهازنا المناعي"[١٢]. فـ"تفوق الإسلام ناتج عن كونه حقّق نقطة التقاء السعادة البشرية ورضا الله"[١٣].

الجهد الآخر ينصبّ على تحصيل المعارف العصرية، لاسيما العلوم التجريبية والتكنولوجية، والتطبع من جديد على أساليب التفكير والبحث والاكتشاف، فبذلك نمكّن لقوانا الخاملة واستعداداتنا الضامرة من أن تنبعث بأكثر مما كانت عليه من حيوية وتوثب في الماضي، عندما كنا رادة الحضارة وروادها.

وإن من شأن ما رزحنا ولا نزال نرزح تحته اليوم من وطأة الانبخاس الحضاري، وما يضغطنا اليوم من إحساس بالهوان وبالدون، أن يُفَعِّل في

---

[١١] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٥.

[١٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٨.

[١٣] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٩٩.

أرواحنا من الطاقة ما نتدارك به الركب، ونسترد المكانة.[١٤]

إن الشرط العلمي والمعرفي المؤهِّل للبناء، لا بد أن يَقرن في صلبه البُعدَيْن: الروحي والعقلي، القلبي والمنطقي؛ تجاوزًا للوضع المتفاقم الذي تعرفه مدنية اليوم التي انتهى بها الوهم والجحود والوثوق الأخرق في الذات وفي المادة، إلى الطريق المسدود، من حيث فشلتْ نظمها (المالية والأيديولوجية) في الصمود أمام تحديات الحياة والتاريخ، وكذا من حيث عجز فاعلياتها القيمية والتصورية عن ضبط الاستشراف السديد والتحوط الرشيد للراهن والمستقبل؛ إذ سارت (المدنية المعاصرة) في طريقٍ يرجّح كفة الإيمان بالمحسوس على حساب الإيمان بالله، والامتثال لأوامره، والأخذ في كل تخطيط واستشراف بالبعد الروحي الذي يجعل إرادة الله حاضرة في كل مسعى أو رهان.[١٥]

لقد شذَّت مدنية العصر في مجال المعنويات، وذهبت بعيدًا، إذ أصرت على أن تدوس المُثُل الأخلاقية الأصيلة باسم التطور الفكري والحرية الشخصية، وتعمدت أن تسلك سياسة إدماج المحاذير الدينية والموانع الفطرية في الحياة، من حيث التعاطي السافر والتداول المعلن، فشرَّعت أخلاق التهتك، وأحلَّت ذيوع الإباحية، وأطلقت العنان لفكر الشذوذ، وهدم المقومات الوجودية (تفكيك الأسرة، الزواج المثلي، العهر المدني، وما يشاكل ذلك من كبائر ظلت الديانات تحذّر من مغبتها)، فكان حتمًا أن ننتظر حلول نقمة الله؛ حدًّا لتعاظم هذه البوائق والمفاسق التي نراها تتلاحق اليوم في العالم، منذرةً بما لا بد من وقوعه، سُنة الله في الأرض،

[١٤] انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

[١٥] انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

ولن تجد لسنته تبديلاً.

وإن الكيفيات التي تأخذها النقم الإلهية لعديدة، وتُناسب حجم الجُرم والغواية، وإننا لا نفتأ نتدرج في اكتشاف صور للهول، ولقد رأينا كيف تُروّعُ ضربة تسونامي عارضة مثلاً، أهل الأرض جميعًا، وتذكّرهم بما أصاب الأمم الهالكة من تصفية ونسف كما أخبر القرآن، فيذهلون ساعة عن غرورهم، ثم تعاودهم الغفلة، فيمضون في سدورهم وضياعهم؛ ذلك لغياب الضابط الروحي في القلوب.

الفواعل والطلائع.. قادة الفكر والروح

يرى كولن في الإنسان أبرز فواعل البناء الحضاري، وأهم وسائله ومرتكزاته؛ لذا شدّد على وجوب تكوينه التكوينَ الذي يجعل منه قوة فاعلة، ومرَشَّدة، وموقنة من أن ما تبذله من كدّ وكدح، هو عطاء يندرج ضمن روحية الحمد التي لا ينبغي أن يغفل الإنسان عنها حيال ربه، المنعم بالوجود، والمتكرم بالمنن. وفي غياب النظام السياسي الراشد، الذي يجعل من بناء الإنسان وتكوينه غايته الأولى، يتحتّم على المجتمع أن يتولى أمر إعداد نُخَبه بذاته.

ولا ينبغي أن تُصاب الأمة باليأس؛ إذ العناية الإلهية تدخر لها دائمًا صالحين، ينهضون ضميرًا يحدو الناس إلى الهدى.

ما اكفهرت الحياة واشتدت حلكتها بالأمم، إلا هيَّأ الله لعباده منارة تضيء الليل، وصوتًا يشدو بالسُّرَاة. إن التمحيصات الدامغة التي تتعرض لها الشعوب حين تجثم عليها المُلِمّات، تعمل حتمًا على إظهار القوة المضادة التي تتصدى للكابوس.. فالأمم كالأفراد تُبدِي من القوة والتفجر

حين يُطبِق الخطبُ الداهمُ عليها، ما لا قِبَلَ لها به، ومن حيث لا تحتسب، حتى لكأن هناك طاقات خارجية انضافت فجأة لقواها، وساندتها في لحظة الخطر، وردَّت عليها الشر.

ومن المؤكد أن قابلية الخير في الشعوب، هي التي تجعل الأسماع تعاود الإصغاء إلى أصوات الخيرين، وهي تهيب بهم أن يثبتوا، وأن يصمدوا في وجه الكواسر.

وكل فذّ من الخيرين إنما يكون مَطْلَعُه في قومه بمثابة الفجر بعد الظلمة، أو كالماء العذب ينبجس في قلب الفلاة، بل إن ظهور الأفذاذ الذين هيَّأهم القدر لأن يكونوا صُناعًا للتاريخ، وبُناة للمدنية، لا يكون إلا وقْت اشتداد العتمة واستفحال الخطوب؛ إذ لا يجود بالنفس، ولا يبذل الروح حين تنتكس الرايات وتنحني الهامات، إلا جبابرة الروح، أولو العزم، ورثة الأنبياء.

لكأن ظهورهم في قلب البأس، وبروزهم في عتمة المحنة، إنما يندرج ضمن ما هيَّأ الله من قانون توازن تَطَّرد به الحياةُ والعمران. أجل، إن سعي العظماء، قادة الفكر والروح، إنما هو مظهر من مظاهر الشِّرْعة الإلهية التي ما أوجدت داءً إلا أوجدت له دواءً يقاومه ويزيله.

يتحول الأفذاذ إلى جذوة متأججة، ويتنامى جهدهم فيغدون مشكاة فيها مصباح، ثم لا يلبثون أن يضحوا عامود نور يضيء القارعة، وما يعتمون أن يصيروا فَلَقًا في السماء، وشمسًا تحضن المدى، وتستقطب الورى من حولها.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾(الأنعام:٩٥).. كذلك هو شأن الصالحين في أممهم، ينبلجون من عمق الظلمات، وينجمون من صميم النسيج البشري الذي استلبته سلطةُ البغي، وصيَّرتْه مجردَ جموع من الموات، هنالك

ينتصبون في الميدان، شاهرين سلاح الإيمان وحده في وجه الباطل، فُرادى في المُنازَلة، كل شيء ينكرهم ويدفعهم، لا يكادون يجدون حانيًا ولا شفيقًا، لكأن قومتهم كانت تناصب الحقَّ العداءَ، ولم تكن للحق مُناصِرة ولا عن الكرامة باحثة! حتى عموم المستضعفين يقفون من أولئك الشُّهُب موقف المتفرج والخاذل، بل وأحيانًا -وتحت تشويش أهل الباطل- يبدون النُّكر والعداء لمن نهضوا يحامون عنهم ويدافعون، فلا يُحزِن أهل العزم ويُدمِي قلوبهم إلا أن يروا السهام تختلف إليهم من كل حدب، والحراب تتناولهم من كل صدد، لكنهم يستميتون في المواجهة، يخوضون المعركة كرًّا لا فرًّا، يثبتون ولا ينثنون.

يقف هؤلاء الربانيون في قلب المعمعان، ومنهم ومن صبرهم واحتسابيتهم تتولد المقاومة، هيّنة، ضعيفة كالبذرة في رحم الأرض. قليلون من يوقنون أن تلك المصابرة المطوقة من كافة الجهات، سيُكتب لها أن تصمد وتستمر، لكن أهل الإيمان يزداد يقينهم في الانتصار على قدر اشتداد الضراوة التي تستهدفهم، وشيئًا فشيئًا تنجُم الأكمام، وتتفتح البراعم، ثم يلوح الربيع.

لكن كيف يهيئ المصلحون المستقبل، وفي أي صورة يتمثلونه، وبأية خطة يمهّدون له؟

من احتراقهم المتواصل ينشأ الدفء، وتسري الحياة، فمن بيضة مفردة يُولد طائر، ثم آخر، ثم سرب.. وعند ذاك يتهيأ للشعلة أن تضحى مشعلاً يتصاعد في السماء، ولا يلبث أن يشد إليه الأنظار من الأرجاء كافة.

حين ينغرس مصل الإيمان في وجدان الناشئ، تسكن الرحمةُ قلبَه، فيشبّ على المحبة، وينطبع بها مزاجه، بل ويصطبغ بها كيانه وشخصيته،

وعلى قدر ما يَرْقى به العمرُ، تتأصل فيه خميرة الخير؛ لأن نزوعات النفس تكون قد هُيِّئت للانجذاب نحو السمو ونشدان الفضيلة، نتيجة ما تلقحت به في المنشأ من عشق، فتتمكن في روحه قابليات الكمال، وتترسخ طبيعة النفور من النقص والرذيلة، ومن كل ما يسيء إلى القيم وشموخ الروح.

على هدي هذه التنشئة الصالحة تدأب الحلقات والمنابر والصفوف والمكتوبات على التوسع في توفير المدود وتكبير الاحتياطات.. إنها ترسم في الأفق خَطًّا نورانيًّا تجعله سقفًا للمريدين والأتباع والخيرين، يبلغونه ويستوفون به أهليتهم للحياة البرّة.

فقادة الروح ومهندسو الكمال الإنساني يدركون أن مراقي الكمال شاقّة، تستغرق العمر كله، وإن مهام البناء الملحّة لا تتيح للاحتياط أن يتهيأ، ويتوفر بالحد المناسب والسرعة المطلوبة، فلذا هم يعوّلون على منهج التنشئة الذاتية؛ إذ يدركون أن النفس الكريمة حين تنجذب إلى محافل البر، تكتسب سريعًا قابلية الحياة، فهي تزدهر بالحظ التنويري الذي أُتيح لها أن تحصّله، ثم تمضي حيثما مضت، وقد ضربت جذورها في التربة، تستمد أسباب الحياة بذاتها، كشجرة الغاب، تتعالى بالطبيعة، وتهيئ من حولها مشاتل تلتف بها، وتخلفها حين الهرم.[١٦]

كل مَجْمع يصنعه الأبرارُ يتحول إلى دينامو يولّد الإضاءة، وكل منتسب لمدرسة الإيمان، يكتسب من عناصر النماء ومن كيمياء العشق ما يكفل له أن يسير على الطريق، متدرجًا بذاته عبر مدارج السمُوِّ، ويعزز فيه مكاسب الروح؛ إذ تتحول مسيرة حياته، في خضم ما ينذر له العمر

[١٦] انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

من خدمة وبذل، إلى رحلة للترقي؛ حيث سيتعمق ارتباطه المعنوي بعهود العز الخوالي، فيضحى في كل آنٍ يعيش بمواجده أجواء الوحدة الجامعة، فلكأنه وهو من صحابة هذا العصر، واحد من زمرة الصحابة العظام، نشَّأَهُ هو توجيه يستمد تسديداته من منابع النبوة المحمدية، ونشأهم هم خير الخلق محمد بن عبد الله، أفضل الورى، وسيد الأنام ﷺ.[١٧]

حين نسِقي الناشئَ برشفات الإيمان العِذاب، نكون قد وضعنا قدمه على طريق بناء وتأصيل المدنية الحق؛ إذ من شأن العبد المؤمن أن يتصلب في وجه الاختراقات، ويمتنع عن ملابسة التلويثات التي تعج بها الحياة، فبدل أن ينضم إلى هَوْجة أهل الفساد الذين تفرزهم المجتمعات حين تغفل عن الفضيلة، يضحى هو عامل نقاء ونظافة، يشمله الطهر في ذاته، باعتباره حاملاً من حوامل الأخلاق والإحسان، ويشمل بالتبعية محيطَهُ، بدءًا من أسرته ومخالطيه، فالعنصر النجيب الذي تصقله مهذّبات الدين، يُعَدُّ من أهم فاعليات بثّ الخير والطمأنينة والاحتساب في المجتمع، ذلك أنه بعد أن يسلخ مرحلة الشبيبة في الاستقامة والرعاية والتطوع، يغدو عنصر صلاح، يقضي العمر في العمل الصامت والقنوت المتواصل، أشبه بملائكة الله (ولقد رأينا نماذج من هذا الصنف الألماسي بين شباب الخدمة)، أو يقوم -بدوره وهو مرابط في الجبهة- بتأسيس خلية أُسرية لا يكون عناصرها -كلاً أو بعضًا- إلا آخذين بشمائل الصلاح والتهذب الروحي، فينشأون على التخلق والشهامة ونشر المحامد، وهكذا تتسلسل منهم القوامة الإيمانية والأخلاقية، ويتسع من خلالهم نطاق الفضل

[١٧] راجع: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:١٣-١٧.

والجمال، وتسترسل تجذرات الخير عموديًّا وأفقيًّا، وتتنامى مساحات الاستنارة والفلاح، وتخضرّ أرضية الواقع الاجتماعي، وتتداعى الأجيال في مسيرة الحياة الكبرى إلى نهج الرشد والتمدن الفضيل، فيتعزز الإنتاج والإبداع، وتتناسل أنواع الاجتهادات التأصيلية الأخرى في سائر ميادين الحياة، الأمر الذي يتكرس معه بروز النموذج الحضاري المتفرد الذي يكون له أهلية التأثير والريادة والأستاذية العالمية.[١٨]

إن الحضارة تكون أكثر عمقًا وعراقة إذا تمت على هذا المنحى الإنشائي، ووفق هذا المنهاج الاسترزاعي الذي يبدأ نقطيًّا، ثم تتسع حدوده، وتترامى أفضيته ومجالاته؛ إذ إن التأثيلات المدنية حين تتجذر، تكتسب قدرة متصاعدة على التسارع، بحيث تخرج وتائرها عن وضعية البطء والريث والتراجع التي تدأب عليها في مراحل النشأة، إلى حال من الإقدام والمضاء والسرعة، ما يجعل قيم الأصالة تشع وتكتسح الأرجاء؛ إذ يغدو ضوءها مطلب الإنسانية جمعاء.

إن العراقة تعني اكتساب المجتمع قيم الاستحفاظ، وتطَبُّعَ أفرادِهِ على خُلُق اللباقة، وانطباع أرواحهم بالفاعلية والتوليد الإبداعي المتكاثر.

كل ناشئ في المدرسة المؤهلة تربويًّا وعلميًّا، هو حبة مباركة، تنبت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، وبذلك يقع التراكم، ويزداد الاحتياط المفَرِّش لميلاد مدنية الخير.

المحركات والدوافع

الدافع المادي دافع آني، مُناط بالهدف المنشود والغاية المتوخاة،

[١٨] انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

أي بالكسب والجزاء، فقدرته على التحريك والتجييش ظرفية، عرضة للانطفاء والخمود، فلذا كان من مقتضياته التجديد والتحريض والإشراط، إنه من طبيعة تحفيزية، عينية، ملموسة.

الجزاء المعنوي رهين بالكسب الأدبي، وبالنجاح القيمي، فتحقيق المَثَل الأعلى والمبدأ الأكرم هو القصد والمطلب الذي ترابط من أجله النفوس الأبية.

إن العينية الكسبية غائبة في المجاهدات المعنوية، أو إن هي وجدت، ففي درجة ثانوية لا غيرُ.. من هنا كانت المراهنات المعنوية هي الممحص الحقيقي الذي تتمايز به الإرادات وتتراجح العزائم.

وإن الفرد الذي تحرّكه الدوافع المادية وحدها، يظل مهيأً للفشل والخور، ما إن يعترض طريقه إلى المكسب المادي عارض قهري، أو أن يستغني ويجد البديل، عكس مَنْ تحرّكه الدوافع الروحية، فهذا لا يتردد في مهْر غايته الأسنى بروحه، وافتدائها بمهجته؛ ذلك لأن حياته تستمد قيمتها من قيمة المُثُل التي يعظّمها، فلما كان تعظيمه لمُثُلٍ أسمى من المادة وأغلى من المتاع، كانت حياته -الأثمن ما يملك- هي الرصيد الذي لا يتردد في بذله لأجل صيانة تلك المُثُل.

بحياة المبادئ تحيا الروح، وإن استشهاد الفرد في سبيل مبادئه يُعد حياة له وخلودًا، أما الذي يعترك لأجل أن يستحصل الغنائم المادية مجردة من بُعدها المثالي، فهذا قيمته من قيمة تلك الغنائم، لا دوام لها ولا استمرار، فهي ذات طبيعة استهلاكية، وكل مستهلك هو عرضي، لا جوهري. وإن معدن الذهب نفسه ليكسد ويتدنى في التسعير؛ لأنه على نفاسته، مادة يعرض لها عامل التخفيض والرفعة، وهو أمر لا يطال الروحيات بتاتًا.

إن هذا الاعتبار النبيل المغروس في وجدان الكائن البشري هو أُسّ وجودي يتلقنه الفرد من الفطرة ومن الحياة ذاتها، ولقد مضت مدنية العصر الراهن -من خلال ما أفرزته من فكر إلحادي غاشم- تنسب كل مظهر أخلاقي ومبدئي إلى غريزة من غرائز القصور في تكوين الإنسان.

لا ريب أن النفس الإنسانية جُبلت على الضعف، لكن الخالق -عز وجل- هيَّأها للتزكية، فجعل المُثل والأخلاق مَناطاتٍ لها، ورافعاتٍ، ومحرّكات تنزع بها إلى الكمال.

ولئن تسفّلت بنا الطبيعة البدائية، وأوقعتنا في ما يجرح الحس السليم، فإن ذلك من آثار النزعة الحيوانية التي تنطوي عليها تركيبة النفس البشرية، ولذا هيَّأ الله الرسالات والرسل لترشيد الناس، وجعل الدين يسوس إلى الحسنى، ولا يُكره أحدًا على اعتناق شرعة تجرح الذوق والحس السليمين، بل إن تعاليم الدين تشحذ مكامن النبل التي تنطوي عليها الفطرة السوية، لكن الحضارة الجاحدة، المتحاملة على الفضيلة وعلى الدين، تمضي في تتفيه القيم وتقزيم الروح، مقابل تمجيد الحس وتعظيم المادة، الأمر الذي ألحق بالغ الضرر بالمقدسات، وآل الأمر إلى أن خَفَت وهج الفضيلة، بل وخبت النعرة التي طالما تأججت في الضمير الإنساني حيال مظاهر امتهان المكارم ودوس المحامد.

محامد أخرى ظهرت وحلت محل الأصلية العتيقة، وازعُها استفحالُ الأنانية والبهيمية وقابلية الاستعباد المادي وما شاكل ذلك من قيم تسترخص النفس وتسوم الكرامة.

لقد بات المحفز المادي وحده -تقريبًا- محرك الإرادات؛ حيث ساد الاعتقاد؛ نتيجة تدهور البيداغوجية المدنية، بأن الصراع المادي -وليس

الصراع ضد شيطان المادة- هو قانون التحولات والتطورات، الأمر الذي تراجعت به مساحة الاحتساب، فالضمير بات أصمَّ، مشروطًا بالأرقام والأحجام والنسب الأجرية المنتزعة في معركة الغش والعيش.

لهذا وغيره يرى كولن وجوب التصدي لهذا الانجراف الأرعن الذي توشك الحياة أن تنقلب به، وتخرج عن نطاقها الطبيعي السليم.

أسس الرؤية الحضارية لدى كولن

وإن من أهم ما يؤسس عليه كولن رؤيته الحضارية: بعث روح الدين الحق، وتعويم القطاعات المدنية بقيم الروح، تخليصًا لما علق بالحياة المعاصرة من خبائث وأدران.

وإذا كانت الأسطورة هي من أبرز مقومات الوجدان الثقافي الأوروبي (الغربي) ومحددًا بارزًا في هويته الأدبية، يسترفدها من تراثه الإغريقي الروماني، ولا يزال يوظّفها في معارفه، ويرسي عليها أسس فكره، فلا ريب أن الدين هو جوهر الهوية الإسلامية؛ إذ استطاع هذا الدين بألماسية محامده وكلية مقاصده، أن يستوعب ما في متَجَذِّرات وجدان الأقوام والأمم التي انبلج عليها فجر الإسلام، أو التي انتهى إليها نوره بعد ذلك، فجَبَّ منها ما متَّ للشرك بصلة، وسدَّد المقومات الكريمة، وجعلها تندمج في أسس كبرى لهويته الجامعة التي يشترك في حمل خصائصها المسلمون كافة. من هنا أضحى الإسلام بفضل ما انبنى عليه من فرائض وعبادات، أكبر محركات العاطفة والشعور والوجدان في نفسية المسلم، وأقوى البواعث على الفعل والبناء. فـ"العبادات موجّه أساس حاضر في

كل الأحوال"[١٩].

أهمية الدين أنه طاقة دائمة، وحافزية متجددة لا تسقط في الابتذال بتاتًا، عكس ما سواه من الحافزيات كما أسلفنا. فقابلية انبعاث الدين من رماد الردة أمر واقع، ولا مراء فيه، من هنا كان الدين يمثل أكبر مُقَدَّرات التجييش، وأنفس ذخائر التحشيد التي يمكن أن يرصدها الإنسان للرهانات الكبرى، والتحديات المصيرية.

تشبُّ الثوراتُ والوازع يحدو أصحابها العُزّل إلى التيقن من كسب النصر، مع أنهم لا يملكون من شروط المرابطة إلا الإيمان؛ ذلك لأن الإيمان ظل يعتبر في كل عصر، السلاح الذي لا يضاهيه سلاح في خوض المعارك، وحسم المنازلات.

والدين الإسلامي بما هو مكوِّن تعبدي وسلوكي يومي، بات هو مَحْضن القيم، ومستزرعها، والنسيج العضوي الذي تنمو فيه، وتتشكل، وتأخذ صورها وألوانها.

فالثقافة في المجتمعات الإسلامية مرتبطة عضويًّا بالدين، ولا تكاد تغيب نواة الدين الإسلامي حتى في سلوك الفرد الملحد؛ لأن الوازع الديني فطرة في الإنسان عامة، لا يستطيع التجرد منها، ولأن الختم الذي يتركه الإسلام على من يظلهم ويمسّهم، لا يكاد يَمَّحي مهْما سعى الإنسان إلى استئصاله من أعماقه.

وشخصية الفرد والجماعة إنما تقولبها الثقافة، باعتبار أن الثقافة هي الأرضية الأرحب التي تصب فيها منجزات التعليم، والفضاء الأوسع

---

[١٩] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٥٨.

الذي تؤثثه مكاسب التربية، فلذا تتأهل الثقافة المستصلحة وتتأهب لتجنيد الأجيال، شريطة أن يُشحذ مكونُها الروحي، ويُجَلَّى مقومُها القدسي.

ولا ينبغي أن نُفَعِّل الدين ونعتبره مجرد وسيلة ووسيطًا يوصلنا إلى أهداف بعينها، ثم نتخلى عنه؛ إذ العلاقة بالدين تكون عندئذ واهنة، وغير صميمة، ومغرضة، وانتهازية، ومنافقة.

إن مثل هذه العلاقة تصطنعها الأيديولوجيات، وتسوس بها الجموع، وتغافلهم، ثم لا تلبث ساعة الحقيقية أن تحين، فتتهاوى صروح الدجل أمام الأنظار، وتترنح أحلام الافتئات.

تَكتنز الثقافة وتتفتح في مواسم اشتحان القلوب بالإيمان، فالفرد الصادق في إيمانه، والجماعة المخلصة لعقيدتها، والمجتمع الذي تترجح فيه كفة الخيرين (والرجاحة تكون دائمًا نوعية)، تغدو ثقافته مصطبغة بصبغة العقيدة؛ لأن الصدر العامر بالتقوى، يفيض محبة واستقامة، ويزخر دينامية وسباقًا إلى الخيرات؛ ذلك لأن الثقافة هي البلازما التي تستوي فيها خلايا الإيمان، وإن القيم الثقافية تستمد من العقيدة طاقتها، فتضعف بضعفها[٢٠]، وتقوى بقوتها؛ من هنا كانت الدعوات الإصلاحية وهي تركز، على استحياء، قيم الدين في نفوس الأفراد والجماعات، إنما تتوخى خلق مجال ثقافي تتعزز به دافعية الخير التي يستهدفها الدين، ويحرص على تركيزها في المجتمع. "إن الثقافة بألوانها المختلفة -في المجتمع المستصلح- تحوم وتدور في محيط العقيدة، وتنهل من مناهلها، وتتغذى بغذائها، وتنمو بها، ثم تتحول بفضلها إلى حال فوق الزمان والمكان"[٢١].

---

[٢٠] أي أن الثقافة تستقيم باستقامة المنحى الأخلاقي الذي تأخذه، وتعوجّ باعوجاجه.

[٢١] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٧٩.

بالباعث الثقافي حشدت الماوية (الصينية) الحشود، وساقتهم إلى الجبال الشاهقات والهضاب الفاخمات، فنضّدوها بأظافرهم، ومهّدوها بأناملهم، وبمثل ذلك أقحمت الهتليرية الأمم في الحروب، وخاضت الشيوعية معامع من دم وتضليل، وحسبت أنها تَنْفذ بالإنسان عبْر بوابة الأيديولوجية إلى الفردوس الأرضي، لكن ثقافة الحشر تلك، كانت ثقافة تدويخ وقتية، لا يمكنها أن تتجدد بنفس الاستماتة؛ لأن مرجعيتها هو الاجتهاد البشري الذي لا مجال للثبات عليه؛ لأن الأجيال تتبدل، والفكر يتجدد، والأطوار تتعاقب، ويتجاوز بعضها بعضًا، إلا الدين، فإن جوهره مهيأٌ أبدًا لخلق ذات الشروط التجنيدية التي تستمد عصاميتها من المُثل العليا، من الخالق ذي الجلال.

ومن المؤكد أن الأيديولوجيات جميعًا تتذرع بمنطق أخلاقي صوري إلى مقاصدها، فهي تغلّف أهدافها بغلاف سفسطائي خادع، بحيث توهم من لا يكون بصيرًا بدهائها، وتوقعه في المغالطة.

مركزية الدين في الإصلاح

هكذا إذن تَتبدَّى لنا مركزية الدين، بوصفه أهم فاعليات التحريك الاجتماعي والإنساني، وأقوى ديناميات التحشيد الجماهيري، وأمكن عوامل نشر الأخلاق والتمدن؛ إذ الأفراد، وكذا الجماعات، تجد نفسها حيال تعليمات الدين سواسية، تتقاسم نفس التكاليف، وتتوقع نفس الجزاءات الغيبية، الأمر الذي يجعلها تقف على بُعد واحد من الخالق عز وجل، وتدرك أن الإلزامات المشتركة التي تنهض بها ليست من إملاءات أحد، فهي تعاليم متعالية عن الاجتهاد الإنساني، وأن المسار الذي تسلكه

(الجماعات) ليس من رسم أحد، حتى نداءات الدعاة والمصلحين إنما هي في حقيقتها تذكير بما قررته العقيدة، وتنبيه إلى ما يفوت الناس من خير وبركة ببعدهم عن الشريعة.

وبتشغيل محرك الدين في النفوس، يتأتى تأصيل ثقافة اجتماعية يفرزها السلوك الاجتماعي المنضبط والمتطابق -بالقدر الأوفى- مع الشرع، وبذلك يتأتى للمجتمع أن يسترجع حيويته الوجدانية واتزانه المزاجي برجوعه إلى جو الدين، واستظلاله بمناخ اجتماعي يعيده إلى ثقافته الأصلية، بحيث يغدو مرأى الفساد يؤذيه، ومشهد التحلل والتهتك والإخلال بالقاعدة الشرعية والأخلاقية يسوؤه.

بل إن من شأن التأصيل الثقافي المطلوب، أن يكفل للمجتمع الوقاية الذاتية من المخاطر الهدامة والمعتقدات الغريبة، ويتم ذلك من خلال تدريب الروح الاجتماعي وتقوية حساسيتها وقدرتها على القيام برد الفعل المناسب، حيال كل اختراق أو اندساس يشوش على منظومة القيم، أو يحاول أن يَعْدِلَ بها عن مسارها وطبيعتها.[٢٢]

فتنمية دينامية الممانعة الإيجابية في صيغ الثقافة الأصلية، يجعلها أقدر على التبادل والتحاور، وأكثر صلابة في مجال التمرسات السجالية.

ودائرة الاستصلاح التي تسفر عنها الجهود بعد عقود من الجهاد والبلاء الحميد الذي يتجشمه الأفذاذ المصلحون، لا تكون -غالبًا- إلا محدودة النطاق، لكنها على محدوديتها تمتلك تلك الجاذبية الأصيلة التي تستمدها الظواهر النورانية من قدسية المبادئ التي تتقمصها، وهو ما

[٢٢] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢٩.

يجعل تلك الدائرة مهيأة للتوسع، يعطيها نبل شعاراتها وتسامي سلوكياتها رجاحة في التأثير، وقدرة على التوجيه؛ إذ تغدو الأوساط المستصلحة بمثابة المنائر التي تشدّ إليها الأنظار.

بالدين الحنيف نضمن للحضارة أن ترسو على روحية مطهرة، وبالثقافة المؤخْلقة على الخُلق، نسدد نحو بعث الوجدان المبرأ من لوثات التردي المادي والمعنوي.

فالثقافة حين تنبع من صلب العقيدة، تهيئ للمجتمع أن يتداوى من اعتلالاته المعنوية على نحو شبه ذاتي، فمن شأن المجتمع والأوساط المستنيرة أن تُهيئ المناخ الثقافي الذي يستوعب الانحرافات ويكيّف التشوهات.

إن الفرق بين التحصين المدني كما يدعو إليه كولن، وبين الإطلاقية التي تنادي بها الفلسفة الليبرالية، هو أن كولن يسير بالعملية الاجتماعية مسارًا بيداغوجيا، بمقتضاه يتوجب على المجتمع أن يكوّن الأسباب التي تجعل مظاهر الانحراف ومفرخات الأمراض تنحسر ذاتيًّا، وذلك حين تتوفق الجماعات إلى أن تجعل أوساط الانحراف -ربما تحت تأثير علاقة المحيط المقرب منها، ورد فعله السلبي تجاهها- تستشعر بنفسها فسادها، واعوجاج الطريق الذي تسير فيه، فتتراجع أو تعيش وهي على وعْي بما تتسبب فيه من أذى للمجتمع، ومِن تعدٍّ على معتقداته.[٢٣]

ومن المؤكد أن الحياة لا تخلو من قذى، رغم تعمق مساعي الإصلاح، فالحياة المستصلَحة أشبه بالجسد السليم، يظل مع كمال عافيته يرشح

---

[٢٣] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٣٣.

بنفاياته ويفرز مستقذراته، وهي حال من طبيعة الحياة ذاتها، فالشر لا ينتفي من الحياة، لكنه لا ينبغي أن يكون القاعدة.

الليبرالية فتحت السبل في وجه مستقبل بشري متهمج، يغدو فيه الشذوذ هو القاعدة، والاستقامة هي الخرق، ومنعت الإنسان من أن يعرب عن مشاعره حيال التشوهات، بل وحتّمت عليه أن يباركها، وإلا صُنّف رجوعيا، وأصوليًا[٢٤]، وأركاييك.[٢٥]

وإلى جانب المحرك الديني والمحرك الثقافي، يتوجب دمج عامل الوعي بالتاريخ في الفعل الإحيائي؛ إذ بمعرفة المجتمع لماضيه، وبوقوف الناشئة على المراحل والعهود التي سلختها الأمة من هذا الماضي، وما اتسمت به هذه العهود من قوة وضعف، والمكاسب التي ظفرت بها السلالة، وعلل الانتصار والانهزام في مسيرتها، ستتمكن من وضع اليد على سند توجيهي حاسم، يقيها العثرات.

بل إن كولن وهو ينوّه بما لمعرفة التاريخ من فوائد تجنيها الأجيال، لا يفتأ يمتد بالبصر إلى مراحل ما قبل الإسلام، مذكِّرًا بما كانت عليه السلالة التركية من بدائية وضآلة وانعدام شأن في مضمار التحضر والتمدن. فكولن يدرك أن قراءة التاريخ في كُليته، يعطي الأجيال الصورة بكامل أبعادها، فيتهيأ لها حينئذ أن تعرف مكاسبها التي لا تُحَدّ من جراء انتمائها إلى الإسلام.

لقد هيّأ الإسلام الأمة التركية أن تكون أستاذة الدنيا لقرون من الزمن، بعدما كانت قبائل ينحصر همها في تتبع المراعي والتنازع على الكلأ.

---

[٢٤] لفظ الأصولي أوintegriste هو من أسوأ السِّبَاب، ومن أكبر التهم التي يتداولها التقويم السياسي والأخلاقي والمدني الغربي اليوم، وللأسف ترانا نجاريه في الاستخدام.

[٢٥] أركاييك تعني: ممعن في القدم والبلى.

وكان الإسلام قد فَعَلَ مثل ذلك بالعرب والبربر ومن إليهم؛ إذ أخرجهم من الخمول، وبوَّأهم منزلة الريادة في العالم، لقرون من الزمن.

فالتاريخ -بحسب كولن- هو من أهم محركات التفعيل الاجتماعي والثقافي والقيمي التي لا مناصَ من استثمارها على الوجه الأفضل؛ تأهيلاً للأمة كي تشقّ طريقها، وتُعدِّل من مسارها التغريبي البئيس.

إن صورة الهوية الجماعية تتجلى في ملامح الماضي، وتنعكس بكل ما تحمل من سيما الحسن أو الشوه في مرآة التاريخ. ثم إن الرابطة بين الدين الإسلامي وبين التاريخ رابطة تلازم وتناسب؛ إذ جلّ الأمم التي اندمجت في الإسلام وجدت نفسها تزهد في ماضيها ما قبل الإسلام؛ لأنها لم تتأهل لكتابة التاريخ بالحرف المذهّب إلا حين انخرطت في فيالق الإسلام. حتى الأمم ذات العراقة ترى مطاعن السذاجة والاعتقاد الفاسد والشذوذ المخزي تتلبس ما كان لها من مدنية قبل أن تشرق عليها شمس الإسلام.

من هنا كان درس التاريخ في صدارة المعارف التي ينبغي أن تتلقنها الأجيال؛ إذ إن أضاليل التغريبيين تعول في التسويغ لمنهج الانحراف الذي تسلكه، على طمس التاريخ، ومصادرة الذاكرة الجماعية، وتشويه الحقائق، والعمل بلا هوادة على قطع الشعب عن جذوره، وجعله يعيش يتيمًا من غير ماضٍ، كل ذلك من أجل أن يسهل عليهم ربطه -ذيلاً- بجسد مدنية وحضارة الآخر.

الهياكل والقيادات

لإنجاح المشاريع، أيًّا كان طابعها، لا بد من وجود القيادة التي تباشر

الإشراف على إدارة تلك المشاريع، ومتابعة مراحل التنفيذ؛ ذلك لأن التقدم في العمل، وضمان الدقة في الإنجاز، يقتضي العين الساهرة، والعقل اليقظ، واليد الصناع، والتدبير الحكيم القادر على إيجاد الأرصدة الوفيرة لتغطية أي مصروف تستلزمه الخطة ويكتمل به البنيان.

ومعلوم أن البرامج الإنجازية تتولاها فرق من العمَلة التي تستوجب بدورها مسيرين وخبراء وأيدي عاملة يلازمون العمل وينخرطون فيه، حتى يبلغ كماله.

ولما كانت إدارة المشاريع، فضلاً عن التخطيط لها، أمرًا حاسمًا ودقيقًا، يتوقف عليه مصير تلك المشاريع ذاتها، كان إشكال الهيكلة من أبرز ما شدد عليه كولن، وكرر التوصيات بشأنه، بل لا نحسبه أغفل الحديث عن الهيكلة في سائر ما كتب؛ ذلك لأنه نظر إلى مسألة التأطير والتسيير ليس فقط على أنها نشاط تقني وأدائي يتم بالكيفيات الاعتيادية التي تتأدى بها الأعمال العادية، أي ببذل الجهد الذي يقتضيه التخطيط، أو الذي تُمليه توجيهات الخبرة، وحسب، بل لقد نظر إليها على أنها من صميم الجهد الروحي والتعبدي الذي يجعل الأعمال تتم في أكمل ما يكون الكمال، باعتبار أن العمل ليس واجبًا ينهيه الإنسان وكفى، بل هو قُربة يتقرب بها العبد إلى ربه، وتزكية يترقى به الشعور، ويكتسب مزيدًا من معاني الاحتساب والسمو، فكل إنجاز هو خطوة على سلم العروج، وبذلك يضحى الأداء إنجازًا يسلك صاحبه في دائرة أهل التميز، فهو فنان دافق الحس، رهيف اللمسة، وهو صوفي روحاني الذوق، نوراني اللقطة.

في حياة المؤمن المحتسب هامشٌ ميمون من عشق وعذوبة، يجعل كل أمر ينجزه، يخرج من يديه وهو في صورة تحمل طابع التميز

والمخصوصية التي هي -في الحقيقة- صدًى ملموس لذلك العشق، وأثر مرسوم لتلك العذوبة التي تتوفر لروحه، الأمر الذي يُضفي التفوق والملاحة والمقبولية على كل ما يفعله المؤمن، حتى كوب الماء؛ إذا ناولك إياه، روَّاك وأمْرَاك.

لا ريب أن مما ساعد الأستاذ كولن على رسم المقاييس الوافية، والمعايير الفعّالة التي تأخذها شخصية الإطار المسؤول القائم على تنفيذ الخطط والمشاريع - سيرةُ حياته هو بالذات؛ ذلك لأنه شبَّ وتدرج في أطوار العمر مديرًا لحياته التي خرجت في كلياتها وتفاريقها عن النموذج الحياتي العادي.

نشأة كولن وتأثيرها

نشأ كولن يلاحق مراكز التكوين والتعليم التي لم تكن متوفرة لمن في وضعيته، يتحول من أفق إلى أفق، تحدوه الاستزادة في التحصيل، فعاش مستنفرًا، يقظًا، تقتضيه حياة الوحدة والعصامية أن يكون مستجمعًا لتركيزه الذهني والتدبيري، ما يسيطر به على شؤونه الخاصة والعامة، بحيث لا يفوته من واجباته شيء. فهو يدرك -أو كان عليه أن يدرك في كل لحظة- أن حياة الانفراد والتطلع، تحتم عليه أن يمتد أبدًا من نطاق اليقظة إلى سائر محيط علاقاته؛ ضمانًا لمضي المسيرة، فقد كانت قاطرة المراحل تتقدم به، يسلمه بعضها إلى بعضها، فلا يزيده ذلك السفر في البلاد، إلا اغتناء في التجربة، وفاعلية في التصميم، وقدرة على النفاذ في خفايا الحياة والإنسان والمجهول.

من مسيرة حياته، ومن تراكم مرصود تجاربه، وما تأصل له من استنارة

روحية وجِلاء فكري، استمد كولن مقاييس القيادة، واستلهم مواصفات الهيكلة والتأطير.

باشر في مطلع شبابه إدارة ملتقيات الفتوة، وتسيير المخيمات المدرسية، يكتتب لها الميزانيات عن طريق التبرع والإحسان، ويوفر لها العدة ووسائل الإيواء والنقل، والتموين والتطبيب، والتنشيط وسائر ما تتطلبه حياة البناء المركز من ضمانات السلامة والبهجة والمردودية التكوينية، ما يجعل منها أفقًا تكوينيًّا مفتوحًا على الحياة، ومعززًا لأسس التنشئة السليمة، فاكتسب بيداغوجية إدارة المال والأعمال، واستحكمت فيه قدرة استئلاف الطوائف من الفتيان والشباب، وبذلك اكتملت لديه خبرة القيادة والسيطرة الحكيمة، وانضافت إلى ما احترفه من رئاسة منبرية كان يمارسها بوصفه إمام مسجد، الأمر الذي جعل الأداء الوظيفي والترشيدي، بل والمقاصد تتباين باطراد مع ما كان نظراؤه يؤدونه في مساجدهم، ويتوخونه في وظائفهم.

ومن المؤكد أن حياة العزوبة التي عاشها كانت من أهم عوامل نبوغه في الترتيب والإدارة.. لقد تعلم من تلك الحياة كيف يدير شؤونه؛ صغيرها وكبيرها، وكيف يرتب الأوليات على نحو احتسابي لا مراء فيه، وحين تُنبئُنا سيرته مثلاً بأنه كان يغتسل لصلاة الفجر في عزّ الشتاء، عندما تتجلد المياه في الأنابيب، فيسكب هو الماء على نفسه في مغسل مفتوح على زمهرير وقَرٍّ تئن لهما الحجارة، فإننا ندرك أي الرجال كان؛ إذ الواجب الديني كان لديه مقدمًا على كل ما عداه، "حفظ الدين قبل حفظ النفس، في حين أن الإسلام يضعهما متلازمين، إلا حين يكون الاستشهاد خادمًا للإيمان"، ولا ريب أن الذي يعيش موصولاً بربه على هذا النحو من

التجرد الوطيد، هو إنسان روحاني بامتياز؛ إذ لا ننس أن العزوبة عند أهل الله هي الإعلان الأظهر عن الخيار التبتلي الذي لا مجال فيه لِلُبْس أو استرابة، وأن من يختارها نهجًا في الحياة يكون في وضع مثالي، من حيث التأهب للعمل الصالح، والتأهل للسعي والاحتساب الدائبين.

فالعزوبة التي يلتزمها المبجّلون، لا تعني فحسب، التفرغ للعبادة التي هي مناط وجودهم، ومحور حركتهم وسكونهم، ولكنها تعني أيضًا تجسيد مقاصد الإيمان الأساسية التي هي السير بالناس والمجتمعات نحو البِرّ، وإرشادهم إلى الخدمات والأداءات والتثميرات التي تعزز في الإنسان خيريته، وتجعله يمضي قدمًا على طريق تحصيل رضا الله.

أثر التخلية والعزوبة في كولن

من تمام الإخلاص أن يكون قلبك مشرعًا لعشق فريد لا يساهمك فيه مساهم، إن عزوبة الصالحين تندرج ضمن منهج التخلية الذي ينهجونه قاعدة للتعبئة والانطلاق.

ومن بركات هذه التخلية أنها تتيح للسالك أن يوسّع من أفق تأمله الروحي، فيشمل الحياة وأحوال الناس؛ إذ الخلوة توطّنهم على تعزيز روح القدوة، والسير على منهاج الأنبياء وفي طليعتهم النبي ﷺ، فيكون من جملة ما يستحصلونه من ذلك السبيل، الرحمة والشفقة والحدب على عباد الله وعلى مخلوقاته طرًّا، الأمر الذي يجعل السعي الصريح، والاعتراك الفعلي لفائدة الإنسانية ولرفعتها الروحية والمادية، من مرتكزات العمل الاحتسابي الذي يتقربون به إلى الله، وبذلك تغدو الخلوة لا تعني العزلة والتحصن في معتكف يبعدنا عن الناس والحوادث، بل تضحى الخلوة

حالاً رهانية لا يفتأ فيها القلب يُشتَحَنُ بأذكار وأوراد وتسبيحات تتنزل في عين الواقع في صورة منجزات تثقيفية، ومكتسبات تعليمية وتجهيزية؛ تنهض بمستوى روحية المجتمع، وتغيّر من أوضاعهم العقدية والنفسية والاجتماعية، وتجعل منهم عبادًا يتمازج في سلوكهم أداء الواجب مع محبة الله، فتنسجم من ثمة رؤيتهم إلى الدنيا والآخرة، فتشملهم سكينة السلام، ويطيب لهم أن يستغرقهم الحمد والشكر في سائر ما يتعاطون من عمل وكدح.

تُرى، والحالُ هاته، كيف لا ينبغ في الإدارة والتنظيم والتأطير مَن كان رسول الله ﷺ قدوته ومرشده وملهمه؟!

بل إن العزوبة هي اعتكاف وتبتل مستمر في الزمان والمكان؛ إذ حيثما كان العبد المعتكف، سواء ألبث في مصلاه في ركن البيت، أم سار في الأسواق يسعى وراء هدف يصلح به أحوال الناس، فإنه في الحالين يعيش على صلة بربه. فهو في حضرته باستمرار، قد تدرب على أن يعيش بشطرٍ من وعيه الحياتي مع الناس، وأن يخصَّ ربه بالشطر الأكبر من شعوره ومن وارداته.. وحتى حين يعروه أحيانًا السهو، فإنه يستنكر من نفسه تلك الانفكاكة، ويعمل على استدراك تلك الخسارة. فعدَّاد الرقابة الذاتية يعمل دائمًا، وبذلك ينعم الصالحون بمِنَّة البركة في كل ما يطلبون، ولأنهم يطمحون إلى ما طمح إليه معلموهم ومن يتخذونهم منائر الاسترشاد والقدوة، نقصد الأنبياء والرسل عليهم السلام، فإنهم لذلك يستشعرون أن الوقت يمر بهم مر السحاب، فلذا تجدهم متوترين، يتمنون لو أنهم ملكوا الأمر لجنَّحوا في الآفاق، وسابقوا المواقيت، واستنجزوا كل ما يحلمون باستنجازه.

المصلحون والاحتراق الذاتي الدائم

فعلى الرغم من يقينهم بأن البركة هي بعض ما منَّ الله به عليهم، إلا أنهم يجدون ما تضمنته رزنامة التغيير والبناء التي يراهنون عليها، أكبر مما تسعفهم به الحياة، ويتيحه لهم العمر من طاقة ووقت.. لذلك تراهم يعيشون الاحتراق الذاتي الدائم، تنوء كواهلهم بأحمال كالجبال الراسيات، يستغرقهم عمل دائب لا ينقطع، هو تسبيح صميم، ويستنفدهم استغراق عميق في البرازخ، هو عين العمل والكد، يمضون دائبين على الحداء وتجنيد ذوي العزائم، مشددين على إيجاد المدود التي يطمئنون بها على مواصلة ما دشّنوه من طرق العمل والبناء؛ إذ يعتبرون أن الدأب على فعل الخيرات هو أوكد الواجبات التي يعيش لأجلها المؤمن، فالحياة بالقياس إليهم هي مزرعة الآخرة، وأهل الحظ هم الذين يدركون أن الحياة الحق هي دار القرار، إنما الدنيا هي للكدح والتعمير، لذلك جعلوا شعارهم نحن لا نحيا لنعيش، بل نعيش لنحيا.[٢٦]

من حياة التفرد والقنوت استمد كولن مدودًا من التفتيقات الروحية والفكرية عزّزت لديه ما امتلك- بالفطرةً- من قابليات الفطنة والذكاء والتفوق، فلذلك تهيأ لإدارة مشاريع، حجمُها حجم نهضة تراهن على قلب الأوضاع وتجهيز الأرضية للانطلاق الذي لا رجعة فيه.

انظر كيف يَسْتَضْئِلُ خرائط لا تني تتوسع وتمتد عبر القارات، تتمثل في منظومة من المنجزات والمشاريع الإنهاضية، تستنفر الآلاف المؤلفة من العاملين في مختلف الدرجات، والمساهمين في شتى المستويات،

---

[٢٦] انظر: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

والمستفيدين في مختلف المجالات، وهي لا تفتأ يومًا بعد يوم، تثير الدهش والإعجاب والإكبار بتنامي وتائرها، والأبعاد والطرز والمعايير التي تميزها.

من مداومة التوحد يكتسب المفكر إمكانات نفاد ضافية، يستمدها من استقرائه الدائم لسير الرموز والفرديّات. وإن توطين النفس على مساكنة الأزمنة النيرة والعهود الخَيِّرة، وفي مقدمتها عهد البعثة المشرق، وما حققته السيرة المحمدية في مضمار تصنيع الروح، وقلب الأوضاع، والانعطاف بالتاريخ من اتجاه إلى اتجاه معاكس، في أقل من عشريتين، ثم ما أنجزه الراشدون في بحر عِقد من الزمن، نضدوا خلاله الأرض، وساسوا إمبراطوريتي البغي والطغيان (فارس والروم)، وبسطوا الجناح على مركز الأرض، واستظلوا أممها تحت راية الإسلام.. إن توطين النفس على التأمل في كل ذلك، وفهم أسراره وقوانينه، لهو أعظم غُنْم وأثمن كسب يمكن أن يستحصله الدارس والمستقرئ والمتفحص من صفحات ذلك الماضي الذي أسّس لميلاد حضارة الإسلام، ووفّر لها تلك الاندفاعة التي استرسلت قرونًا، لوّنت خلالها الدنيا بألوان الإسلام الزاهية.

فبصيرة المتبصر تزداد جِلاء باسترفاد تجارب التاريخ ومواعظ الشريعة؛ لأنها ستستوعب في متنها أرصدة ذهبية من العبر والتسديدات التي تساعدها على الفوز.

ثم إن القائد يجد في الانخراط في مهام البناء، وما يقتضيه ذلك من اضطلاعه بأعباء القيادة، مجالاً آخر لمدود أخرى من التوفيقات والخبرة، يستخلصها من التحامه بالواقع، واشتباكه مع التحديات، وبذلك تغتني رؤيته، وتكتسب المرونة والواقعية؛ لأنها تراهن على النفاذ والفاعلية تحديدًا، ولا استعداد لها أن تخطئ في الرمية؛ لأن من يجعل هدفه

الأسمى هو تحقيق النهضة، وتجاوز العثار المزري بالمكانة، واللحاق بالركب، لا يمكن إلا أن يكون أشد ضنًّا بالوقت والإمكانيات.

العقل الملهم وقادة الفكر

يرى كولن أن النهضة يصنعها العقل الملهم؛ إذ لا بد لكل التحولات النوعية من قائد يترسم لها التصور والخطة والتنفيذ. وأبرز من يجعلهم كولن مصدر إلهام لهذا النمط من قادة الفكر، هم الأنبياء، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ؛ إذ جاءت بعثته، عالمية، تصنع الإنسان الخالد، وتُرسي المعالم والسبل التي تعزّز من شأنه، وتضمن له أن يظل خليفة لله في الكون.

مواصفات القائد المدشن للنهضة الحضارية مواصفات قلبية بالأساس، استمدادية، تتوسل إلى مقاصدها بالمدد الإلهي الذي تعْلم برسوخ إيمانها، أنه القادر الذي بيده الأمر، ومنه يتلقى العبد رشده وتوفيقاته.

الإيمان هنا، هو عامل إسناد أساسي؛ لأن المؤمن -بما يعمر قلبه من ثقة في ربه- يجد تلك الطاقة الخارقة التي تستشعرها الروح حين تتوطد أواصر اليقين بينها وبين السماء، فهي بانجذابها نحو خالقها، لا تعود تلقى في ما تخوض من عراك، ما نراها عليه من أحوال المكابدة والتمزق والرهق.

لقد ظل أهل العشق يحدثوننا عن انخطاف أرواحهم تحت تأثير جذل التنعم والتبهُّج وهم في صلب الامتحان، يتحولون من شدة إلى شدة، يُسحقون ويُمحقون، وما ذلك إلا لأن الروح ارتاضت لديهم على أن تتعالى عن الآلام؛ لأن القلب في كل الأحوال والظروف، مُخيِّم في الحضرة، منتش بما يَهُبُّ عليه من نسائم الاطمئنان.

رجال الخدمة ودورهم في البناء

ولقد رأينا كولن من جهة أخرى، يُنيط مهمة إنجاز النهضات بقطاعات المتطوعين، أهل الخدمة، أولئك المُسَبَّلون الذين يستمدون القوة والاستماتة من مناخ التضحية الذي يتحركون فيه، ذلك المناخ المشحون بكهرباء الإيمان الذي لا يفتأ ينبعث من أفئدتهم العامرة بالتقوى، ولا ينفك ينتهي إليهم من الخيوط الموصولة مع مصادر التأطير التي ترعاهم بأبوة ومسؤولية. فهؤلاء الخُلَّص هم أيضًا يتقدمون في الأشواط على هدي استنارة قلبية، وحماس روحي متصاعد.

هؤلاء الحواريون الذين أقبلوا على المعركة، حاديهم ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(التَّوْبَة:١٠٥)، لهم هم أيضًا حظوظهم من العشق؛ إذ لا يدوم انخراط، ولا تتزايد نتائجه، إلا حين تستحكم رابطة الانتساب الروحي إلى صفّ أهل الخدمة وبذل الجهد، بحيث تضحى مسألة النهضة والمصير، مسألة وجود شخصي، ورهانًا ذاتيًّا تهون لأجله كل التضحيات.

يقول كولن واصفًا رجال الخدمة ودورهم في البناء: "إن انبعاثنا مجددًا بثقافتنا الذاتية يتطلب رجالاً متحفزين للإيمان، ومهندسي فكر سائحين في الغد بأُفقهم الفكري، وعباقرة يحتضنون الوجود والأحداث بأصواتهم الفنية، ويتعرفون بتحسساتهم وتفحصاتهم الدقيقة على آفاق جديدة أبعد من الآفاق التي نحن فيها"[٢٧].

ويؤكد هذه الصفات التي يرشح لها رجالَ الخدمة، قائلاً: "إن جند

---

[٢٧] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٣٤.

الإدراك الذين يؤدون وظائف مثل فتح الآفاق أمام نظامنا الفكري المنغلق، ويشغلون تبلدنا في المحاكمة العقلية المتقادمة، المبتعدة عن السماوية بتدويرها في الفلك القرآني، ولا يغفلون أثناء ذلك عن المناسبة المفعمة بالسر بين الكائنات والإنسان والحياة، ويمثلون نموذجًا للدين يجسد إحياء الأوامر الدينية وتحقيقها بحرص بالغ، إلى جانب مراعاتهم أصلاً مهمًّا من أصول الدوام والتمادي في السبل المسلوكة، وهو التوافق مع آفاق صاحب الشريعة في التيسير والمواءمة والمسامحة؛ حتى تكون سمته فيضان التبشير وترك التنفير، وإنهاء العقم المزمن منذ قرون بتسليم قوة العلم والتفكر لإمرة الإسلام وتفسيره، وتحويل كل مكان مدرسةً كان أو معبدًا، شارعًا أم مسكنًا، إلى مراصد ترصد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان، وتشغيل منافذ الرؤية المتأملة في اللانهاية، والتي يمتد زمان تعطلها إلى قرون.. وتقديم أجندة حضور الإسلام في مرتبة النظر دومًا وفي وحدات الحياة كلها، وتحكيم الحساسية في قضية السبب والنتيجة حسب مبدأ تناسب العلية، والتصرف الرياضي والعقلاني.. هؤلاء هم من يعينونا في التجدد، ويعلموننا أركان الحضور والوجود الدائم الأبدي"[٢٨].

لا ريب أن كولن -في هذه النظرة التي قوَّم بها رجال الخدمة- يسدّد نحو أُفق المثالية الذي يفترضه مقامًا لهؤلاء المندفعين في سبيل إحياء الأمة. ومن المؤكد أنه أضفى في هذه التوصيفات التي تعلي من مكانة وشأن أهل الخدمة، خصائص من المقامية والسلوك والافتدائية التي بلغها

[٢٨] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٢٠.

هو ودرج عليها في حياة العطاء التي يحياها.

بل نراه لا يزال يتطلع إلى ميلاد النوعية الفذّة التي تحسم الرهان. فهو يدرك أن الطلائع التي كتب الله لها أن تنحاز إلى لوائه، سيكون لها الخلف الذي يمضي بالغاية قدمًا، ويتحمل مسؤولة انتزاع الفوز، ويحقق ما تسعد به الأرواح.

"نحن أمة تنتظر وتترقب رجال عزم وإرادة وجهد، يحملون هذه المسؤولية، فلسنا بحاجة إلى حسنات ونُظم فكرية تستجدي من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة إلى أطباء الروح والفكر الذين يحفّزون في شعبنا كله حسّ المسؤولية وشعور القلق والاضطراب.. حكمة حكماء الروح والفكر الذين يمكّنون التعمق في أرواحنا بدلاً عن وعود السعادة المتقلبة إلى زوال ويرفعوننا بحملة واحدة إلى مراتب نرى بها المبدأ والمنتهى معًا وسوية"[٢٩].

لا مناص لرجل الخدمة من أن يتحلى بسمة العشق؛ إذ لا يسع المنخرط أن يضطلع بأدق المهام وأكثرها بسالة، إلا إذا كان من أهل الروح، ولا يترشح للأدوار الدائمة والمتواصلة وذات العناء المتصاعد، إلا عنيد، يعيش الآخرة في الدنيا.

النهضة لا تستغني عن جهد أحد، فالجدار يُبنى بالأحجار المقولبة، وبأنصافها، وبالقرش والحصى، بل ويُلحَم بالجبس والطين.

إنما يختص بمهام الدقة والحسم وإنجاز الفتوح، المُسَبَّلُون من ذوي الانجذاب العروجي، الذين يتراقصون جذلاً في عز الالتحام، حين يحمى الوطيس. هؤلاء بلغوا رتبة الامّحاء، لا ينافسهم أحد لجبروتهم القلبي،

---

[٢٩] ونحن نقيم صرح، فتح الله كولن، ص:٨٩.

ولا ينافسون أحدًا؛ لانخطافهم إلى ما يرفرف على الرهانات من تجليات الرضا الإلهي.[٣٠]

وإذا كانت خطة الانتقاء للأدوار تضع أهل الإمعان التبتلي في المقدمة، فإنها تتحفظ حيال الذين يُظهرون تدينهم أو المتدينون، فالأنانية غالبًا ما تقعد بهم عن بلوغ عتبة التجرد الذي يتنزه به الفعل من الغرضية. إن ضرر هؤلاء يقارب ضرر اللادينيين، "الصنفان كلاهما لا يوقّر الدين، وكلاهما لا يتسامح في التفكير الحر، وكلاهما منغلق أمام فكرة المشاركة والتقاسم"[٣١]، وكلاهما حجر عثرة في سبيل تحقيق الانسجام داخل الصفّ.

إستراتيجية قرن العلم بالدين

من أُسس تجديد وعي الأمة تعميم الشعور بالمسؤولية بين كافة أعضاء المجتمع، وإشعارهم عن صدقٍ بأن رهان النهضة، وما يُقام من مشاريع الإقلاع، هو عين التكليف، وفرض العين على كل واحد وواحدة؛ إذ إن ما يجعل الوهن يصيب المشاريع، ويعطلها، ويتركها هملاً، هو عجز أصحابها عن المطاولة والاحتمال. وكل تحول نوعي تتبناه فئة أو قطاع أو حزب، ولا تفتحه في وجه الأمة كافة، بمختلف مستوياتها ومكوناتها، مآله إلى التحجم والتقزم والتراجع.

وإن تنافس القوى في بلاد الغرب يقوم على التنافس في إعلاء الوطن، وصونه، والسير به في طريق التقدم، عكس التصارع السياسي عندنا، المعتمد على نفوذ يستهدف ترسيخ الحكرة، والتسلط، وتأبيد عقلية المافيا.

---

[٣٠] انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

[٣١] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٤٧.

إن النهضة غاية الأمة بكافة تعداداتها. والمؤكد أن العجز يفتك بالرهانات الكبرى بسهولة حين لا يكون لها الاحتياطات الكافية، ولا يتوفر لها شرط التضافر وتشابك الأيدي.

إن مهمة الطليعة المؤمنة، المتنورة، تفرض عليها حشد الكفاءات والطاقات والمناصرين من سائر الأوساط. وإن مسؤولية تأصيل الحراك، وتمتين قواعده، وجعله غاية الأمة جمعاء، هي مسؤولية النيرين، أهل السبق إلى التدشين النهضوي المنطلق.

"ولا شك أن إنجاز ما تمليه هذه المسؤولية مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأبطال يصونون مصير الوطن، ويحمون تاريخ إنساننا ودينه وأعرافه، وتقاليده ومقدساته كلها.. أبطال طافحين بحب العلم، منشدين إلى الإعمار والإنشاء، متدينين أخلص من الخُلَّص، محبين للشعب، ومرابطين أبدًا على أداء واجباتهم بشعور المسؤولية، فبهؤلاء وبجهودهم ستهيمن أفكارنا، ومحصلة هذه المفاهيم والأفكار على حياة شعبنا"[٣٢].

وإن أخطر ما يتهدد البرامج الجادة، ويتعقبها بالنسف والتعطيل، أن تظهر إلى الناس في صورة مقاصد فئوية لا تهم المجتمع، ولكنها تهم الداعين إليها. حينئذ يقف المجتمع والسواد الأعظم منه، موقف المتفرج، بل ستمتد منه الأيدي للاعتراض والإعاقة والتفليس، إما بدافع التنافس أو للمعارضة المبدئية، أو بإحساس من يريد أن يركب العربة ويقودها هو لا غيره، وفي كل ذلك ما فيه من عوامل الفشل والوهن والاستسلام.

ليست النهضة جدولاً من النتائج، يتفرغ بعدها العاملون إلى المتع

---

[٣٢] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٩٣.

وجني الثمار، كلا إن النهضة تحوُّل صميم، يشمل الأفراد والمجتمع عامة، سلوكًا وثقافةً وتطلعات، ويجعل من العمل الصالح مقوم حياة، ومبرر وجود، وشرط أخلاق واجتماع، لا كينونة بدونه، ولا شرف، ولا كرامة.

من هنا كان على الطليعة التي يُكتب لها أن تكون حاملة المشعل، بل والجذوة التي أشعلته، أن تتفانى في توسيع مساحات المشاركة؛ بحيث لا تفرّط في أي جهد تتمكن من استقطابه لتعزيز المسيرة.

والمؤكد أن أفضل أساليب الاستقطاب والتوسع في دوائر العمل، هو السلوك الفردي والجماعي الذي يظهر عليه الرواد. ففي أصالة العطاء، وسماحته، وفي سلوك نكران الذات، خير وسائل الشد والتأثير الذي يتمكن العاملون من خلالها أن يقووا من جانبهم، وأن يعززوا من صفوفهم.

إن خلق ثقافة التجميع والمشاركة والأداء المشترك، والعمل المتقاسم، هو أحد أبرز المقاصد التربوية التي يحرض عليها الأستاذ كولن. فكل المقومات التعبدية والتعاملية التي يقوم عليها الإسلام، تركز على المقصد التجميعي المنتج، وتحرض على المرمى الجماعي المثمر؛ ذلك لأن الإسلام قد أرسى الأسس التي تؤكد مبدأ الجماعة؛ لأنه دين المشاريع، وتجديد النهضات، والتأهيل البناء والإيجابي لخوض التحولات الكبرى؛ لأن سند الأمة المسلمة الأول والأخير في كل هذا وذاك، هو السند الإلهي الذي لا يمتنع عن قدرته شيء.

تلافي الثغرات في المنهج والأداء والإنشاءات

من أوكد ما يلفت إليه الأستاذ كولن ويشرطه لنجاح الخطط النهضوية،

أن ترتكز على قاعدة من الانسجام، وألا يخالطها التهلهل الذي يجعل بنية الخطة مخترقة بما يسميه كولن (الثغرات)؛ ذلك لأن الرشادة في التقدير تفترض أن يشتمل كل برنامج أو منشأة أو تأسيس على مقومات حيوية تفي بتلبية الحاجة وتغطية النقص في قطاع حياتي ما، فإذا لم يتوفر البرنامج على هذا البُعد التكاملي، جاءت النتائج المتوخاة منه ناقصة، أو زائدة، أو غير ذات جدوى؛ لأنها -ميدانيًّا- تعجز عن أن تستجيب للمطلب الحاجي أو التجهيزي أو الارتفاقي، فلا يكون لها من ثمة لزوم.

وإن مما يثير الذهول أن نرى مؤسسات التكوين في عالمنا العربي تستنيم لنظم تعليمية بلا هدف، فما زالت المراكز الجامعية، والمعاهد التكوينية، والمدارس العليا تخرّج سنويًّا الآلاف المؤلفة، من غير أن تضع السياسات الوطنية الخطط التي تستوعبهم، ليس فقط من أجل امتصاص البطالة، ولكن لجعل التعليم ينهض بدوره الأول والأخير وهو إنشاء القوى التي تتحول عند تخرجها إلى قوى ينتظرها عالم الشغل، في شتى مفاصل الحياة، فتدور الماكينة بهم وبجهودهم، فتتوسع بهم أرضية التصنيع والتجهيز والزراعة، والبحث الكيماوي والذري والخدماتي، وتنشط حركة الإبداع، وتتقلص باستمرار حاجة المجتمع والأمة إلى الاستيراد، بل وتدخل عالم المنافسة، وتقتطع لها في الأسواق الدولية مساحات لصادراتها من المصنوعات والمنتجات.

لا زالت الجامعات العربية والإسلامية، تُكَوِّن الميكانيكيين، ولا تزال بلداننا تستورد العتاد والسيارات، وحتى المفكات والمسامير.. وما ذلك إلا لأن الخطة التمدْرسيّة بالمدارس وُضعت بشكل ساذج، بحيث يضحى دور مؤسساتنا في التكوين هو تهييء دفعات الشباب المكون، وترشيحهم

للهجرة الجبرية، وإفادة الآخر بما نتكبد فيه باهظ الأثمان؛ لأن التخطيط القومي والوطني لم يضع في حسابه ابتكار شبكات المؤسسات التي تصنّع المجتمع، وتحوله من مستورد لكل شيء، إلى مكتفٍ، وإلى مُصدِّر.

هكذا تستمر أوطاننا في هدر الأموال الباهظة بلا كبير طائل؛ لأن التخطيط عشوائي، لا مهندس له يرشِّدُه، ولا عقل يسدده ويضعه على سكة النجاعة الحق.

من جهة أخرى نرى كولن يشدد على وجوب توفير عامل الانسجام وتفادي الثغرات على مستوى التنفيذ والانضباط؛ إذ يرى أن البناء النهضوي يقتضي الجماعية، فالمشروع التنموي، وإن شجّع وعزّز المبادرات الفردية، ودعم أصحابها، بل وبحث عنهم وتبناهم، إلا أنه يحرص على أن يدرج المبادرات الفردية ضمن نسيج الخطة، بحيث لا تبدو عشوائية، أو زائدة عن منظومة الوحدات، أو معارضة لما تتوخاه الخطة.. فبذلك التصفيف الإدماجي الذي تخضع له الجهود الفردية، والمبادرات الأحدية، تضمن برامج النهضة شرط الانتظام، فيغدو النماء شاملاً، ومتكاملاً، وتغدو إمكانات التوسع العضوي، أو المتوازي، أو المتلاحق، أمرًا ممكنًا، بل ولازمًا؛ إمضاء لمشاريع النهضة في الاتجاه الشمولي المتكامل.

"إن الهمم والمبادرات الفردية إن لم تنضبط بالتحرك الجماعي، ولم تنظم تنظيمًا حسنًا، فستؤدي إلى تصادم بين الأفراد -وبين فقرات البناء وفروع التأسيس-.. وبالتالي سيختل النظام"[٣٣].

فمن شأن جدولة العمل، وتقسيم الوظائف، وتوزيع المأموريات، أن

---

[٣٣] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٤٤.

يحدث الدينامية التي تهيئ مزيدًا من الفرص، وتفتح مزيدًا من الآفاق في وجه الخدمة والتثمير.

إن مبدأ الالتزام بشرط الانتظام والانسجام في برامج التنمية ومكوناتها، بقدر ما يشدد على أهمية التنسيق في ما بين الفروع والوحدات، لأجل السير بها في طريق التوسع المتكامل والتكاثر المتناسل، يشدد أيضًا على أهمية ترصُّد الكفاءات المتفرّدة، وإيجاد الموقع المناسب لها؛ لتقوية الدفع. فمن الجهد المتفرق تنشأ القوة الفاعلة، شريطة أن يتم تنظيمها في نسق وسياق، "ينبغي أن لا تطفأ جذوة الطاقات الفردية بتاتًا، باحتساب ضررٍ قد تسببه، بل على العكس تجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، وتوجّه نحو تحقيق الهدف المنشود"[٣٤].

ولا يستتب النظام والتخطيط والانضباط، إلا في جو سمح، يكتنف علاقة الجماعات والفئات القائمة بالخدمة. وكل خلل في الروابط -حتمًا- يسري معه الخلل إلى المشاريع، فيؤذيها ويضرّ بها.

وإن كولن الذي عاش بروحية الحلقة، فهو حتى حين يتفرد وتغيبه الوحدة، يكون في حقيقة الأمر يعيش وسط أخلاء يستحضرهم في قلبه، وينادمهم.. ذاك هو شأن المتبتلين ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾(المُزَّمِّل:٨)، فلذا هو يرى أن للجماعة بركة تستمدها من رابطة المصافاة في ما بينها، ومن التآخي، ومن الطاعة التي يرى فيها كل فرد من المجموع فضل الآخرين عليه، وأنه لا شيء بوحدته، لولا ما ينعكس عليه من إخوته العاملين معه.

إن مراعاة واجب الانضباط، وتحقيق الطواعية، واستنزال التوفيقات

---

[٣٤] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٤٤.

بدعاء الجماعة، و(العمل الخيري أفضل الأدعية وأبرها وأحظاها بالإجابة الإلهية)، والحذر من تعاكس الإرادات، وتصادم الرؤى، وظهور الأنانية لدى المؤطِّرين، هي بعض وصايا مدونة السلوك التي وضعها كولن للعاملين؛ إذ لا ينبغي لرجل الخدمة -وهو في غمرة الأداء والبذل- أن ينسى أنه يسير على هدي أهل الشوق والعشق، فالتجرد يكون من أخص صفاته، وإلا يكون مجرد متربص، ومتدرب، وعليه أن يبذل الجهد الخالص ليرقى إلى العتبة، حتى تنفتح عيناه على النور الوهاج. كما أن الاستعداد بالفطنة، والإسراع إلى استيعاب كل مدد مفيد مما يعرض المجموع، أمرٌ من صميم واجبات العاملين.

ففي ما تقدمه المدنية الراهنة من أفكار ووسائل في مضامير البناء والتسيير والسيطرة على الإنجاز، هو من المكاسب التي ينبغي أن تُنتَقى وتُدمَج في المنهاج، شريطة أن يُعمل على تأصيلها وتكييفها مع روح الخدمة.

إن من شأن اليقظة والتفطن أن يستبقيا باب الاجتهاد والتحسين مفتوحًا، وإمكانات الترقي في الإنجاز متضافرة. الأمر الذي يجعل الخدمة مسارًا يستقطب الأجيال، يلتحقون بها من مختلف الاختصاصات والاستعدادات، يضيفون إليها أدوارًا بعد أدوار، ويمضون بها قُدُمًا. فالنهضة استرسال وصعود في المدنية والأخلاق، والتاريخ حلقات يتنافس الأجيال في كتابتها بما يبذلون من أعمارهم وأعمالهم.

على أن يكون الحرص الحريص في كل ذلك، هو أن يجعل العاملون من قاعدة الإيمان بالله مقياسًا أوحد للنجاح في كل شأن ينجزونه أو هدف يراهنون عليه.

كتب الأستاذ فتح الله كولن المترجمة إلى اللغة العربية

١- ونحن نقيم صرح الروح
٢- ونحن نبني حضارتنا
٣- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-١
٤- ترانيم روح وأشجان قلب
٥- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
٦- القدر في ضوء الكتاب والسنة
٧- الموازين أو أضواء على الطريق
٨- حقيقة الخلق ونظرية التطور
٩- أسئلة العصر المحيّرة
١٠- أضواء قرآنية في سماء الوجدان
١١- طرق الإرشاد في الفكر والحياة
١٢- ألوان وظلال في مرايا الوجدان
١٣- النور الخالد: محمد... مفخرة الإنسانية
١٤- القلوب الضارعة / إشراف: محمد فتح الله كولن

كتب ودراسات حول الأستاذ فتح الله كولن وفكره

١- عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن / د. فريد الأنصاري
٢- محاورات حضارية / د. جيل كارول
٣- البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة / د. محمد باباعمي
٤- فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية / أنس أركنه
٥- مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي
٦- الضاربون في الأرض / أديب إبراهيم الدباغ

الانبعاث الحضاري
في فكر فتح الله كولن

لا تتحقق النهضة –بنظر الأستاذ كولن– إلا على مخطط علمي واستراتيجي مُحكم.. ولا تتحدد الاستراتيجية إلا على أرضية من فكر مستنير رسخت قناعاته، واستقرّت دعائمه، وتوطدت خياراته، واستكمل مقومات تعبئته وانطلاقته في اتجاه تنفيذ الأهداف المتوخاة، وبلوغ الغايات المراهن عليها.

لن يكتب النجاح لأي استراتيجية ما لم تكن تستند على فكر محصَّف، وعزيمة قاطعة، وتصميم متبصر في الرؤية والتوقعات. ولكل فكر خلاَّق احتياطٌ من المعارف والقيم والضوابط تجنبه العُطلة، وتتجاوز به الطوارئ والعوائق وحوادث الطريق. ولا تتمايز الأعمال الناجزة، والمهام النافدة، إلا بالتخطيط المحكم الذي تتم فيه. وكل صرح مادي أو معنوي استكمل بنيته، واستوى على دعائم الكمال، لا يولد إلا في كنف تفكيرٍ سديد، وتَرَوٍّ قويم.

تلك هي بعض المبادئ والأبعاد التي يرتكز عليها فكر الأستاذ كولن.

ISBN 978-975-315-483-3
9 789753 154833
www.daralnile.com
Fethullah Gülen, Medeniyet ve Diriliş